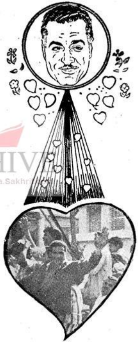
رائد أمة وصانع تاريخ



فارع القامة ، رافع الهامة ، عريض المنكبين ، تجيش حيويتـه فى اهـاب رجولته ، فتنبعث فى عينيه تطلعا الى الأفق البعيد ، وتملأ قلبه ايمانا بالغد، وثقة بالغلبة والنصر .

تلمحه على المنصة فى وقفة الحزم والعزم ، وقبالته الأفواج المرصوصة ، مشدودة الأحداق نحوه ، مرهفـة الأسماع اليه ، ترقب ما يلفظ من قول، كأنها بحر يزخر بالموج ، مسته عصا ساحر ، فأمسك عن الحركة بغتة ، وران عليه سكون عميم .

بقلم
محمود تيمور

هنالك يبدأ خطبته ، جهير الصوت ، ثابت المقطع ، يرسل الكلمة تلو الكلمة ، والجملة بعد الجملة ، تتجاوب بها ارجاء الفضاء الفسيح ، فاذا هي تبلغ شغاف القلوب، وتنفذ الى مكامن الشعور ، واذا البحر الساكن ينفك عنه السحر فيتدفق عارم الموج ، تستبد به حمية وحماس.

ما اجله مشهداً تنقل فيه بصرك بين الخطيب وجمهوره ، وقد استولت عليك مهابة واكبار ، وسرت بين جنبيك سارية من نشوة الخشوع .

انه فى هذه الوقفة الجبارة ، فى هذا السمت الأشم ، وهو مسترسل يجلجل بنبراته ، يروعك منه اول ما يروعك قسمات وجهه ، اذ تتشكل فى طواعيــة معبرة ، وتأدية مصورة .

كل خلجة ترف على محياه ، كأنما هى مرآة الكلمة التى ينطلق بها لسانه ، وروح المعنى الذى يريد الاعراب عنه . فما هذه الخلجات التى تتعاقب على صفحة وجهه الا ترجمة حسية لتلك الكلمات التى تنبس بها شفتاه لا يعوزها البيان والافصاح .

حسبك أن تراه ، دون أن تسمعه .. حسبك أن تستجلى ما يرتسم من سماته وملامحه ، لكى يتــادى الى فهمك قصارى ما يبعثه ذلك الصوت الرنان من افكار ومعان .

أنت ماثل أمامه ، لا تفتأ تطيل التحديق فيه ، فى هــذا الوجه الذى يكسوه طابع العروبة العريقة ، ذات السمرة الرائقــة .

خلف هذه البشرة الملوحــة ، تكمن خصائص العربى الصميم .

فى ذلك الوجه السوى ، نموذج لابن العرب الأصيل .

انه من طينة « مصر » الزكية ، تلك الطينة التى انضجتها شمس الوادى الساطعة تبث فيها حرارة الفتوة والحيوية ، وغذاها هواء الصحراء الجاف يبعث فيها خصائص التجلد والمصابرة ، ورواها ماء النيل عذبا يتدفق فى عزمة وكفاح .

انك لتحد بصرك فى ذلك الوجــه ذى البشرة الملوحة السمراء ، فتستبين لك حمرة الدم الحى .. لكأنها حمرة

النيل فى أوج فيضانه ، وذروة عنفوانه ، ينفح الوادى الخصيب بالخير والبركات .

فى وقفة هذا البطل الفارع ، براسه المرفوع ، ومنكبيه العريضين ، وهو يستشرف الأفق بعين النسر المتوثب ، يتمثل جلال الماضى ، ويقظة الحاضر ، وأمل المستقبل .

شبيه هو فى وقفته تلك بالمصرى الأول «رمسيس الثانى»، يتقدم جيشه المحتشد ، وهو على اهبة الغزو المظفر .

بل ما اشبهه بأخيه « أحمس » محرر الوطن ، فى يمينه قوسه وسهامه ، يسوق الرعاة الغاصبين سوق النعم ، ليجلوهم عن الأرض الطيبة .

بل ما أقربه شبها الى البطل « صلاح الدين » يقيم للعروبة مكانة سامقة ، لا تنال منها صروف الأيام ..



كان «« صلاح الدين »» بطل «« فلسطين »» ، وسيد «« بيت المقدس »» ، وذلك هو خليفته ، يرفع راية العرب خفاقة تبهر العيون من مهابة ، وترد كيد العادين من خوف وفزع ..

حقا انه لرائد هذا الوطن العربى الكبير ، فيه تتمثل روحه الطموح ، وتتجسد عزيمته الثائرة ..

انه لينهض بهذا الوطن نهضته الكبرى ، وينشر الوعى القومى الشامل ، ويقيم فى ربوع البلاد صروحا من الاصلاح عالية البناء ، بها تتحقق المبادىء القويمة ، ويدنو المثل الرفيع .

هذا هو الرائد الذى استطاع ان ينزع عن عاتق الوطن تلك الشملة السوداء التى رانت عليه طوال العهود .

ها هو ذا يمزقها كل ممزق ...

ها هو ذا يضرم النار فى بقاياها ، فتغدو هباء تذروه الرياح ...

انه ليباعد بين أمته وبين تلك الظلال القاتمة الكئيبة ، تلك التى عشنا فى حلوكتها أعواما مديدة .

هو الرائد الأول ، لا ريب ...

الرائد الذى رأى بنور بصيرته أن وراء الليل الأسود فجرا قريبا وضاح السنا زاهى الاشراق ..

الرائد الذى لم تعوزه فى سعيه الحثيث جسارة واقدام، ولا ردته عن بلوغ الغايات مصاولة وجلاد ..

الرائد الذى لا يثنيه خوف ولا رهب ..

لم يراقب فى نزعاته ومراميـه الا الله .. اذ آمن بأن للكون ربا بيده مساق الأقدار ، واليه مصير كل شىء فى الوجــــود ..

لم يراع فى أعماله ومساعيه الا ضميره اليقظ .. ذلك الذى يتصدى له فيما يسر ويعلن ، ويشير عليه فيما يأخذ وما يدع .

لعمرك ما كان لهذا البطل أن يبلغ من زعامة الأمة ذلك المبلغ العميق ، الا بعد أن اكتسب فى سيطرة وتمكن صـفة الزعامة المثلى ، بل فضيلتها الاولى : **الشجاعة ؛ شـجاعة الرأى ، وشجاعة النفس ، وشجاعة الارادة ..**

لقد كانت صفات الزعامة كامنة فيه ، خلقت معـه ، وعملت الأحداث عملها فى تنمية تلك الصفات الغالية ، فاذا هى تتفتح ، واذا هى على مر الأيام تزداد من نضج ، حتى دقت الساعة الحاسمة ، تنشد رجلها ، وتنادى بطلها ، وكأنما كانت تناديه ، وكأنما كانت تعنيه .

ومضى على الطريق ، يذلل الصعاب ، ويتخطى العراقيل، ويصنع المعجزات ..

حسبه أنه صانع جمهوريتنا الفتيــــة ، جمهوريتنا الحاضرة ، بما وفر لها من حرية سياسية ، وبما أرسى فيها من قواعد العدالة الاجتماعية ، ووسائل التقدم الاقتصادى ، وبما واتاها به من قــدرة على التطور الأصــيل فى شتى المجالات والميادين .

حسبه اليوم أنه اذا شاء أن يجهر بكلمة ((لا)) قوية مدوية ، فليس شىء فى الأرض بقـــادر على أن يثنيه عنها بترغيب أو ترهيب .

لقد نطق بها غير مرة ، فأصاب بها انتصارات فذة ، وكانت فى سمع الزمان فصل الخطاب ..

انه ليسدد كلمته الأبية ، فيصيب بها المرمى البعيد ..

ذلك لانه يقدر هذه الكلمة حق قدرها ، فيعرف كيف تقال ؟ وأين تقال ؟ ومتى تقال ؟

منطق يحسنه الزعيم الذى حذق فن الحرب ، فعرف كيف ترسل القذيفة ؟ وأين تكون الرمية ؟ ومتى يصاب بها الهدف ؟



ايها المواطن الزعيم :

انت الساعة تبنى مجد وطنك العربى الكبير ، وانت فى الوقت عينه تبنى لنفسك مجدا وان لم ترد ، ولا غرو ، فلا فاصل بينك وبين الوطن الذى فديته بروحك ، بجهادك ، وما زلت له سمح النفس فى موقف الفداء .

اى فاصل بينك وبين وطنك ، وهذا الوطن اليوم وحدة شاملة تجمع « الزعيم » و « الشعب » معا ، فتجعل منهما جسما واحدا وروحا واحدة ؟

اهنأ ايها البطل المتسامى بنظرته الى العلى ، المتطلع الى الافق المشرق ، أفق الأمل الزاهر ..

اهنأ بما كسبت للعروبة من مجد ، وما عقدت بناصيتك من فوز .

تابع خطاك ..
الى الأمام ..
الى القمة بعد القمة ..
والأمة العربية من حولك ، ويد الله مع الجماعة .

محمود تيمور





الفارس الجميل

بقلم : علي أحمد باكثير

وردت الأنباء من الشام بأن عبد الملك ابن مروان ارسل البعوث والسرايا ليكونوا طلائعه فى غزو العراق وانه قد اعد لذلك جيشا هائلا وصمم على الا يعود الى الشام فى هذه المرة الا بعد أن يفتح العراق . فلم يكد مصعب يصدق ما سمع ، اذ كان يعتقد دائما أن عبد الملك لا يمكن ان يكون جادا فى قتاله هو . فطالما ركب اليه من قبل بجيشه وهو يعلن انه سيغزو العراق ويقاتل مصعب بن الزبير ، فاذا هو يغير على بعض الخوارج فى طريقه ثم لا يلبث أن يكر راجعا الى الشام معتذرا بأن الشتاء ببرده ووحله قد حال دون مواصلة السير الى مصعب .

وكذلك كان مصعب يفعل اذ يتوجه بجيشه نحو الشام للقاء عبد الملك فى الطريق فلا يلبث أن يعود قافلا الى العراق حين يبلغه ان عبد الملك قد كر راجعا الى الشام .

ولكن ابراهيم بن الأشتر كتب اليه من الكوفة يؤكد له عزم عبد الملك ، وينهى اليه أن بعض رجاله قد تسللوا الى الكوفة ليدعوا أهلها اليه ، وانه قبض على نفر منهم فاستنطقهم فاقروا له فلم يبق عند مصعب شك فى ان الأمر جد .

واراد أن يستقدم المهلب بن ابى صفرة ، وكان يقاتل الخوارج بفارس ، ليكون معه فى حرب الشام ، ولكن أهل البصرة ابوا عليه ذلك وقالوا له :

– لا نسير معك ونترك البصرة هدفا للخوارج وقد بلغوا سوق الاهواز ، ما لم تترك المهلب يقاتلهم دوننا ، فانا لا نأمن أن ينقضوا على البصرة اذا راونا قد تركناها معك .

فانصاع مصعب لرأيهم .

ولما اعتزم المسير الى الكوفة امرت سكينة بنت الحسين على أن تصحبه حتى تكون الى جانبه وهو يقاتل عبد الملك .

قال لها :

– انى اشفق عليك يا سكين من مشاق الطريق واهوال القتال .

قالت له :

– لا عليك يا مصعب منى فانى انتظرت هذا اليوم من زمن طويل . وعسى أن تهزم هذا المروانى فتسير الى الشام وتملكها مكانه .

ولم يشأ مصعب ان يقول لها انه انما يسير للقائه مكرها ، وانه لو استطاع أن يتجنب قتاله لفعل ، وان أمله فى الانتصار عليه اذا حاربه قليل ، فقد احس أن أهل العراق لن يقاتلوا معه باخلاص ونية منذ ساء رأيهم فى أخيه عبد الله بن الزبير . فلو قال لها شيئا من ذلك لطفقت تلومه وتعنفه على ما أضاع من الفرصة من قبل اذ لم يستمع لرأيها فى الاستقلال عنه من عهد بعيد .

ولكنه اجتهد أن يصرفها عن المسير معه بشتى الأسباب ما خلا السبب الصحيح وهو قلة رجائه فى النصر واشفاقه عليها مما قد يمسها من عواقب الهزيمة .

فلما اصرت على رغبتها فى المسير معه لم يسعه الا ان يوافق .

وكان الأحنف بن قيس فى طليعة الرجال الذين قدموا معه من البصرة، ولكنه كان مريضا فما لبث ان اشتد به المرض وثقلت عليه العلة فارسل الى مصعب فعاده فوجده يجود بنفسه : —

— يسوءنى والله يا مصعب ان تجدنى كما ترى وأن تحول هذه العلة دون ما ابغى من الخروج معك ونصرتك .

— لا باس يا ابا بحر فانى لن اخرج الا بعد ان تقوم من علتك ان شاء الله .

— هيهات يا مصعب فما اراها الا النهاية .

فبكى مصعب وهو يقول :

— نفسى فداؤك يا أبا بحر .

— كفكف دموعك يا ابن اخى واصغ الى ما اقول قبل ان يقبض لسانى فلا استطيع الكلام .

أرسل الى المهلب ليكون ظهيرا لك فى هذا الوجه .

— قد علمت راى هؤلاء فى ذلك .

— ارسل اليه ولا تبال بهم فانى لا اثق بهؤلاء ولا آمن أن يغدروا بك اذا حمى الوطيس .

— انى اخشى من الخوارج على البصرة .

— أمر الخوارج أهون من أمر عبد الملك فان غلبته كان يسيرا عليك ان تخرجهم من البصرة بعد ذلك . اما ان غلبك . .

وثقل لسان الأحنف فلم يستطع أن يتم كلمته .

وحزن مصعب لموت صديقه الأحنف حزنا شديدا ، فقد كان أمين سره والملجأ الذى يلجأ اليه كلما حز به امر عظيم ، او وقع فى مشكلة لا يدرى وجه الرأى فيها ، فيجد عنده ما يشاء من حل سليم وتوجيه حكيم .

وتشاءم من موته فى تلك الفترة الحرجة وذلك الوقت العصيب وهو يتجهز لقتال اهل الشام وقد قلت ثقته باشياعه من اهل العراق منذ كان من سوء معاملة اخيه عبد الملك لهم فى الحجاز ما كان .

وهم أن يعمل بوصيته فى استقدام المهلب بن ابى صفرة ولكنه اشفق أن يثير ذلك قيامة اهل العراق عليه وليس لديه من يشد ازره عليهم ويعينه فى اخضاعهم لامره بعد ان مات ذو الكلمة المسموعة بينهم والراى المطاع .

* * *

وقضى مصعب بعد موت صديقه الأحنف اياما وليالى وهو فى بحران من الهم لا يستطيع له دفعا ولا يجد منه خلاصا . واستبدت به الحيرة فلا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع ، وتردد فى كل شىء فلم يستطع ان يعقد عزمه على شىء : حتى لقد نازعته نفسه ان يعدل عن المسير لقتال عبد الملك ويعلن ذلك للناس .

لقد ايقن أن امر اخيه عبد الله بن الزبير الى ادبار ، وأن نجم عبد الملك بن مروان الى سطوع ، وان قصارى ما يستطيع عمله هو اذا ما خرج لقتال عبد الملك وانتصر عليه ان يؤجل هذه النهاية الى حين ، ولكنها آتية لا ريب فيها ان عاجلا او آجلا ، فماذا يدفعه الى القتال فى سبيل قضية خاسرة ؟

ولكن هل يستطيع حقا ان يتراجع عن المسير لقتال عبد الملك ؟ وماذا يكون موقفه من اخيه وموقف اخيه منه ؟ ثم ماذا يكون من امر عبد الملك نفسه ؟ أيرتد قافلا الى الشام اذا بلغه عدول مصعب عن لقائه وذلك بعيد ، أم يمضى قدما حتى يقرع عليه أبواب العراق ؟ واذا فماذا يفيد تراجع مصعب ان فعل؟

لقد فقد مصعب كل أمل الا املا واحدا يترائى له من بعيد .. أملا يكتنفه الشك من كل جانب ، ولا يجرؤ مصعب ان يحدث به احدا ، لأن أحدا لا يمكن ان يقتنع به ، بل ربما سخر منه اذا سمع به ، وان مصعبا نفسه لقليل الثقة فى امكان أن يتحقق ، فقد جعلته الأيام سىء الظن بالناس قليل الايمان بأن فيهم بعد من يلتزم قواعد المروءة والشهامة كما يلتزمها هو ، ويراها قطعة من نفسه وجزءا من تكوينه ، وانه ليقلب فكره فى الناس من قريب وبعيد وبين كبير وصغير فلا يجد هذه الشمائل فى احد منهم بالصورة التى يجدها فى نفسه بحيث يستطيع ان يتعامل معه على كلمة سواء اللهم الا أن يكون ابراهيم بن الاشتر .

ولكن هذا الأمل هو الأمل الوحيد الذى بقى أمامه فعليه أن يبلوه ليرى ما يكون من امره ، وان يغلب حسن ظنه بنفسه على سوء ظنه بالناس . واستدعى مصعب ابراهيم بن الاشتر فلما خلا به قال له :

ـ اتدرى ياابراهيم لماذا دعوتك الساعة ؟

ـ لخير ان شاء الله .

ـ اجل لأرى رايك فى امر رجوت ان يجعل الله لنا فيه مخرجا مما نحن فيه .

ـ وماذاك يا مصعب ؟

ـ احسبنى قد حدثتك ذات مرة بما كان بينى وبين عبد الملك بن مروان من صداقة قديمة وود متين .

ـ نعم .

واسررت اليك أيضا اننا ظللنا برهة يتقى أحدنا حرب الآخر ، فكان يخرج لقتاله ثم يكر راجعا من نصف الطريق .

ـ نعم نعم ولكنه فى هذه المرة لن يرجع يا مصعب عن قتالنا حتى يفتح العراق او نفتح نحن الشام . أوتشك بعد فى ذلك يا مصعب ؟

ـ كلا ياابراهيم ما أشك فى ذلك ، ولكن سنح ببالى ان لو مضيت اليه سرا دون أن يعلم احد بمذهبى ، حتى أصل اليه فى بعض الطريق ، فازعم لرجاله اننى رسول مصعب بن الزبير اليه ، فاذا خلوت به كلمته وناشدته أن يرجع من حيث جاء فنحقن بذلك دماء المسلمين ان تراق فى غير طائل .

ـ ويحك يا مصعب أوتظن ان ابن مروان يستجيب لك ؟

ـ قد يستجيب فانه ـ ما علمت ـ لرجل خير .

ـ كلا يا مصعب ان عبد الملك الذى كنت تعرفه فيما مضى غير عبد الملك اليوم .. ان الذى كان يدعوه الناس حمامة المسجد قد انقلب اليوم الى كبش بنى مروان .. كبش نطاح وايم الله يا مصعب !

– أعلم ذلك يا ابراهيم ولكنه لن ينسى ما بيننا من الود القديم .

– اتدرى يا مصعب ما آفتك ؟ آفتك أنك تقيس غيرك بمقياس نفسك .

– وأى باس فى ان اجرب هذا السبيل معه ؟ ان لم يقبل استعنت الله عليه فقاتلته وقد أعذرت .

– خبرنى يا مصعب اتشفق منه عليك أم تشفق منك عليه ؟

– اشفق على الخلة التى بيننا أن تقضى عليها حرب لا طائل فيها لأحد .

– لعلك يا مصعب لم تعد ترى اخاك احق بالخلافة من عبد الملك ؟

– بلى ان أخى لأحق بها منه .

– مهما يكن رايك فى اخيك فان عبد الملك يرى نفسه أحق بالخلافة من اخيك ، فلن يضيع فرصة تتيح له الغلبة عليه من أجل صداقة قديمة بينك وبينه او ود متين .

– اذن يكون لى معه شأن آخر .

– لعلك تعود الينا من عنده فتخرج بنا لقتاله ؟

– نعم .

– من أين لك انه لا يغدر بك فيبقيك اسيرا عنده ؟

– كلا يا ابراهيم لن يغدر بى عبد الملك .

– ماذا يمنعه ؟ لقد غدر بابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق .

– لكنه لن يغدر بى ابدا . ربما لا يستجيب لما أدعوه اليه ولكنه لن يغدر بى ابدا . محال أن يصنع بى ذلك .

– محال ؟

– ويلك ما خطبك يا ابن الأشتر . كنت أحسب انك تعلم من شرع المروءة اكثر من هذا .

– ما شأن مروءتى فى هذا الأمر ؟

– هب انك كنت مكان عبد الملك أفكنت تغدر بى على هذه الصورة ؟

– بربك لا تقسنى بعبد الملك . فشتان ما بينه وبينى .

– معذرة يا ابراهيم . حقا انك لأفضل منه واعظم مروءة ولكنه هو ايضا لا يمكن ان ينحدر الى هذا الدرك .

– ماذا يحملك على ان تتجشم اليه الطريق بنفسك ؟ ابعث اليه بكتاب منك او ابعث اليه رسولا يشافهه بما تريد .

– كلا يا ابن الأشتر لن يكون ذلك مثل حضورى بنفسى اليه .

– والله يا مصعب لولا ما أمنتنى على سرك لكتبت الى اخيك عبد الله بنيتك هذه مع عدوه ليخلعك ويولى غيرك مكانك .

– حاشاك يا ابراهيم ان تفعل ذلك .

وطار الحوار بينهما على غير اتفاق ، وأدرك ابن الأشتر الا سبيل الى اقناع مصعب بالعدول عن عزمه ، فتركه وما اختار لنفسه دون أن يجد عليه فى ذلك ، بل احس برثاء له وشفقة عليه واكبار لهذه الشمائل فيه التى يندر وجودها فى الناس وهى بعد غير غريبة على نفسه .

– أما اذ صممت على ذلك فدعنى ارافقك اليه لعلك تحتاج الى .

– كلا يا ابراهيم بل ابق انت هنا مكانى حتى أعود من عنده وقد هيأت أنت الناس للمسير .

– اذن فاحرص على سرك هذا لا تفشه لأحد ولا لأهلك . وسأزعم للناس انك انطلقت الى جهة الأهواز لتتفقد مواقع المهلب بن أبى صفرة مع الخوارج حتى تأمن جانبهم قبل أن تمضى لقتال عبد الملك .

وسر مصعب من رايه هذا فاحتضنه وقبل ما بين عينيه وهو يقول :

بأبى أنت يا ابراهيم وامى . والله لا ادرى ماذا كنت اصنع لو لم يؤيدنى الله بك .

ولما دخل مصعب على سكينة واخبرها بعزمه على زيارة الاهواز انكرت عليه ذلك بشدة وقالت :

ـ كيف تترك عدوك الأكبر يطوى القفار اليك وتمضى لتتفقد حرب الخوارج ؟

ـ لأطمئن على موقف المهلب هناك فامضى للقاء عبد الملك دون أن يشغلنى عنه شاغل فطفقت تناقشه فى ذلك نقاشا طويلا حتى هم أن يخبرها بحقيقة عزمه لو لم يتذكر ما اتفق عليه مع صديقه ابن الأشتر .

* * *

وتسلل مصعب ذات ليلة فخرج من مدينة الكوفة سرا دون ان يعلم بمسيره أحد ، ولم يكن معه غير ابن الأشتر الذى انطلق معه فرافقه مسافة فى الطريق لا يريد ان يتركه الى ان عزم عليه مصعب أن يعود فودعه وكر راجعا الى الكوفة حيث دخلها قبيل الفجر .

وانطلق مصعب على جواده الأشهب يطوى القفار طيا ، لا يلوى على شىء ويواصل الليل بالنهار ، لا ينزل عن جواده الا ريثما يريحه قليلا فيعلفه ويسقيه ، ثم يستأنف السير حتى قطع فى خمسة أيام ما يقطع عادة فى اثنى عشر يوما .

ولم يبطىء من مسيره الا حينما لمح النيران تضىء من بعيد على مساحة كبيرة من الارض ، فادرك انها نيران جيش الشام قد عسكر فى ذلك المكان ، فتنفس الصعداء وقال : الليلة القى خليلى عبد الملك !



وخفق قلبه لقرب لقاء صديقه القديم ، وطفق يستعيد ذكريات صباه معه ، واخذت مدينة الرسول تتمثل فى ذهنه حيث كانا يلعبان فى دروبها صبيين صغيرين ، ويتسابقان على جواديهما فى ضواحيها يافعين ، ولم يقطع عليه حبل ذكرياته الا فارسان من طلائع جيش الشام قد برزا له من عرض الطريق كأنما انشقت عنهما الأرض فالقى عليهما التحية فردا عليه .

ـ من الفارس ؟

ـ رسول من مصعب بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .

ـ اين الرسالة ؟

ـ أمرت ان اسلمها الى اميركم يدا بيد .

فاخذا يتفرسان فى وجهه فى ضوء القمر ثم نظر احدهما الى الآخر كأنما يتشاوران فى أمره .

ـ هل لكما ان توصلانى الى اميركم ؟

ـ نعم هلم معنا .

فعطفا جواديهما وسارا معه احدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وما لبث الثلاثة ان انضم اليهم عدد كبير من الفرسان فأحاطوا به من كل جانب . وكلما اقتربوا من المعسكر زادت نيرانه لمعانا ، فظهرت على ضوئها الخيام العديدة المنصوبة على ذلك السهل الواسع . فأيقن مصعب صدق ما بلغه من ان عبد الملك قد صمم هذه المرة على الا يرتد عن العراق حتى يفتحه .

ولما بلغوا أول المعسكر ترجلوا عن جيادهم ، فترجل مصعب مثلهم ، ودنا مصعب من كبيرهم فأسر اليه أن الرسالة سرية وأن اميرهم عبد الملك بن مروان ربما لا يريد أن يذيع امرها فى رجال المعسكر فأوما برأسه موافقا والتفت الى احد رجاله قائلا :

ـ خذ جواد هذا الرسول فاحفظه عندك حتى نطلبه منك .

واخذ بيد مصعب فمشى به بين الخيام ، فرأى اكثر الجنود فيها قد آووا الى مضاجعهم ليناموا ، وبقى قليل منهم بين قائم او قاعد يهيىء فراشه للنوم ، الى ان بلغ به خيمة حمراء فخمة بين خيمتين كبيرتين أدرك من هيئتها وروائها انها لعبد الملك وحاشيته . فوقف به أمام احدى الخيمتين ، فاذا رجل ربعة أحمر اللون يخرج منها ليستقبله كأنما كان على ميعاد معه ، فعرفه مصعب من أول وهلة . انه محمد بن مروان أخو عبد الملك فلما سلم عليه مصعب دهش الرجل فوضع يده فى مقبض سيفه .

ـ لا ترع أنا رسول مصعب بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .

ـ بل انت مصعب بن الزبير .. لا تحاول ان تخدعنى فقد عرفتك .

ـ لا خداع يا محمد . انا مصعب وانا رسول مصعب .

ـ مرحبا بك يا ابن الزبير .. ادخل .

ودخلا الخيمة فاذا فيها رجلان آخران كانا قاعدين فنهضا لما رأياه .

ـ هلم يا خالد .. هلم يا عبد الله هذا مصعب بن الزبير .

فدهشا قليلا ثم اقبلا يصافحانه ومحمد بن مروان يقدمهما اليه .

ـ هذا خالد بن يزيد بن معاوية وهذا عبد الله بن يزيد بن معاوية .

ـ وجعل محمد وخالد يرحبان به ويوسعان له فى المجلس . أما عبد الله فقد ظل صامتا ينظر اليه نظرة فيها مكر وغدر ثم استأذن وخرج .

ـ أين عبد الملك فانى فى شوق اليه؟

ــ هــلا قلت ابن امـير المؤمنين يا مصعب ؟

ــ كلا يا محمد ان امير المؤمنين فى مكة .

ــ كذبت بل هو هنا فى الخيمـة المجاورة .

فتبسم مصعب وهو يقول : ــ

ــ هلا اخبرتموه بمجيئى ؟

ــ قد علم امير المؤمنين بمجيئك .

ــ اتظن انه هــو الذى بعثنى ؟ لا والله لقد حضرت دون علم منه !

ــ انا اعنى أمير المؤمنين اخى .

ــ وانا اعنى امير المؤمنين الصحيح .

قال خالد وهو يضحك مما يسمع كانه مسرور بذلك : ــ

ــ لا تتلاحيا . . لكل منا أمـير المؤمنين .

وارتفع صوت أبح من جهة باب الخيمة يقول : ــ

ــ مهلا يا خالد . . ليس للمسلمين غير امير واحد .

ــ هو الذى فى مكة .

ــ بل هو الذى بين يديك يا مصعب!

واذا صاحب الصوت هو عبد الملك ابن مروان قد دخل فى عباءة من الخز الفاخر وخلفه عبد الله بن يزيد . فوقف عبد الملك باسطا يديه كانه يدعو مصعبا الى عناقه ، فوثب مصعب اليه فتحاضنا وتعانقا طويلا لا يكاد ينقطع حتى يعود اليه من جديد ، فى صورة أصـدق واشد حرارة ، حتى شعر الثـلاثة الآخرون بشىء من الحرج أن يروا هذا المشهد أمامهم دون أن يدروا ماذا ينبغى عليهم أن يفعـلوا . واحسوا كذلك بضآلة شأنهم ازاء هذا الموقف الفريد الذى لم يخطـر لهم على بال ، ولم يستطيعوا له فهما ولا تفسيرا . وقد ضاعف شعورهم هــذا ما بدا من عبد الملك من تناسيهم وتجاهلهم جملة واحدة حتى كأنما كانوا غير موجودين هناك .

وما تخلصوا من هذا الحرج الا حينما أومأ اليهم عبد الملك بالخروج من الخيمة وتركهما وحدهما ، فتسللوا خارجين الا ما كان من عبد الله بن يزيد ، فقد تلبث قليلا كانه غير مطمئن الى انفرادهما فى الخيمة ، حتى نظر اليه عبد الملك نظرة قاسية لم يسعه بعـدها الا ان ينسحب .

قال مصعب : ــ

ــ احسب هذا الفتى يخشى منى عليك .

قال عبد الملك :

ــ أجل انه لا يعرف ما بينى وبينك يا مصعب .

ولم يكد يتم كلمته حتى عاد عبد الله ابن يزيد ثانيا فصاح عبد الملك فى وجهه :

ــ ويلك يا ابن أخى . ماذا تريد ؟ ألم أصرفك من عندى الساعة ؟

فتمتم عبد الله قائلا : ــ

ــ انه يتقلد سيفه يا امير المؤمنين فهلا اذنت لى أن آخذه منه ؟

فصاح به عبد الملك : ــ

ــ بل دعه ويلك ما انت وذاك ؟

ــ وهم مصعب ان يلقى بسيفه اليــه فمنعه عبد الملك قائلا :

ــ دع عنك هذا يا مصعب ، والله لو غدر بى الناس جميعا ما غدرت بى انت .

وخرج عبد الله بن يزيد ، فنظـر احدهما الى الآخر وانفجرا يضحكان .

— هلم بنا نجلس يا مصعب ونتحدث فانى فى شوق اليك والى حديثك .

— هل دار بخلدك قط يا عبد الملك اننى سأجيء هكذا وحدى اليك ؟

— نعم توقعت ان تلقانى ولكن فى غير هذا المكان ، الا ان تكون قد خرجت بجيشك من الكوفة فهو فى بعض الطريق وسبقته الى ؟

— لا والله يا عبد الملك . ما زال جيشى بالكوفة وانما جئت اليك وحدى دون أن يعلم بمسيرى أحد .

— اما هذا فلم يخطر على بالى ، وانه لعمل لا يأتى مثله غير رجل واحد فى العرب هو أنت .

فضحك مصعب وهو يقول :

— واخشى الا يقدره حق قدره غير رجل واحد فى العرب هو عبد الملك بن مروان .

واستضحك عبد الملك قليلا وهو يقول :

— صدقت يا مصعب .

ثم لم يلبث ان اطرق واجما .

وران عليهما صمت غريب ، واخذ مصعب فى اثناء ذلك ينظر الى عبد الملك كأنه يريد أن يستشف ما يعتمل فى نفسه .

— ما خطبك يا عبد الملك ماذا يدور الآن فى فكرك ؟ بحياتى عليك الا ما اخبرتنى .

فتنهد عبد الملك وهو يقول :

— لقد الم بى خاطر سوء .

— قالت لك نفسك الأمارة : هذا قد جاء وحده دون أن يعلم احد من قومه فلو ..

وابتدره عبد الملك قائلا :



ـ أجـــل هو ذاك ولكن حاشا لله يا مصعب لا ينبغى أن أخيب أملك فى صديقك القديم .

وضحك الاثنان وصفا ما بينهما مرة أخـرى .

قال مصعب :

ـ أليس من نكد الدنيا يا عبد الملك أن تضطر لمحاربتى واضطر لمحاربتك ؟

ـ بلى والله ولكن الملك عقيم .

ـ أفلا نبرم بيننا عهدا الا يقـــاتل احدنا الآخر ما حيينا أبدا ؟

ـ قد علمت يا مصعب انى لست اقاتلك على شيء ، وانما اقاتل عبد الله اخـــاك .

ـ بل تقاتلنى اذ تقاتل أخى .

ـ اخلع اخاك واعلن نفسك مكانه فستجدنى أكف عنك واقاتله معك .

ـ معاذ الله ان افعل ما ليس لى بحـــق .

ـ انت أحق والله بهذا الأمر منه .

ـ ومنـــك ؟

ـ لا بل تفضلنى فى أشياء وأفضلك فى اشياء . ولكنا سنبرم بيننا حينئذ العهد الذى اقترحت .

ـ هيهات انك لتعلم ان عبد الله بن الزبير أفضل منى ومنك .

ـ بأى شيء يفضلنى ؟

ـ أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أفضل من أبيك مروان بن الحكم ، وامه اسماء بنت أبى بكر الصديق ، وهى أفضل من أمى وامـــك ، وهو أول مولود ولـــد للمسلمين فى المدينة عقب الهجرة .

ـ كل هذا حق ولكنه هو لا يفضلنى

ـ بل هو اتقى لله منك . لقد كنت تلازم المسجد قديما حتى لقبوك حمامة المسجد ولكنك ما لبثت ان شغلك الملك عن صلاتك وفقهك . اما عبد الله اخى فلم يشغله شيء عما عود عليه نفسه من صلاته وتهجده .

ـ ولكنه بخيل والبخيل لا يسود ابدا .

ـ لو شاء ان يتكرم على أصـــحابه وأنصاره بما فى بيت مـــال المسلمين لفعل ، ولكنه أتقى لله من ذلك .

ـ الا تعلم يا مصعب انه بغيض الى الناس واننى احب اليهم منه ؟

ـ الناس لا يبغضونه وانما يبغضون الحق ، وهم لا يحبونك انت وانما يحبون المال الذى تشترى به ضمائرهم .

وسكت عبد الملك قليلا ثم قال :

ـ ان كان عبـــد الله بن الزبير كما زعمت ، وكنت أنا انازعه هذا الأمـــر بغير حق ، ففيم عرضت على أن نتوادع؟

ـ انما عرضت ذلك ابقاء على الود الذى بينى وبينك .

ـ الود آثر عندك من الحق ؟

ـ نعم .. أوليس كذلك عندك ؟

ـ لا ادرى والله أيهمـــا اختـــار لو خيرت . ولكن الله لم يحوجنى الى ذلك ، اذ كان فى مقـــدورى لو وافقت انت ، ان اجمع الحق والود فى ناحية واحدة .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ اعنى ما قلته لك من قبل : ان تخلعه وتعلن الأمر لنفسك فأقاتله هو ولا أقاتلك .

ـ بل اردت يا غدر أن تتغدى به ثم تتعشى بى ؟

ـ لا والذى عقد بيننا هـــذه الخلة لا اتعرض لك حينئذ أبدا .

ــ وانا والله لا أخون أخى أبدا .

وصمت عبد الملك قليلا ثم قال :

ــ ان كنت تراها كبيرة عليك فعندى ما هو افضل لك من ذلك .. اعتزل ولاية اخيك واقم عندى بالشام وسأقطعك بها ما تشاء من أرض تعيش فيها عيشة رغدا مع أولادك ونسائك فاستشاط مصعب غضبا .

ــ ويلك لقد ساومتنى على الدنية يا عبد الملك . المثلى تقول هذا القول ؟ آه لو غيرك قالها !

فطفق عبد الملك يهدىء غضبه ويلاطفه ويعتذر له .

ــ سامحنى يا مصعب فوالله ما أردت ان اغضبك . ماذا أصنع ؟ انت الذى دعوتنى الى أمر يصعب تحقيقه فأردت ان التمس له سبيلا يحققه على وجه من الوجوه .

ــ اتأذن لى اذن يا عبد الملك ؟

ــ أين تذهب ؟

ــ أعود الى رجالى .

ــ كلا والله لتقيمن عندى بضعة أيام فانى ما قضيت الشوق منك .

ــ اتريد أن تحجزنى عن رجالى لئلا اخرج بهم اليك ؟

ــ لا والله لأدعنك تذهب اليهم حينما تشاء .

ــ حين لا يكون بينك وبين الكوفة الا قليل ؟

ــ لا ترع .. سنقيم فى هذا المكان ما بقيت معنا ، ولن نبرحه الا بعد أن تغادرنا فما رأيك ؟

فأطرق مصعب قليلا كأنه يفكر فيما سمع ثم قال :

ــ لا بأس اذن .

ــ جزاك الله خيرا يا أخى . من يدرى لعلنا نستطيع غدا أن نتفق على شىء وصفق عبد الملك فدخل بعض رجاله فأمرهم أن يدعوا له محمد بن مروان .

فلما حضر قال له :

ــ هذا ابن عمك مصعب بن الزبير قد عهدت به اليك لتنزله معك وتكرمه جهدك . واكتموا حقيقته عن الجميع وازعموا لهم أنه رسول مصعب .

ــ سأفعل يا أمير المؤمنين .

ــ اذهب يا مصعب مع محمد وسنلتقى غدا ان شاء الله .

* * *

وقضى مصعب ثلاث ليال فى معسكر عبد الملك كان يجالسه فيها صباحا ومساء ، ولا يفترقان الا عند القيلولة ظهرا وعندما يأويان للنوم ليلا . وكان يحضر مجلسهما الأمراء الثلاثة محمد وخالد وعبد الله أو بعضهم ولكن كثيرا ما كانا ينفردان فى المجلس فلا يحضره معهما أحد .

وكان جل حديثهما يدور حول ذكرياتها القديمة فى مدينة رسول الله ، منذ كانا طفلين الى أن بلغا مبلغ الرجال، وحول معارفهما من الناس فى تلك الحقبة الخالية من حياتهما من بقى منهم ومن مات .

وكانا فى ذلك كأنما يمتحان من بئر واحدة على التعاقب بينهما ، فاذا تذكر أحدهما أمرا من الأمور أو شخصا من الأشخاص انبرى الآخر يذكر من التفاصيل ما يكمل به الذكرى التى استحضرها صاحبه . وكانا يجدان لذلك لذة عظيمة كأنما يستعيدان فلذا عزيزة من عهود الصبا وأيام الشباب .



وتكرر النقاش بينهما حول المهمة التى حضر مصعب من أجلها من وجوه شتى وزوايا مختلفة غير انه كان ينتهى بينهما دائما بالخلاف .

وذات مرة قال له عبد الملك :

– والله يا أخى انى لشديد الحرص على الا تنصرف من عندى الا على شىء . ولكنك تسد الأبواب كلها ما خلا بابا واحدا لا سبيل الى ولوجه .

فأجابه مصعب :

– بل هو الباب الوحيد الذى يمكن أن نلجه على سواء بيننا لا غضاضة فيه على ولا عليك حتى يجعل الله لنا مخرجا من الأمر كله .

قال عبد الملك .

– انى مصارحك الآن بأمر لا ينبغى ان اخفيه عليك فعدنى الا تثور غضبا اذا سمعته .

– لك على ذلكَ .

– اننا لسنا سواء يا مصعب فى الرجال والعدة . عندى أهل الشام وهم اطوع لى من بنانى وليس فيهم خائن ولا منافق ، وعندك اهل العراق وهم اهل شقاق ونفاق ، فالنصر مضمون لى عليك .

– كلا ان النصر بيد الله ، ورجالى ليسوا كما ذكرت .

– ان اخاك عبد الله أعرف بهم منك حين قال لوفدهم اليه :

وددت لو أن لى بكل عشرة منكم رجلا من اهل الشام صرف الدينار بالدرهم .

– ليست الحرب بالأقوال ياعبد الملك ولكن بالفعال .

– اعلم اذن ان كثيرا من وجوه أصحابك قد كاتبونى يعرضون انضمامهم الى .

– ان فعلوا فسيخونونك كما خانونى . ولى عنهم غنى بالمخلصين الثابتين وهم كثير .

– ان شئت يا مصعب سميتهم لك واطلعتك على رسائلهم لتصدقنى .

– كلا لا ينبغى لك أن تفعل ، ولا ينبغى لى أن أسمع . ليس ذلك من المروءة يا عبد الملك .

وفى اليوم الثالث حين تهيأ مصعب للمسير وخلا به عبد الملك ليودعه ناشده مصعب ان يستجيب لدعوة السلام فينقلب الى الشام ذلك العام عسى أن يجعل الله لهما مخرجا فى مستقبل الأيام . وتأثر عبد الملك من كلمات صديقه التى قالها فى صدق واخلاص حتى ترقرق الدمع فى عينيه فتوهم مصعب انه سيجيبه الى ما طلب .

ولكن عبد الملك لم يزد على أن ألطف له القول ووعده بالنظر فى هذا الأمر .

وتعانق الصديقان لحظة اطلقا فيها لدموعهما العنان ثم تجلدا ومسح كل منهما دمعه . قال عبد الملك وهو يشيعه الى باب الخيمة .

– لولا خوفى ان ينكشف سرك يا مصعب لخرجت أشيعك الى بعض الطريق .

فشكره مصعب على بره وتكرمته ثم خرج الى حيث اعد له جواده فركبه وانطلق .

(تمت)

القط

للكاتبة الأسبانية أنا ماريا ماتيوث

ترجمة حسين القباني

المؤلفة

القصة المنشورة هنا ، أنموذج ممتاز من القصص النفسى . وانك لتجد شخصيات أنا ماريا تمتاز بالحيوية ومتوافر فيها الأبعاد الثلاثة للشخصية بحيث تنم عن قوة الملاحظة وعمق التصوير ، وكذلك لا يستطيع القارىء أن يختلف مع الكاتبة فيما يتعلق بمنطقها أو مفهومها عن الحياة وهى تكشف أيضا عن فهم عميق للعقل البشرى ، لا سيما فى طبقة البالغين الذين يتصرفون كالأطفال.

وقصة القط « نوستو » احدى قصص مجموعتها القصصية الصادرة بعنوان «الزمن» ، وقد ولدت آنا ماريا ماتيوث فى عام ١٩٢٦ من أبوين ينتميان الى مدينة قسطلة • ولم تستطع استكمال مراحل دراستها بسبب الحرب الاسبانية الأهلية ، ولكن مواهبها الادبية ظلت تنمو بدون انقطاع . وقد نشرت روايتها الاولى وهى فى الثامنة عشرة وظل نجمها يرتفع باطراد فى سماء الادب حتى أصبحت من كبار الكتاب فى ميدان الادب الاسبانى المعاصر • ويعتبرها الكثيرون أعظم كاتبة — بين الكاتبات — فى أسبانيا اليوم وقد ترجمت روايتها « مدرسة فى الشمس» الى اللغة الانجليزية ونشرت فى أمريكا هذا العام ونالت تقدير الكثيرين من النقاد .

« المترجم »



كانت الطفلة فى التاسعة من عمرها، وكانت مشغوفة بجمع المرايا المكسرة وكل ما يلمع من حطام • كانت تبحث دائما عن هذه النفايا اللامعة فى أكوام القمامة والاعشاب ، وكلما لمحت شيئا يبرق ، التقطته ودسته فى جيبها ذى الازرار المخيط فى جانب ثوبها . وبعض الاحيان كانت الشظايا تجرح أصابعها، الا أنها لم تكن تبكى قط ، وانما تعود الى هوايتها بمزيد من الاصرار •

وكانت دائما مشغولة بالبحث عن الانجم الهاوية فى هيئة حطام زجاجات، أو دبابيس أو قطع من الصفيح • وكان

الرجل الكسيح الذى يبيع السجاير – مفردة – وحجارة القداحات يعرف أمر هوايتها هذه ، ومن ثم يحتفظ لها بالـورق المفضض الذى يبسطن علب السجاير • وكانت الطفلة تلصق كل شيء على جدار كوخها ، بجوار النافذة ، وعلى هذا النحو كانت الاضواء – عندما يأتى المساء – تنساب من الحانة المواجهة للكوخ، وتنعكس على مجموعاتها وتضيئها بأنوار مختلفة الدرجات مما يجعل الطفلة تعتقد بأن لديها من مباهج الالوان أكثر من أى شخص آخر •

وكان جسم الطفلة هزيلا ، وقد اكتست ذراعاها وساقاها بالخديش ، اما شعرها فكانت تمضى به غير ممشط، وحسبها شريط أحمر تديره حول رأسها ولم يكن لديها غير زوج واحد من الاحذية أكبر مقاس عن قدميها . وفى بعض الاحيان ، عندما تجرى ، كانت تفقد احداها وكانت تعيش مع جدها فى كوخ مكون من غرفة واحدة ، ونافذة واحدة، وموقد واحد، وحصيرتين للنوم •

ولم يكن الجد غير عجوز أعجف ممصوص كالليمونة المعتصرة ، لا يكف عن الشكوى من هذه النفايات البراقة التى تأتى بها الى الكوخ، ويهدد بالقائها الى صناديق القمامة ، ولكنه كان فى بعض الاحيان لا يملك نفسه من النظر اليها ، عندما يأتى المساء وتنساب الاضواء من الحانة المواجهة ، ثم يهز رأسه وهو يعتقد ، ولا شك ، انها شيء رائع •

ولكن الجد كان يعانى فى الايام الاخيرة من نزلة برد شديدة ، ولم يكن من ثم يستطيع الخروج الى الشارع • لم يكن فى مقدوره مع الطفلة أن يحمل آلته الموسيقية ويدفعها بالعربة فى الشوارع ويستعطف بنغماتها قلب القدر •

وكان سكان الاكواخ القريبة يعطفون عليهما• ولكن كان لهم متاعبهم الخاصة، بل ومرضاهم أيضا • ومع هذا كانت المرأة المقيمة بالكوخ المجاور تأتى فى بعض الاحيان وتكنس أرضية الكوخ وتشعل الموقد • وكانت امرأة طيبة حتى عندما تمعن فى الصياح وتقول انها لا تفهم سببا لوجود هذه المجموعة من قطع الزجاج والورق البراق ملصقة على الجدار ، وكم من مرة وصفتها قائلة « بالها من نفايات تافهة » •

وحدث ذات مرة أن جاءت ثلاث سيدات من حى سان أنطونيو وأعطينهما نحو خمسين درهما وزجاجة شراب للسعال • وقد حملقت احداهن فى كنوز الطفلة وخطر لها انها موضوعة لتزين الجدران العارية • وفى اليوم التالى أرسلت السيدات صليبا ليوضع على أحد الجدران ووضع الصليب على الجدار المواجه للكنوز البراقة • ولكنه ، أى الصليب ، أثار قلق الطفلة الى حد كبير لا سيما عندما كانت تختلس جرعات من شراب السعال الخاص بجدها، وكان شرابا حلو المذاق له نكهة النعناع •

وفى ذات صباح من ذلك الشهر ، يناير ، وبينما كانت الطفلة تبحث عن النفايات البراقة فى صندوق القمامة الكبير القريب من الكوخ ، لمحت قطعتين

مستديرتين لامعتين بالقرب من الصندوق ، لهما لون الفاروز وبريق المرآة . كانتا عيني قط قبيح المنظر هزيل الجسم ناحل الفراء يموء كطفل وليد . وانحنت الطفلة عليه ورأت أنه مصاب بجرح في مخلبه لعله نشأ من حجر ألقى به عليه ثم ترك مهيضا . وكان فراؤه محمر اللون ، ناحلا بسبب الرعشة وكان يرتعش بقوة . والتقطته الطفلة ،وحملته تحت ذراعها . فلما رآه جدها ، صاح مهتاجا كعادته كلما رآها تحمل الى الكوخ شيئا جديدا .

— ارمي به بعيدا .

ولكن الطفلة بحثت عن قطعة خشب صغيرة وصنعت منها جبيرة وربطتها برفق الى مخلب القط بعد أن طهرته بقليل من الخل . وبعدئذ خطر لها ان تطلق عليه اسما .

وتذكرت انها بين الحين والآخر تمر أمام بيت كبير في شارع غير بعيد ، وكانت تقترب ببطء من قضبان السياج، ثم تثب الى الحديقة وتتسلل الى احدى النوافذ المنخفضة وترنو الى داخلية الغرف . وكانت تشعر عندئذ بنفس الرهبة التي تخامرها عندما تنساب أضواء الحانة وتنعكس على كنوزها اللامعة . الا أنها لم تكن تستطيع أن تمكث طويلا ، لأن كلبا ضخما يدعى فوستو ، كان دائما ينطلق نحوها نابحا ، فتندفع هاربة وتعود الى الشارع قبل أن يعقر قدمها.

لقد خطر لها وهي تذكر عدوها هذا ان تطلق اسمه على القط الذي قالت له :

— لسوف نسميك فوستو أيها القط الصغير .

وشعرت دون أن تدرى لماذا : أنها انتقمت لنفسها من ذلك الكلب الذي طالما طاردها بنباحه .

انها لم تكن تريد الا أن تتفرج بالنظر الى داخلية الغرف ، تماما كما اعتادت أن تتفرج بالنظر الى انعكاسات ضوء الحانة على قطع زجاجها البراق . ولكن أحدا لا يفهم هذا ، كما لم يستطع أحد أن يفهم حبها لذلك القط فوستو رغم دمامته وضآلة حجمه .

ومنذ ذلك اليوم والقط لا يترك الطفلة . كانت دائما تحمله ، سقيما حزينا ، تحت ذراعها وكانت تعنى به كثيرا ، وتخرج للبحث عن طعام له ، وكان القط يرتعش كثيرا ، وأحيانا يبدو كأنه يسعل .

وأخذ الجو يزداد قسوة مع توالى أيام الشتاء . وبدأ الجد العجوز يكره القط ويقول انه سوف يقتله بمجرد أن يسترد صحته ، لأن مواء فوستو كان يثقل على أعصابه ويجعله يقول بصوته الأجش :

— انه يثير في الانسان الشعور بالغثيان . ان الحيوانات الأخرى تخرج للبحث عن طعامها وهذا النوع يمكن للانسان أن يحتمله أما هذا ؟ ! انه أكسل مخلوق رأيته في حياتي ، انه لا يجرؤ أن يفعل شيئا . ولقد أفسدته بتدليلك واحضار الطعام له ووضعه في فمه . لقد أصبح ضعيفا عاجزا .

ولكن الطفلة كانت ترنو اليه في

حنان وهى تضمه اليها بذراعها ٠ انه لم يكن فى نظرها حيوانا عاديا كغيره من الحيوانات الأخرى ٠ كان دائما مقرورا مهيض الجناح كأنما ألقى به فى عالم أقوى منه ٠ فما ذنبه اذا كان قد ولد عاجزا ؟ هل يجوز أن نلومه لانه ولد ؟

وقالت السيدة الطيبة المقيمة بالكوخ المجاور عندما جاءت لتقدم مساعدتها :

ـ ان شكله فى الحقيقة منفر ٠ وقد



صار فراؤه كالمنخل ، ويمكنك أن تعد أضلعه ٠يبدو أنه مريض بالسل ٠

وقالت الطفلة :

ـ السل ؟ وهل هو مخلوق بشرى ؟

وفى ذات صباح ، نهض العجوز من فراشه يسعل ويشهق ، وذهب كعادته ليستأجر عربة الآلة الموسيقية ٠

وسارا فى طرقات ضيقة ملتوية مفعمة الجو بروائح الأطعمة المشوية ، ولم يكن الجد يكف عن صب لعناته على القط قائلا :

ـ تخلصى منه .. دعيه يمضى .. انك لن تستطيعى العودة الى البيت به .. ولهذا يجب أن تعقد العزم على ..

ولكنها كانت تغمغم قائلة وأسنانها تصطك من فرط البرد :

ـ لا .. انه مثلى ومثلك ..

وكانا يسيران ببطء شديد ، لأن الجد نهض من فراشه ضعيفا لا يكاد يقوى على دفع عربة الآلة الموسيقية ٠ وكان من ثم يقول :

ـ اننا نعمل ببطء .. واذا استمر الحال هكذا فلن نحصل حتى على ايجار العربة ٠

وتوقفا أخيرا فى ركن من شارع ، وراح العجوز ـ وعقب سيجارة فى جانب فمه ـيدير مقبض الآلة الموسيقية ـ الشبيهة بالبيانولا ـ بينما كان الناس يمرون مسرعين غير حافلين .. وأخذت الشمس الفاترة تدفىء جسديهما قليلا ٠

وعاد العجوز يقول فى لهجة تهديدية :

ـ اذهبى وتخلصى من هذا الحيوان ٠

وأدركت الطفلة أخيرا أنه لم يعد جدوى من الاحتفاظ بالقط ، فأخذت تربت عليه فى اكتئاب ثم تركته يقفز الى الارض ، ثم هرعت وعبرت الشارع الى الجانب الآخر ، وراحت تستجدى

المارة بآنائها الألمنيوم دون أن تلتفت وراءها •

وأخذت الطفلة مع جدها تردد أغنية يعرفها كل انسان ولا يحبها أحد ، ولكنها كانت تريد أن تبكى ، وتريد فى الوقت نفسه ، أن تملأ فمها بالسكر • وراحت تفكر « آه لو استطعت أن أملأ فمى بقطع صغيرة من السكر •• بكمية كبيرة من قطع السكر الصغيرة البيضاء• وعندئذ ســوف أمضغها •• وأمضغها وسيكون لها صوت حلو •• جرش •• جرش •• وبهــذا يبدو كان أذنى قد امتلأتا بالسكر أيضا » •

وتنهــدت بعمق •• وأعطاهـا أحد الناس بضعة دريهمات أخذت تصلصل بها فى انائها •

ومضيا بعد ذلك فى طريقهما ، وأخذ الجد يدفع العربة الى شارع آخر بأسرع ما فى مقدوره أن يفعل • وتبعته الطفلة وهى تعتقــد أنه لن يكون هنــاك فى العالم سكر يكفيها •• فلا جدوى من هذه الأمنية • ونظرت خلفها •

كان فوستو يتبعهـا •• وهذا أمر طبيعــى • وشرعت الطفلة تــزيد من صلصلة النقود فى الاناء • وكانت عينا فوســتو تشــبهان قرصين من حلوى النعناع • وقالت الطفلة لنفسها :

« لو أن جدى لا يراه ، فسوف يتبعنا فوستو •• سيأتى معنا » •

وتذكرت فجأة أن القطط لا تضــل الطريق أبدا • وأحست بالرغبــة فى الضحك والقفز • ولكنها لم تفعل هذا• لأنها كانت تعلم أنه لا ينبغى أن يبذل الانسان مجهودا كبيرا الا فى العمل •

وتوقفا عن المسير الآن مرة أخرى • وكانت أذنا الجد الكبيرتان تبدوان من فوق المطرف الملتف حول عنقه• وكانت النغمات الموسيقية المرفرفة حولهــما مزعجة مثيرة للأعصاب • انها تخنــق الأنفاس وان لم يكن هــذا قصـــدها • وعضدت الطفلة اصبعها • لقد أحست باحتكاك فوستو بساقيها • ونظرت فى أشــفاق الى الأرض •• آه ها هو ذا فوستو يرتعد ويموء بوهن • ودفعت القط بعيدا بقدمهــا • ولكنه أبى أن يتزحزح • وعندئذ أخرجت قدمها سرا من الحذاء •وبدأ فوستو يلعب برباطه • وسارت الفتاة بعيدا عنه •

وكان الجد قد وصــل الى شــارع آخــر • وكانت الشــمس قد شرعت تسكب ضوءهــا الذهبى على جــانب الطريق • وعرجا الى شارع جانبى • ونفخ الجد فى كفيه وبدأ يدير الآلــة الموسيقية •

ولم يلحظ أن هنــــاك ، فى أدنى الشارع رجلا آخريعزف على الأوكرديون وكان شابا كسيحا مقرون الحاجبين • وقد صرخ فى الجد مطالبا اياه بالتوقف عن العزف ، قائلا انه كان فى الشارع قبله • ولكن العجوز الذى تقل سمعه بسبب نزلة البرد الأخيرة لم يسمعه أو لم يشأ أن يســمعه ، وأقبــل عازف الأوكرديون عليه صاخبا • وكان شابا طويل القامة قــوى الجسم كسيحا • وقفت الطفلة تنظر اليه بهدوء •

وشرع العجــوز وعازف الأوكرديون يتشاجران •

قال العجوز مدافعا عن نفسه :

– ان الشارع للجميع ·

وكانت أطرافه لاتزال ضـعيفة من المرض · لعله لايزال يعانى من الحمى· انه لم يسترد قواه تماما · وأهم من هذا كله كيف يخطر لأى انســان أن يطرده من الشارع كأى كلب ضال ·

ولكن كان الواضح تماما أن عازف الأوكرديون هو الذى وصل الى الشارع أولا · بل كان فى الشارع فعلا عندما دخله الجـد العجـوز بآلته الموسيقية المزعجة·· نعم·· ان عازف الأوكرديون على حق ·

لم يكن فى مقدور العجوز أن يفعل شيئا الا المســير بآلته الموسيقية الى شارع آخر وفجأة بدأت الدموع تنحدر حول انفه . كان رجلا عجوزا .. عجوزا جداً .. هكذا قالت الطفلة لنفسها . ان الشارع ليس للجميع ·· هكذا فكرت .. وليس لأحد بصفة خاصة أيضا . ومرة أخرى شعرت بالشوق الى السكر · ·الى كثير من السكر الذى يملأ فمها ويمنعها من التنفس ·

وأطلق جـدها انه على حين غـرة ومسح دموعه والتفت اليها قائلا :

– لماذا تعرجين ؟

ونظرت الطفلة الى قدميهـــا ، ورأت أنها بحذاء مفرد ·

– أين فردة الحذاء الأخرى ؟

وهزت كتفيهـــا ·· ولاح أن الجد يهمه كثيرا أن تعثر على الفردة الأخرى من حذائها · انه يكون أحيانا عنيـدا كالسكير أو كطفل صغير · واستدار للبحث عن الحذاء ·

وكان فوستـــو لا يزال عند المنعطف الشارع يحك جلده فى الحـذاء ويموء برفق ·

واســتبدت بالرجل العجـوز نوبة غضب جامح . وانقض على القط وركله بعنف · ووضعت الطفلة يديهـــا على أذنيها · ولكن عينيها لم تغمضا رغم رغبتها فى اغماضهما . وهكذا رات كيف طار فوستو فى الهواء ثم سقط بعيدا·

وقالت لنفسها « لا شك أنه قتله »·

ثم استانفا المسير بسرعة · وأخذت الطفلة تساعد جدها على دفع عربة الآلة الموسيقية بكل قواها ··ولم تكن تبكى· ولـكن الرجل العجـــوز كان متوتر الأعصـــاب ، مضطرب النفس جدا · وتوقف فجـأة وراح يصرخ قائلا انه صار عجوزا ، ولم يعد يحتمل أكثر مما فعل ، وقال أخيرا :

– اننى لم أعد قادرا على الاستمرار فى العزف · ·لقد انتهيت ·

ووضعت الطفلة يديها على أذنيها ·

ثم هـــدأت نفســه أخيرا ، ووقف بهدوء ، ونظر الى الطفلة قائلا :

– هلم ·· هلم ندخل هناك ·

وأشار الى حانة صغيرة ذات نوافذ زجاجية قذرة ، وعلى مدخلها لافتة ملونة باللونين الأبيض والأحمـــر · وفى داخلهـــا ، عند منصـــة الشرب يمكن للانسان أن يحصل على شطائر جافة ·

مائدة صغيرة ، وطلب العجوز قدحا من الخمر • وكان الجميع في الحانة يتحدثون في وقت واحد • واشترى العجوز جبنا وخبزا واقبلت الطفلة على الطعام تلتهمه بسرعة حتى انتفخت وجنتاها وتوهجتا • وأخيرا أراحت رأسها على المائدة • وكانت مستديرة لها سطح من الرخام المكسور أشاع البرودة في جبينها ما أشد حزنها على فوستو • ولكن حزنها كان ممتزجا بغضب شديد • وفي تلك اللحظة سمعت صرير الباب ، واذا بالشعاب الكسيح يدخل الحانة حاملا معزفه •

ولاح أن كل من في الحانة يعرفه • ولكن الشاب اقبل على مائدة العجوز والطفلة عندما لمحهما ، وقال بصوت متردد :

ـ سلاما يا جدى •

ولكن الجد لم يرد • وانما شرب جرعة من خمره •

وأحضر الكسيح مقعدا وجلس بجانب العجوز ، وأخرج كيس تبغه وقدم بعضا منه اليه وعندئذ حك الجد قفاه وأخذ التبغ ، ثم شرع الاثنان ، في صمت ، يلفان سيجارتيهما •

وبدأ الكسيح الحديث بصوت خافت ودود •• وأرهفت الطفلة سمعها وهو يقول :

ـ انني لا أحمل لك الضغينة ياجدى• ولكن يجب أن ينال كل انسان حقه • وقد كنت أنا في الشارع أولا • ولا ينبغي أن يكون هناك أحد حيث أكون

•• ولكن دعنا من هذا •• اننا أصدقاء •• أليس كذلك ؟

وأومأ العجوز برأسه ، ثم قال فجأة في حرارة :

ـ انني لم أسمعك لأن سمعى ثقيل •• وكنت قد امتنعت عن الخروج بآلتى الموسيقية منذ أيام • ولكن عندما كانت ابنتى ـ أم هذه الطفلة ـ على قيد الحياة ، فان الأمور لم •••

وقاطعه عازف الأوكرديون بحركة من يده كأنما يقول له « مهلا •• انني أعرف القصة كلها •• »

ثم راح يقدم نصائحه •• قال انهما يتحركان ببطء شديد .. فلو أمكن أن يزيدا من سرعة الحركة ويجوبا شوارع أكثر ، لازدادت ايراداتهما اليومية • وتناول من جيبه قلما وراح يخطط به ، على رخامة المائدة ؛ رسما للشوارع التى يؤدى بعضها الى بعض •

وأسقط أحد رواد الحانة كوبا من الزجاج على الارض ، فتحطم وهرعت الطفلة الى التقاط الشظايا ودسها في جيب ثوبها غير حافلة بما قد يصيبها من خدوش أو بما كان يقال لها « حذار أن تجرحي يديك يا صغيرة » وكان الجد وعازف الأوكرديون مستغرقين في مشاريعهما ، فلم يرياها • وبعد أن جمعت الشظايا بحذر ، تذكرت فوستو وشعرت بالأسى من أجله يكاد يخنق أنفاسها •

وقالت لنفسها •

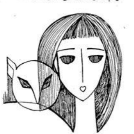
« لنفرض أنه مات ، لنفرض أنه

مات ، فيالفوستو المســكين ، ان القط المسكين قد لا يعرف ماذا يفعل حين يجد نفسه وحيدا محروما من القــوة التى تعينه على الاستمرار فى الحياة ، ومرة أخرى شعرت بالرغبة فى البكاء •

ودخل شخص آخر الحانة مصحوبا بدفعة أخرى من الهواء البارد • ودون أن تتردد لحظة واحدة ، تسللت الطفلة من الباب المفتوح الى الخارج •

وسارت من شارع الى آخر •• آه •• انها كانت هناك فى ذلك المنعطف •• انه لا يزال فى مكانه كما توقعت •• مكوما بجوار الجدار ، ينظر أمامه فى حزن • وانحنت الطفلة وأخذته بين ذراعيها • وسارت به على غير هدى ، وكانت تسير وهى تشــعر بمرارة •• بمرارة عميقــة ألهبت قلبهــا وأغلقت نفسها • وظلت تسير بجوار الجدران •

وفجاة وصلت الى أنفهما رائحة طعام



شــهى ، فاقتربت ببطء من النافذة الخفيضة المتصــاعد منهــا الرائحة • وتطلعت الى الداخل • ورأت مع القط

مطبخ مدرسة كبيرة وحملقت الطفلة من بين قضــبان النافذة • وكذلك فعل فوستو • وبدا كل شىء غائما بسبب السحب المفعمة برائحة الطعام آه •• ما أروع الدفء فى ذلك المطبخ • وما أعذب رائحــة الطعــام ، رائحة الخبز وآلاف الأطعمة الأخرى الشــهية التى ياكلها الناس كل يوم ، والتى لا نصيب فيها لهذين الاثنين •• الطفلة والقط لقد جعلهما البخــار الذهبى الدافىء يغمضان أعينهما •وكانت أرضية المطبخ ذات مربعات كلوحة الشطرنج الضخمة• وبدا لهما أن أوعية المونية هائلة تغلى على النار •• أو تغلى من الغضب وكان فى مقدورهما أن يريا أقدام الخادمات وأحذيتهما السوداء ، وأحرف أرديتهما

وأخذت الطفلة تربت عنق القط بلا وعى • ان هناك على المنضــدة أشــياء شهية لفوستو فى متناول يده أيضا •

وفجاة انحنت على أذنيه وقالت له :

ـ هلم ياصاحبى•• اذهب الى المطبخ اننى لن أستطيع مساعدتك الى الأبد•• عليك أن تتعلم كيف تساعد نفسك •

وأرسل فوستو مواء خافتا ، وعندئذ استبد بالطفلة الغضب ، فوضعته على القضبان ، وضغطت أنفه عليها قائلة : الآن •• أظن أننى سأبقى معك دائما لأســاعدك ، لا يا ســيدى • أدخل واحصل على طعامك بنفسك •

ولكن فوستو تثاب وقوس ظهره ، وحك أنفه بمخلبه •

وقالت الطفلة :

– أيها الأفاق التعس . لسوف أريك

– انظر . . انظر الى ذلك القط ، القطط ،

كان ثمة قط أسود كبير لامع الفراء نائما تحت مقعد فى المطبخ . وكان قطا معنيا به وبغذائه وكان بطبيعة الحال أمينا مستقيم الخلق . ومن ثم لم تحاول احدى الخادمات أن تطرده من المطبخ وعلى الجملة كان يؤدى واجباته وينال من ثم كل حقوقه .

ودفعت الطفلة بفوستو الى المطبخ قائلة .

– هلم اذهب وتعلم من ذلك القط .

وبعد أن ألقت به داخل المطبخ أغمضت عينيها برهة ، ثم فتحتهما لترى ماذا حدث .

رأت فوستو يتسلل ، مترددا نحو اناء موضوع فى الركن ، وكان بالاناء بقايا طعام تخلفت عن القط الأسود . وبدأ قلب الطفلة يخفق بالسعادة .

ومرة أخرى انهار كل شىء . لقد استيقظ القط الأسود ، ونخر فى غضب ، ثم وثب على فوستو أوه . . ياله من مخلوق أنانى . لقد كان فى الاناء طعام أكثر مما يحتاج اليه ، ولكنه رفض أن يتنازل عن كسرة من حقه . ورأت الطفلة فوستو يفر ويندفع باحثا عن الباب وقد ركبه الفزع . ولكن الطفلة أدركت أن القط الكبير لا ينوى ايذاء القط الصغير . كان يكشف فقط عن مخالبه ويستعرض عضلاته . كانا يشبهان الى حد ما جدها والشباب الكسيح .

واستطاع فوستو أخيرا أن يمرق من الباب . وهرعت الطفلة الى الجانب الآخر من البيت بحثا عن مدخله ، ولم يلبث فوستو أن ظهر وهو يكاد يبكى . وكانت الشمس قد خرجت من وراء السحب وأضاءت فى خفوت فراءه الذى بدا كالحا متآكلا .

وكانا واقفين أمام صندوق فارغ ثم جلست الطفلة بجوار الجدار وبدأت تعبث بالتراب . واقترب فوستو نحوها فى تردد وكأنما أدرك أن الأمور تغيرت ولم يشأ أن يموء لكى ترفعه الى ذراعها ، وانما اكتفى بأن تكور بجانبها وراحت أجفانه تختلج تحت أشعة الشمس الخفيفة الفاترة .

وبقيا على هذا الوضع حينا ، ثم اذا بباب المطبخ يفتح ويخرج منه القط الكبير الأمين البارع . كان يريد أن يستمتع بدوره وينعم بأشعة شمس الشتاء . وجلس على مسافة غير بعيدة وذيله ملفوف حوله ، وشواربه منتصبة . وكان فى جملته يبدو كمخلوق سعيد مطمئن الى رزقه الدائم . وقالت الطفلة لنفسها «لاينقصه الا سيجار يدخنه كما يفعل الدوق باكو » . وكان منظره يذكرها بالدوق باكو صاحب متجر البقالة الذى كان من عادته ، بعد أن يفرغ من طعامه ، الخروج من البيت منتفخ الوجه ، لامع العينين ، ليشرب القهوة فى المقهى المجاور .

وفجأة نظر القط الكبير الى فوستو .

وبدا للطفلة أنها ترى في نظراته نفس المعاني التي كانت تراها في نظرات الدوق باكو عندما كان يلقى اليها بقطع السكر . وظل القط الأسود يرنو الى فوستو مدة طويلة .. طويلة جدا . وفجأة تذكرت الطفلة صوت الشاب الكسيح وهو يقول لجدها :

« سلاما يا جدى .. اننى لا أحمل لـك أية ضغينة ، ولكننى كنت فى الشارع أولا ... » وكان على حق . ان الطفلة بدأت تفهم الأمر على هذا النحو . وكادت تبكى من فرط الغضب . وقالت لنفسها ، طبعا انه يصيد الفيران من المطبخ ، ولهذا يطعمونه ويحبونه .

وشعرت أن عليها أن تتيح لفوستو فرصة أخيرة . وتذكرت أن هناك كنيسة صغيرة قديمة بالقرب من المكان . وكان القساوسة فيها يعطونها بين الحين والآخر صور القديسين ، وانها لتتذكر أنها سمعت بان مكتبة الكنيسة مليئة بالفيران . فيران كبيرة منفرة تأكل الورق والشموع .

وحملت فوستو بين ذراعيها بسرعة ، واندفعت تجرى حتى اذا وصلت الى الكنيسة ، أدركت مدى المسافة التى قطعتها . فقد أحست كأن جسمها امتلأ بالدبابيس ، وأنها لاتكاد تقوى على الحديث . وكان كل شيء داخل الكنيسة مظلما .

ودخلت المكتبة .. ورأت القسيس فيها ، وظهره اليها ، وكان يبحث عن شيء فى أحد الأدراج ، فاقتربت منه ولما رآها قال لها :

ـ ماذا تريدين أيتها الصغيرة :

وحاولت أن تشرح له الموقف بقدر ماتستطيع . ولم يفهم هو الحقيقة فى أول الأمر ، اذ حسب أنها تريد أن تبيع له فوستو ، ومن ثم قال لها :

ـ لا لا .. ان لدى قطتين جميلتين جدا .. أجمل كثيرا من قطك هذا .

ـ ولكننى أريد أن أقدمه لك هدية حتى يصيد الفيران نظير ما تقدمه اليه من طعام .

وصمت القس برهة ، وأخيرا ابتسم . وكان رجلا ناحل الجسم شاحب اللون ، على خده شامة فى حجم التوتة . وقال فى النهاية :

ـ حسنا جدا .. دعيه هنا .

ثم قدم اليها يده لتقبلها . وتركت الطفلة فوستو على الأرضية وأغلقت الباب وراءها بسرعة حتى تمنعه من اللحاق بها ، وغادرت الكنيسة على أطراف أصابعها حتى وصلت الى الشارع ثم انطلقت تعدو وكأنما يطاردها قطيع من الذئاب .

ولم تشعر بالرغبة فى العودة الى جدها . فلاشك أنه سيشتد فى تعنيفها . لسوف تنتظر حتى يهبط

الليل وتعود الى الكوخ لتنام • وكانت تشعر بارهاق شديد وكأنما يجثم عليها ثقل ضخم ، كما أحست بفراغ هائل في معدتها • ومضت الى صندوق للقمامة بجوار الجدار ، ونامت بجانبه بعد أن تكورت في ثوبهـــا وحاولت أن تخفي يديها في أكمامها •

ولما استيقظت وجـدت الشمس قـد اختفت تماما والبرد قد اشتد • ودلكت ذراعيها وضربت الارض بقدميها •• ثم اذا هي تتذكر فوستو •

وقالت لنفسها في أمل « ان فوستو الآن مثـل غيره من القطط » ثم راحت تتساءل عنه في قـــرارة نفسها وهي تشعر بالحزن والقلق •

ووجدت نفسها ، بلا ارادة ، وبلا فهم للسبب، تندفع نحو الكنيسة ، وتدخلها وتبحث عن القس • ولكنها وجدت قسا آخر •• رجلا قصـــير القـامة ، قبيح الشكل ، مشغولا بتنظيف أحد القناديل وقال لها :

ـ ماذا تريدين ؟



وشرحت له مهمتها ثم قالت :

ـ لقد أحضرت قطا احمر اللون لصيد الفيران ، فهل يمكن أن اراه ؟

ـ آه ‥ تذكرت ، اذن فهذا قطك ؟ أتعرفين كيف وجدته ، وجدته يلعب مع فار ‥ ووجدت الفار يركبه ويعبث به ٠

ونظر فوستو من تحت أحد المقاعد بعينين حـزينتين مستسلمتين وحملقت الطفلة اليه فى صـمت بينما استطرد القس يقول :

ـ ان خير ما يمكن أن تفعليه بهـذا القط هو القاؤه فى البحر ٠ انه لا يصلح لشىء ٠ بل انه ليس جميلا اقتليه ‥ أرحيه من شقائه لأنه مريض جدا ٠

وتمتمت قائلة :

ـ لا ‥

ولكنها اطرقت برأسها فى أسى ٠

ـ حسنا ٠ ماذا تريدين أن تفعلى ؟ اذا لم تأخذيه ، فسوف أقتله أنا ٠

وظلت الطفلة فى مكانها وقد زوت مابين حاجبيها وزمت شفتيها ٠ وبدا فمها كأنه خط أبيض فى وجهها ٠ وبعد أن نظرت طويلا الى فوستو ، استدارت وغادرت الكنيسة وهو فى أعقابها برأس مطرق ٠

وفى الشـــارع جلسـت الطفلة على الطوار ، وتمـــدد فوستو بجوارها ٠ ورفعت من رأسها الشريط الأحمر ولفته حول عنق فوســـتو ، ثم وقفت تتأمله بنظرات فاحصة وهى تقول :

ـ لا ‥ انك لست جميـــلا ، ولن يشتريك أحد ٠

وفجأة توقف فوستو عن الارتعاد ٠ وتالقت عيناه ببريق عجيب ولكنها لم تعودا تشـــبهان النجوم ، بل لم يكن هناك قطعة زجاج تشبه النجم حقا ٠ ان النجوم تلمع فى السماء ‥ بعيدا ‥ بعيدا جدا وهى الآن واثقة تماما بأنك اذا نظرت اليهـــا من قريب لوجدتهـا تختلف جدا عما تبدو من بعيد ٠

وانسحبت الطفلة فوستو من قائمتيه الخلفيتين وضربت رأسه فى الطوار ٠ وشهق فوستو للمرة الأخيرة وكان فى هذه المرة يشبه فى شهيقه الرجل ٠

وتركته ممددا بين دمائه التى تزداد وهى تنبثق من رأسه المحطمة ٠

وأغلق فوستو عينيه الى الأبد ٠

وعادت الطفلة الى الكوخ ٠ وكان الجد قد آب وراح يحصى ماجمعه من نقـــود ولما رآهـــا واقفة تنظر اليه فى باب الكوخ ، قال لها :

ـ ادخلى أيتها المتشردة ٠

وسعل ٠ وسعل مرة أخرى ٠

ودخلت الطفلة وهى تنظر اليه بامعان ، ثم سالته قائلة :

ـ هل حصلت على كفايتك من النقود اليوم ياجدى ؟

ـ لا ، ولا ، ولا ٠٠ واذا كان الأمر يهمك فانى لم أحصل على نصف ايجار الآلة الموسيقية ٠٠ وعلى هذا ٠٠٠

وخلعت الطفلة ثوبها وحذاءها ٠ وسقطت خصلات من شعرها بعد أن رفعت الشريط عنه على جبينها وعينيها ، ورقدت على الحصيرة واشتملت بالبطانية . وكان الضوء المنساب من الحانة المواجهة يسطع ٠ وفى داخلها كان بعضهم يغنى ويصرخ ٠ وعلى أديم الشارع كانت تسمع وقع أقدام الرائحين والغادين ٠ وتطلعت الطفلة الى السقف فاذا هو مظلم وجد قريب ٠ وخطر لها أنها وجدها فى حاجة الى سراج أيضا ٠

وقالت فجأة :

ـ جدى ٠ لقد قتلت فوستو ٠ انه لم يكن صالحا لشىء ٠

ورفع العجوز رأسه وفتح فمه وخامره لون غريب من الخوف ٠٠ احس بخوف غامض كالهواء الذى يعبث بالشموع ، أو كالأصوات التى ليس لها أصداء ٠ وشعر بعظامه تتصلب فى جسمه ، وبدت بشرته فى لون بشرة الميت ٠ واستطردت الطفلة تقول بصوت واضح رنان :

ـ جدى ٠٠ اننى أراهن بأى شىء على **أنك ستموت قريبا جدا ٠**

وتثاءبت ، واستدارت بوجهها نحو الحائط ٠ ولم تلبث أن استغرقت فى النوم ٠ وبدت احدى يديها خارج الغطاء نحيلة معروفة لامعة مثل احدى نفايات الزجاج الملتصقة على الجدار ٠

وفجأة شرع العجوز يبكى وهو يعتصر النقود التى كان يحصيها فى كفيه بعنف ٠ وبحث بنظراته عن الصليب المعلق فى صمت وسكون على الجدار ٠ ولم يلبث أن انفجر يبكى داعيا لفوستو المسكين مترحما عليه ٠

ولكن الطفلة كانت مستغرقة فى النوم ، ورواد الحانة يشربون ويضجون ، واقدام كثير من الناس تروح وتغدو على الطريق ٠ ولم يسمعه أحد ، أو يهتم بامره أحد ٠

قهوة وقصة في الدير

تحقيق : محمد عبد الحليم عبد الله

لم تكن هـذه هى المرة الأولى التى اجتاز فيها الى هذا العالم الغامض حيث تطل النوافذ المقفلة الخضراء والأبواب الحديدية السوداء على الحديقة الزهرة .. سعيت الى هذا المكان مندعامين بدعوة من الأب الشاب ج . مونو، حيث تناولت الغداء مع الرهبان . فى دير الآباء الدومنيكان فى صحراء العباسية .

كنت أحمل فكرة شيقة وأعرف ثلاثة أشخاص هناك . وأصعد طريق شارع مصنع الطرابيش فى يوم جمعة دافىء . هناك عمال يعيدون رصف الطريق وعمال يصلحون عددا كبيرا من سيارات النقل وقفت على طول الشارع كقطار مفكك العربات . والشارع آخذ فى الارتفاع . هناك أسوار لمدارس ومصانع وهناك خرائب لحقتها يد العمران . العزلة العميقة والسكون الذى لايقطعه الا همس القراءة أو العبادة بدأ يتصل بضجيج الحياة .

وما أن وصلت الى باب الدير ولاح لى مبناه ذو الطبقتين على يسارى حتى فطنت على يمينى الى شىء آخر يستحق الانتباه . فعلى مدى ارتفاع الأشجار المغروسة فى حديقة الدير والتى تحددعمره . هناك مدخنة لمصنع مقابل .. الدخان ينبعث منها كثيفا ملحا يشير الى العمل كانه نبض القلب . فرأيت على يمينى طريقا يؤدى الى الله وعلى يسارى طريقا يؤدى الى الله : ((العلم والدين)) لم يشعر العلم بدخانه وضجيجه وحركته فى المصنع بغربة

الدين عنه .. تجاوزا في الصحراء من قديم قبل أن تزحف المباني هناك . وعندما يجن الليل وتسكن حركة العلم ويكف المصنع عن التدخين تكون حركة الروح في المبنى المقابل على أشدها . ففي مكتبة الدير أو حجرات (الآباء) بحث ودراسة عن الله والروح وعلاقة الانسان بالانسان . وفلسفة وأدب . وترجمة وتأليف ..

وعندما اجتزت الباب تسلل السكون الى نفسي . سكون لا وحشة فيه . تؤنسه في صمت مطمئن روح من الله . ولم يسألني أحد « من ؟! ولا الى أين ؟! » لان أغراض المقيمين والوافدين يخدشها مثل هذا السؤال .. على يساري الحديقة بأزهارها التي ترنو الى الله الذى عطرها .. وبأشجارها ومماشيها ومقاعدها الخشبية . وبعض طيور لم أعرف اسمها كأنها تصلي .. حومت حول عرائش الشجر وزقزقت في السماء الصافية .

والمبنى القرميدي الأحمر ذو الأبواب الحديدية السوداء والبللور السميك . كان على يميني . فعز على أن أبدد سكونه حتى بضرب الجرس . ووصلت روحي الى تلك النقطة التي يصعب فراقها . نقطة التجرد والانطلاق والسعة والقدرة . لحظة لا تزيد على ثوان يشعر فيها الانسان (الماء والطين) أنه تخطى قيوده المادية التافهة القوية وأنه قادر على أن يتنبأ أو يخلق أو يطير . ومضة برق وتنقضي . كأنما لتؤكد للانسان صلته بالأصل الأعظم .

ولا يلبث الفرق العظيم أن يتجلى للعين من جديد . بين الأصل الخالد والكل الأكبر وبين الفرع الفاني والجزء الصغير ..

وتنهدت كأنما ألقت بي سفينة الفضاء الى الارض التي كنت أراها منذ قليل كرة نصفها في الظلام ونصفها في النور . وصعدت الدرج نحو الباب الحديدي فلم أر في البللور حتى خيالي. ودندن الجرس حين ضغطته ثم ساد الصمت . صمت مشع كان يأتي من الداخل ويخترق حديد الباب . اختلط بالصمت الخارجي المظلل على الحديقة والمماشي وواجهة المبنى كروافد تصب في مجرى النهر .

ــ الأب قنواتي من فضلك .

ــ آه .. تفضل من هنا .

وتهلل وجه جاد جدا وديع جدا مصري جدا . لرجل اسمه « رمضان » كأنما لمست كل صلوات « الآباء » الستة عشر وجهه مثل كف شرقي ففاض بالأمان الذى يعرف الخوف والطاعة التي لا تعرف الملل . وان بدا في عينيه معنى من « العزلة » لم أره في عيون الآباء .

في حجرة الاستقبال منضدة صغيرة مربعة عليها مفرش مخملي زيتي . جلست أرسم على وبره حروفا كأنها اسمي حتى أخرجني من وحدتي صوت مرح وقور متدفق أعرفه . نبراته تشبه خطوات صاحبه . سريعة منكفئة الى الأمام . مبتسمة تعرف طريقها . لها صلة ــ بحكم المولد ــ بمدينة

الاسكندرية .. صاحبة المكتبة الشهيرة فى التاريخ ومدرسة أفلوطين الفلسفية. هذا الأب من مواليد هذه المدينة .. رئيس الدير . الأب قنواتى . الصديق الحميم لابن سينا العالم والفيلسوف العربى والذى كتب عنه وحاضر .

ــ اهلا .. هل اطلب القهوة ؟ .. حالا سيجىء كل الآباء .. هل رأيت المكتبة ؟ .. ماذا تعمل الآن ؟ .. لقد زرتنا هنا وكنت غائبا ..

نظرت اليه وأنا ابتسم فهو فى نشاط سن العشرين . يمكنه ان يتكلم فى عدة اشياء فى وقت واحد . ذلك الصيدلى الفيلسوف الأديب . وتركنى وانصرف ليرد على التليفون ثم عاد ومن بعده الأب ج . مونو . صديقى الذى عرفته منذ ثلاث سنوات . ثم الأب ج . جومييه الذى رأيته للمرة الأولى .

صرنا اربعة . كل منا يأخذ ــ بالتساوى ــ ضلعا من مسطح المنضدة وبيننا أربعة أقداح من القهوة وضع فيها السكر بالتساوى .

الأب مونو شديد الاطراق . أصغرهم سنا . لم يعد الثالثة والثلاثين . ذلك الباريسى الذى ناداه الله (على حد تعبير الأب قنواتى) المولود على مقربة من ميدان ((الكونكورد)) .. ميدان الوفاق .. ودار الأوبرا . يتكلم العربية بدرجة تقع فى الوسط بين طلاقة الأب قنواتى الإسكندرانى وعكسها فى الأب جومييه ..

كنت فى مواجهة الأب جومييه على المنضدة . لم أستطع ان أثبت نظراتى فى عينيه طويلا فهو وان كان يخطو نحو الخمسين ذو نظرات فى حدة المثقاب . وجهه المربع وذقنه العريض وابتسامته الكبيرة على فمه الواسع وشيبه المركز على الفودين وعيناه الثابتتان فى لون سماء البحر ــ جعلتنى أشعر أننى أمام شخصية (أعيد خلقها) صورها روائى أو رسام . تكمن فى ملامحها المعرفة البعيدة الأعماق .

أما الأب مونو فهو على عكس الأب جومييه .. لم ار لون عينيه ولو أننى جالسته عشر مرات . يميل وجهه الى الاستطالة ودقة التكوين . ويلون الحياة وجهه اذا ما شرع فى الحديث . تثير ملامحه فى النفس ذكريات التضحية . ويحدثك كأنه يقرأ فى كتاب . ويشعرك أنه يقوم بواجباته الى حد الارهاق . لا يبالى بشىء الا الواجب .

بين هؤلاء الآباء الثلاثة تركت روحى تتنقل . وامتلأت عينى بصورهم كما تمتلىء بشعاع الشمس . وبدأنا نتكلم فى الأدب فاذا بهم قد قرأوا كل مهم فى ادبنا الحديث والقديم .

فقد قرأ الأب جومييه شعر عباس بن الأحنف « ترى هل يحفظ له كثيرا كثير من شعرائنا الشبان ؟! » . ويكتب الأب مونو بحثا كبيرا عن العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الفارسية وترجم الأب قنواتى دموع ابليس للوزير السابق الأستاذ فتحى رضوان ..

* * *

سألت الأب قنواتى عن اسمه بالكامل فقال : « جورج شحاته قنواتى » ، ثم استطرد فى مرح وقور . واذا اردت تعريب الاسم فهو جرجس شحاتة قنواتى . فاستطردت انا منتهزا للفرصة .

— واذا عربنا اسم الأب مونو واسم الأب جوميبه فماذا تقول ؟

رد الأب قنواتى :

— جاك جوميبه يمكن ان يكون « زكى جمعه » ..

وضحكنا .. ولمعت عينا الأب جوميبه سرورا باسمه الثانى . ووقعنا فى مشكلة حين اراد الأب قنواتى تعريب اسم الأب جوردان مونو .. استعصى على التعريب . احتفظ بشخصيته فى استحياء شديد كصاحبه الطيب تماما . قلت للأب قنواتى :

— حدثنا عن الرواية التى احببتها .

أطرق نحو المنضدة ذات الغطاء المخملى . رسم بأصبع يده التى مارست وتمارس الكيمياء حتى الآن حروفا مبهمة ثم رفعه الى عينين أضنتهما الحملقة فى أنابيب الاختبار وقال :

— قصة القرية الظالمة .

قلت :

— ذلك طبيعى فهى من وجهة نظر مؤلفها تعطى موقفا انسانيا عظيما . موقفا دينيا واجتماعيا فى وقت واحد .

قال الأب قنواتى :

— لذلك فقد كتبت عنها بحثا طويلا القيته فى مؤتمر الأديان الذى عقد بمدينة « روما » سنة ١٩٥٦ .

كما أننى على الرغم من مشاغلى فى الفلسفة والكيمياء حللت وكتبت عن (حديقة الله) لجبران خليل جبران وترجمت كما قلت لك دموع ابليس لفتحى رضوان .

وأنا أحب الأدب .. لا تظن أن الأدب والفلسفة متناقضان ..

فضحكت :

— انهم ابناء عمومة . بل بالعكس . لقد قال لى بعض أدبائنا الكبار . ان هواية (العلم) من أعظم الطرق التى تعيد ترتيب فكر الأديب . آه .. ربما ووجدانه . واذا كانت العلوم ذات أثر مؤكد فى انتاجنا الأدبى فما بالنا بالفلسفة وعلم النفس .

— ان المعارف الانسانية تكون كلا عظيما . نعم . وقد قرأت الجيل الأول كله . وقرأت الجيل الثانى والثالث .. وانت قد رأيت مكتبتنا .. ثم ان القراءة شىء حبيب الى نفسى . غير أنى أعتقد أن صديقك الأب مونو قرأ فى الأدب أكثر منى ..

ونظرت الى الأب مونو فاذا بتواضع الأب قنواتى قد أحرج تواضع الأب مونو . فضحك وهو مطرق وفرك كفيه الكبيرتين المستطيلتين فقلت له :

— اذن .. آن الأوان لتحدثنا عن نفسك .

رد الأب فيما يشبه الاحتجاج :

— نفسى ..

استدركت :

— اقصد تاريخ حياتك .

— أتممت دراستى الثانوية بباريس ثم التحقت بالحقوق لمدة سنة وبالآداب لمدة سنتين فى جامعة السربون .

وطبعا .. لم أكمل الدراسة بل التحقت بالكلية الاكليريكية وتحولت الى الدير. فدرست الفلسفة واللاهوت ثم رحلت الى تونس حيث درست اللغة العربية. وجئت الى مصر سنه ١٩٦٠ .

ـ من أحببت من كتاب وطنك ؟

ـ كان لابد أن أقرأ . ومن الصعب أن يتذكر الانسان كل ما قرأ . انما يتذكر الانسان بعض ما قرأه اذا كان هناك ما يدعو . غير أننى أحببت بلزاك وستندال وفلوبير ومن المعاصرين أندريه مالرو وزير الثقافة . وجورج برنانوس. وأحببت كامى جدا فى قصة الطاعون ..

ـ ومن قرأت من كتابنا ؟

ـ معظم كتاب الجيل الأول . ومن الجيل الثانى نجيب محفوظ ويوسف السباعى ويوسف الشارونى .. وسأكتب ترجمة طويلة عن حياة القصاصين المصريين الذين احبهم من الجيل الثانى وسأنشرها باللغة الفرنسية . وأعتقد أن ما نكتبه عن الأدباء العرب يقرأ كثيرا خارج البلاد العربية ..

وأمن الأب جوميبه على قوله . ونظرت اليه . كان كما رأيته للوهلة الأولى ابتسامته الكبيرة على فمه الواسع وعيناه الثاقبتان ترقبانى كنجم قريب . سألته :

ـ ما تاريخ حياة الأب ؟

ـ ولدت فى باريس بالقرب من (الاتوال) . أتممت دراستى الثانوية ثم دخلت مدرسة الهندسة بباريس . ثم الدير فى بلجيكا ثم مدرسة اللغات الشرقية فى السربون حيث تعلمت علوم اللغة العربية والأدب .. وأنا من أسرة تحب الفن .

ـ الفن ؟!

ـ نعم .. الفن ..

ـ الفن التشكيلى ؟!

ـ نعم ..

وصمت . ونظر لوهلة الى اللوحة المرسومة فى النافذة .. نافذة الحجرة. كان فى اطارها لوحة الهية من السماء والحديقة . زرقة وخضرة وألوان اخرى . ثم القى نظرة الى .

ـ نعم .. جدى لأمى كانا رساما . وأختى كانت رسامة ..

سرح خاطرى .. انا .. قلت فى نفسى :

الفن جميل يؤدى الى الله . كما يؤدى العلم والدين . أى شىء تجلو به مرآة القلب حتى يرى ربه .. فان الله يحبه.. علم او دين او فن او أدب .. صلوات اختلفت أنواعها . تحول الفحم الى ماس شفاف متعدد الزوايا يعكس ألوان الطيف وأضواء النجوم . فقط .. ينبغى أن نكون جادين فى أعمالنا . باحثين عن الجوهر الحقيقى للعقل والنفس .. لفصل الموجب بالسالب لتنبثق الشرارة المقدسة .

وعدت أنظر الى الأب جوميبه الذى قال :

ـ انا سأحدثك عن شىء طريف غير بلزاك وجرين وكلوديل وكامى وسارتر. سأحدثك عن افريقيين عرب وافريقيين خالصين كتبت عنهم باللغة الفرنسية.

وتركنى وقام ليعود بكراسته ذات جلد فى لون ماء البحر . فتحها واخذ يقرأ ويعلق ويتكلم قال :

ـ كتبت عن محمد ديب .. ومولود فرعون . وهما من الجزائر العربية .



● وصمت . ونظر الى اللوحة المرسومة فى النافذة ●

وعن أديب من السنغال اسمه حميدو خان له رواية بعنوان «المغامرة الغامضة» .

وكتبت عن معمري من نيجـريا وهو كاتب تقدمى عنده حساسية شديدة فى تصويره للجو العام وللبيئة أكثر من الشخصيات . وعن روائى من السنغال اسمه عثمان سامبيني يصف حيـاة العمال وأدبه فى الدعاية أثقل وزنا منه فى ميزان الادب . وعن قصـاص من جـزيرة (هايتى) تلك التى ينتسب أهلها الى الافريقيين بحكم الهجـرة والأجداد . له رواية اسمها (الأشجار الموسيقية) فيهـا حنين الوطن .. افريقية .. وفيها تبشير بالماركسية .

وقرات لكم جميعا .. كل الأجيال. وكتبت عن نجيب محفوظ وثروت أباظة الذى اعجبتنى له جدا قصة هارب من الأيام . لأن فيها شيئا وراء الواقعية .

ــ واقع فوق الواقع .

ــ نعم . هزتنى ..

ــ وأنا أيضا ..

وهززت راسى فى سرور وانا انظر الى الآباء من حولى . كنا فى حديث لذيذ كجزء من العبادة . نبحث عن حقيقة النفس عن طريق الأدب . وتذكرت شخصية أحبها .. أحبها جـدا .. ذكرتها لأن فيها صفة مشابهة وصـفة عكسية من الرجال الذين أنا معهم الآن. آباء حليقو الذقون وهبوا عمرهم لله والروح . والشخصية الأخرى كانت ذات لحية طويلة . فى بياض الزبد . كقديس لم ينقص منها شعرة . وكان يحب الله فى الناس ويحب النـاس فى الله . ذلك هو ليو تولستوى . وسألتهم فجأة :

ــ ما رايكم فى تولستوى ؟!

ردوا ثلاثتهم :

ــ عظيم ..

سألت الأب مونو :

ــ رايك بالتفصيل .

ــ احبه أديبا وانسانا .

سألت الأب قنواتى . فقال :

ــ مثل راى الأب مونو .

اما الأب جوميه فقد قال بابتسامته الكبيرة :

ــ هو كانسان عندى فى المكان الاول لكن كفنان فان دستويفسكى أحسن منه عندى . ودستويفسكى هو الذى قال : « اذا كان الله غير موجود فكل شىء مباح » ..

كان منتظر ان أنضم اليه . لكننى انضممت الى الأب مونو . قلت :

ــ لقد شـغلنى كاتب (الحـرب والسلام) والذى احب الله والانسان عن أن أوازن بينه وبين دستويفسكى .. الذى .. أحبه .. أيضا ..

ضحك الآباء الثلاثة .

ونظرت فى ساعتى .. كان الظهر قد حان واحسست أن الوقت يمكن أن يمر بسهولة حتى لو بقيت لنهـاية اليوم ولكن الآباء كانوا على موعد ..

خرجت وهم معى حتى البـاب . وهبطت السلم الى صمت الحديقـة وأزهارها . وكان الجـو عبقا بكل ما يسر . كنت مرتاحا . احسست اننى جلت جولة فريدة . وعند الباب كانت مدخنة المصنع ترسل دخانا غزيرا . والشارع يموج بالحـركة والشمس تفرش الأرض والتلال . وأنا اردد بينى وبين نفسى آخذا طريقى الى المدينة :

« ما أكثر الطرق التى تؤدى الى الله . ما أكثر الطرق التى تؤدى الى الله » ..

أتوبيس

قبل ان تدور السيارة لتقف أمام كشك ناظر المحطة ... يتدلى من نوافذها بعض المجندين العائدين من معسكراتهم ...

ويحاول ثلاثة من السريحة أن يصعدوا قبل ان تكمل السيارة دورتها ... ويقفز على سلم الدرجة الأولى شاب هزيل يحمل كتابا ضخما وقد ترك لحية مهملة تظلل وجهه المستطيل ... ويعترضه على الدرج جندي سمين . ويدفع الشاب من الخلف بعض البائعات السريحات ذوات الشيلان السوداء ... ولا يستطيع الشاب رغم هزاله أن يمرق بجوار الجندي الى داخل السيارة ... ويسمع صوت السريحات ..

ـ سد الدنيا بكرشه ...

ـ ما توسع الباب ...

ـ بنقول فاضية ياغجر ... امتى تتعلموا النظام ...

ـ داهية تسدها فى وشك .

ويمرق الأفندى الى داخل العربة ... بينما تتولى امراة (تحمل صفيحة بداخلها شوال) امر النساء المتزاحمات على الدرج ... يحاولن الصعود وهى تحاول الهبوط ... وهكذا يسمع الناظر صيحات ثم ضربا بالصفيحة على راس احداهن ... ويعلق الناظر والكمسارى :

ـ ويقولوا لك العيب منا ..

ـ منا .. ـ ده ـ شعب ...

ـ ومع ذلك .. العربية ـ دىمش ـ طالعة ..

واقتحم الشاب الدرجة الأولى .. ثم عبر منها الى الدرجة الثانية .. ووجد المقاعد الأمامية قد احتلت منذ محطة او محطتين سابقتين .. ولكنه وجد المقعد الأخير الذى يطلقون عليه « كرسى خمسه » وجده خاليا ..

بقلم
أمين ريان

والقى الشاب بجسده على وسائد « الكرسى خمسة » فصاح به سريح ينادى على زملائه « انه محجوز » .. وقبل ان يجيب عليه الشاب .. انهالت من النوافذ اشولة الباذنجان الأسود والفلفل الأخضر .. ثم أعقب ذلك فردتين من مداس (مهربد) هما نعلى السريح .. واخذ السريح يرتب الأشولة على الرف (الذى بين مسند الكرسى خمسة وجدران السيارة) ويسميه السريحة « ركن البضاعة » .

ودفعت الجدة العجوز بحفيدها التلميذ الصغير « الذى يحمل كل صباح حقيبتـه الكتابيـة المثقـلة بالكتب المدرسية » .. ودفعت به وسط زحام الراكبين .. فراح يتخبط كأنه كتكوت غريق بين الشيخ كسيح .. وقـزم يصحبه كسيح كل صباح الى السيارة .. ثم يتركه ويعود الى موقف العربات الكارو على الرصيف المواجه .

وحـاول الضرير الجلوس فنهـره السريح .. وعندئذ صاح به الشاب أن يتقى الله فى الشيخ العاجز .. ورغـم ذلك راح السريح يحاول الاحتفـاظ بالأماكن الباقية لزملائه السريحة .. لكن القزم السمين دفع به بعيدا وأجلس نفسه على طرف « الكرسى خمسـة » الى جوار الباب حتى يصعد الكسيح فيترك له مكانه اذ تنتهى مهمته واعترض الكسيح السريحة وهم يصعدون .. فحملوه بين أيديهم وصعدوا به داخـل السيارة .. فجلس مكانه القزم فى خيلاء ولم يشكر احدا .. بل أخـذ يتأمل الركاب حوله بعينين واسعتين مخيفتين ..

وجلس السريح الأول .. ثم ضغط باقى الجالسين وحشر زميليـه .. فاصبح الجلوس سـتة أشـخاص « بدلا من خمسة » .. واسـتمطر الكسيح لعنات السماء على الأرياف التى تصدر صنفا من المواشى باسم آدميين وما هم بآدميين .. وضحك السريحة .. وفى هذه اللحظة .. هجم السريحات الثلاثة وهن يحملن اشولتهن وأكياسهن ولما كان الكرسى خمسة يرتفع درجة عن أرض السيارة .. فقد ألقين بأجسادهن التى غمرها العرق فوق تلك الدرجة .. [illegible] مقعدا تحت أقدام الجلوس واسندت السمينة ظهرها الى ساق الشاب والسريح الذى بجواره وراحت تسب صنف الرجال ..

– عيه العوض ..

– قال احجز لكم قال ..

واجابهن السريح الاول ..

– الأفندى خد مكانكم ..

– هو بقى فيه أفندية ..

– ياختى .. ولا حتى رجاله ..

وصعدت عجوز تحمل قفصا مستطيلا لم يتصور احد امكان دخوله وسـط الزحام وصاح بها أحـد السريحة .. بلهجة صعيدية :

– يابوى .. ده يساع خروف .. »

وظن الشاب أن القفص خاليا .. فاذا به بعض ثمار الموز ..

وشتمها الكسيح ودفعها بعيدا عنه .. فوقعت فوق التلميـذ الصـغير ..

[illegible] لم يجدها .. وكادت تدوسه الأقدام فبكى وراح ينادى جدته . وحاولت العجوز أن تجد مكانا بين النساء .. فداست فوق قدم السمينة .. وانتفض الشاب اذ انتفضت السمينة بعجيزتهـا فوق قدمه .. فاصبحت ترتكز بلحمها الثقيل فوق حذائه اليمنى .. وعالج سحب قدمه بخفة لكن السمينة راحت تستند أيضا بظهرها الى ساقه وساق السريح بجواره فلم يستطع احداهما حراكا ..

وسب السريحـات المراة العجـوز

وسألنها ما تلك الداهية التى تحملها.. والى اى داهية تذهب .. وسألها السريح الأول ..
« ماذا ستشترى فى هذا القفص .. هل ستشترى جحشا .. » .
وضحكت العربة .. واحتملت العجوز دفع النساء وسخرية الرجال.. ثم رددت ..
« لأجل خاطر اليتامى .. يصحوا يقولوا ناكل ايه يا ستى .. هاتى قرش ياستى .. فين ابونا .. فين أمنا يا ستى .. »



ورقت لها السمينة .. فصاحت بها ..
« هيه .. يعنى أنتى اللى حتزوديها .. انحشرى جنبى هنا » .
وبينما حشرت العجوز هيكلها العظمى بين النساء .. ارتفع عويل التلميذ الصغير الذى راح يحتضن حقيبته ويبحث عن الهواء ولا يعرف رأسه من قدميه .. حتى أعاده الناس بصعوبة الى الأرض ..
ومد السريح يده خلسة الى الثمار التى بقفص العجوز ثم التهم منها موزه ..
وصفعته السمينة بكف كالمقرعة .. فصاح خلال فمه المحشو ..
ونظر الشاب الى ساعة معصمه .. ثم عاد الى الحوار الذى يدور بأعماقه..
— « لا .. لا .. لن أسمح لك وهل يجهل أحد أزمة المواصلات .. » .

وكان فى الأيام الأخيرة .. ينقطع عن تأملاته الروحية ويدخل فى حوار مع مدير الشركة الذى يعمل تحت رئاسته .. واستطرد ..

« الله .. هى الآلات اللعينة أصبحت حجة لاهانة الانسان واحتقاره فى هذا الزمن » وناقش نفسه : ..

« ولكن ربما كان الرجل هكذا خلقة ربنا لا يقصد احتقارى بالقول ولا الاشارة لا .. لا ..

يكشر عن أنيابه .. ويشير بأصبعه ويشمخ بانفه .. انها مسالة طبقات وعربات ملاكى وتعالى على عباد الله ..

وفجاة التفتت السمينة الى السريح الأول ثم صفعته على صدره بكفها وصاحت : ..

ــ صوابعك يا ابن الحافيه ..

ــ اعمل لهم ايه ..

ــ لمهم بالعرض ..

ــ المهم بالعرض !!! .

اقطعيهم احسن ..

وصاح باقى السريحة :

ــ اذا كانوا خلقة ربنا بالطول ..

وضحك الركاب .. ونظر الشاب حوله شذرا وتساءل ..

« ولكن ماذا سيحدث بعد ان ضاعف المدير بلواه .. فنقله الى الضواحى ليركب مرتين بعد أن كان يركب مرة واحدة ؟؟ » .

وحضرت الى ذهنه صورة المدير الجديد بوجهه العريض وعينيه الضيقتين وعربته السوداء .. والقى نفسه يقول :

« لو كنت منك لخجلت من نفسى .. من تعالى على الخلق .. وجهلى بالعالم » .

ولكنه لم يدر أن كان يقول ذلك لمديره الجديد أم لمديره السابق ..

سخر مديره السابق من كلامه عن الأولياء والقديسين عندما سأله ..

« تعاملنى ازاى كده .. يمكن انا القديس بولس والا سيدنا الخضر عند الله » ولكن لماذا قال له تلك الكلمات بالذات .. ؟؟ وما شأن رجل مادى وابن باشا سابق بهذه الروحانيات أو بازمة الاتوبيسات .. ؟؟

وسخر الرجل من الأولياء والقديسين .. فتوعده وقد كشر عن انيابه كأنه سيعضه .

« وهل القديسين والأولياء قالوا لك اسرق مواعيد الشركة .. ؟؟

لماذا لم يقل له .. :

« بل قالت لك اركب عربتك وامشى فى الأرض مرحا .. وسابق عباد الله .. » وضحك الركاب مرة أخرى على ما يجرى بين السمينة والسريح الذى جمع ساقيه وجلس القرفصاء فوق المقعد .. وهو يصيح بلهجته الصعيدية « يا بوى » .

وهمس الشاب لنفسه .. :

« يتصوران العالم قد خرج من القدرة الالهية .. والبشر لم يعد يشملهم

لطف الله .. ويسخر ان يكون بيننا الآن بولس او الخضر .. » .

ومن النافذة راى الصفير وقد ارتفع عويله المذعور « وهو يبحث عن الهواء كطائر مذبوح بعد ان لفظته السيارة » .. وعادت الجـدة تحتج على الركاب أن يستصغروا شأن الطفـل ويدوسوه ويطأوا كتبه ويطردوه من السيارة ..



ونهرها الكمسيح فصبت لعناتها على القوم الظالمين ..

وصاح بها المتشعلقون ..

« الا ترى بعينيها كيف يتشعلقون على رفرف السيارة » .

وصاح بها السريحة ..

« ماذا ستكسب منه اذا ما ذهب الى المدرسة وحفظ العلم » .

وتمتم الشاب .. :

« وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟؟ » .

وراى الشاب عربة اخرى تقبل الى الموقف فدارت حـول الميدان ووقفت بجوارهم .. وهبط منها الكمسارى .. لكن سائقها لم يغادر عجلة القيادة .. وحضر ناظر المحطة واخذ يصيح بالركاب الذين حشروا فى السيارة الأولى وهم فى انتظار ان تنطلق بهم ..

والفى الشاب الركاب يهرولون الى الأرض وكأنه شب حريق فى السيارة .. ولم يفهم ماذا جرى .. لماذا يقـذف السريحة باشولة الخضـار خـارج السيارة .. ؟؟ ولماذا غادر ركاب المقاعد الامامية .

وظن الكفيف من فرط الزنقـة ان معجزة حدثت .. فجلس على أحـد المقاعد التى خلت وراح يشكر ويدعو للركاب بالخير وبلوغ المقاصد .

وسأل الشاب احد العمال مـاذا جرى .. فاخبره أن السيارة بهـا تصليح وستحول (مخزن) وأن الاخرى التى وصلت الآن هى التى ستنطلق ..

وغادر الشاب مهتـاجا .. وعلى الدرجات تعثر فى الكمسيح يحاول الهبوط بقوة ساعديه وتطلع الى المخلوق الذى فقد نصفه الاسفل كالمأخوذ .. وشمله

الكسيح بنظرة وعيد .. ثم صاح وكأنه مشعوذ ينذر الجماهير .. وذعر الشاب ــ كان الرجل يشير الى النصف الذى فقده ويهتف » .

« بل هو من عند انفسكم » .

وفطن الشاب الى أنه يردد الآية التى تذكر ــ ان ما أصاب البشر من ضر انما هو من انفسهم .. وخشى ان يرتكب اثما اذ ألفى نفسه يجادل فى اعماقه :

« بل هو بسبب الترام .. بسبب الأتوبيس والله أعلم » .

وراح يشغل نفسه بما يجرى حوله .. حتى لا يرتكب احدى الكبائر .. فرأى النسوة يحاولن اصطحاب زميلتهن السمينة .. ولكنها راحت تقسم بالطلاق أن لا تركب الا « الكارو » حتى يوم يبعثون ..

وكانت الجدة تمسك بحفيدها التلميذ وتشكو للناظر .. فسخر منها فى برود قائلا :

« خذى لك تكسى » .

وتحركت مواجع الشاب .. فاحتج على الناظر صائحا :

« لو كنت منك لخجلت من نفسى ».

وتساءل الناظر :

« هل يقول له هذا الكلام .. ؟؟

واضطرب الشاب وكان الناظر اكتشف سر الردود التى يعدها مسبقا للمدير .. وتطلع الى المتزاحمين عند بابى السيارة .. كانوا لم يفقدوا شيئا من اجسامهم ولكنهم فقدوا كل صوابهم .. واهدروا بالسب والركل كل آدابهم وهتف هاتف بأعماقه .. :

« أن المدير لاشك يعلم انه لا يمكن ان يكون بين هذه الحيوانات بولس أو الخضر !!! .. والا لقلبت هذه الآلة الحقيرة الى سفينة أو طائرة تذهب بهذا الكسيح وذاك الكفيف وهؤلاء السريحة كل الى غايته فى غمضة عين .. فهذا اوان المعجزات .. » .

وتوسلت الجدة العجوز لأحد السريحة ان يأخذ حفيدها التلميذ الى داخل السيارة فأجابها ساخرا .. :

« أنه سيأخذه يوم يخصص مكان للسريحة ..

فالتفتت الى الكمسارى .. واستحلفته ان يأخذ الطفل معه .. فضحك مقلدا السريح .

« انه سيأخذه يوم يخصص مكان للكمسارية ..

واستدارت الجدة كأنها تبحث عن معجزة ..

وكان الشاب يريد أن يرقب الكسيح .. وان يتدبر كلماته .. لكنه حمل التلميذ الصغير بيسراه وتقدم نحو زحام الدرجة الأولى وقد قرر ان يزاحم .. أن يدفع ويرفس .. بل ويعض .. لعل فى العض تكمن معجزة العصر .



بحث : د. طه محمود

•• تمهيد

يعتبر فورستر من الكتاب العقليين ويؤمن كفرجينيا وولف ولورنس وهكسلى بأن الحياة أكبر من ان يحتويها العقل وان الحقيقة ليست مجرد ادراك عقلى بحت . وقد دفعه حبه للحياة بما فيها من ثراء الى السفر الى اليونان وايطاليا والهند ومصر ، فقد أراد فى بدء حياته الادبية ان يعيش حياة البواعث والعواطف التلقائية . ولكن ذكاءه المدقق وازدواج التفكير الفطرى فيه دفعاه الى الشك فى هذا الكشف التخيلى للحياة حتى عندما استكان لالهامها . ولم يكن فورستر البتة من هذا الصنف من الناس الذى قد يقبل فلسفة الدم الغرزية عند لورنس ويرفض فلسفة عقلية أو حتى يقبل الفكرة القائلة بأن الشخصية الانسانية ترتكز على فلسفة التنافر والتجاذب والعنف او فلسفة فطرية فى تحقيق ذاتها . ففورستر يؤمن بالحكمة التى تنبع من القلب والتى عالجها أدباء القرن التاسع عشر بشىء من عدم الاهتمام ، وكانت النتيجة فى رايه انه بالرغم من التقدم العلمى والحضارى ، وبالرغم

من النهضة الصناعية فى انجلترا فانه لم يصاحب هذا التقدم والنماء تقدم ملحوظ فى التعاطف والمحبة والشفقة والادراك . وكان الرجل الانجليزى هو المسؤول عن هذا الفقر العاطفى لان نظام التعليم فى انجلترا ولا سيما فى المدارس الخاصة كان يهمل تنمية العواطف ويساعد على تحجر القلب . فقد كان نظام المدارس الخاصة Public Schools ، ولا زال ينحو نحو القسوة فى معاملة الطلبة حتى يخرجوا للحياة ساسة غلاظ القلوب يعملون فى أطراف الامبراطورية . ولهذا تجمدت عواطفهم وضعف احساسهم . ويسلط فورستر على هذا الطراز من الناس الأضواء فى قصصه فيجعلهم هدفا لنقده اللاذع دائما ، ويمكن القول بأن معظم شخوصه الشريرة فى قصصه من خريجى هذه المدارس .

وفورستر كاتب متحرر انسانى يفتن بالحضارة وينظر اليها على انها أعظم ما حققه التفكير الانسانى الحر ولكنه يدرك الحيرة التى تواجه المفكر الحر فى القرن العشرين . ويرى فورستر أن حرية الفكر ترتكز على دعامة عقلية قوية وتطرح الدين والايمان والمثل العليا جانبا ومعظم معتنقيها من اللاادريين Flgnostics او ممن يؤمنون بالحلول Panthei:ts ، وبالاضافة الى هذا وجد أن العقل ذاته والمنطق الذى ينكر قوة التخيل كانا فى خطر لأن العقل يضعف أحيانا أمام الغرائز والدوافع اللاشعورية والتحيز ، وكان مجرد الاعتراف بوجود هذه الدوافع اللاشعورية الخفية والغرائز يوحى بأن الانسان لا يعيش عيشة تتفق مع المنطق والعقل . واخيرا وصل الى ان العقل وحده لا يكفى ، ولكنه كان يخشى أن يبحث عن بديل له . وكانت مشكلته هى التوفيق بين مطالب العقل والحضارة والنظام والارستقراطية الفكرية من جهة ، والوعى التخيلى وعالم الاحساس والعواطف الدافئة والقلب من جهة أخرى .

ويرى فورستر أن النظام والاستقرار والتقاليد والحضارة والتسامح كلها قيم جميلة فى حد ذاتها ولكنها تتصارع مع الخشونة وتقر الاحساس وقلة القلب والتواكل واللامبالاة و « التكلس العاطفى » ، قيم جميلة تنقصها المبادىء الحيوية التى تضفى على الحياة ثراء وتبقى نابضة بالحياة . ووجد فورستر أن من يمثلون القمة فى مجتمعه يفتقرون الى المواطف النبيلة والشفقة والحب والرقة فى الشعور ؛ وبعد دراسته لمجتمعه ولهذه الطبقة بالذات وجد أن نقطة الضعف فى الرجل الانجليزى عامة تكمن فى خوفه من العواطف ، فى قلبه الذى لم ينم ، ذلك القلب الذى كان دائما عقبة فى سبيل فهمه وادراكه للثراء من حوله . والمشكلة التى تعالجها قصصه هى التعقيد الغامض فى الشخوص والعلاقات ، وهذه هى الفكرة المحورية فى معظم أعماله .

ولم يتمكن اى قصصى آخر من تصوير تلك العلاقات المعقدة تمكن فورستر وان لم يعط لها حلولا أو حدودا واضحة المعالم . وقد أمده موقفه من مجتمعه بمعظم مادته القصصية وبالصراع فيها بين طريقتين او مذهبين فى الحياة : طريق القلب الذى يدرك ويحب ويفهم ويتعاطف ولكنه مضطرب يتخبط أحيانا ويتعثر ويصطدم بالعرف والتقاليد ، وطريق التحفظ والرسميات والتقاليد والعرف والقانون الذى يحمى النظام ويحفظه ولكنه يخنق العواطف التلقائية تحت ستار من سيطرة العقل والمنطق . وهذا الصراع بين ذوى القلوب المتحجرة وبين الحيويين Vitalists له آثاره فى العلاقات بين الأفراد وتظهر نتائجه بوضوح فى المجتمع بأكمله . وينتمى الى الفريق الأول تلك الشخوص التى تقدس تقاليد فقدت حيويتها واصبحت جامدة ، ويتعذر عليهم حتى من خلال تجاربهم الذاتية أن يغيروا من تصرفاتهم ، ومنهم المحافظون المتزمتون .

فقد تكيفت حياة هؤلاء منذ صباهم ولن تغير التجارب الذاتية من طباعهم فهم أعداء لكل فكرة جديدة ويحطمون الحب وتتقطع الروابط الرقيقة التى تكون نسيج العلاقات الانسانية من جراء تصرفاتهم وخشونتهم . وهؤلاء الناس ، كما يقول فورستر ، يصبح منهم القادة والساسة والرجال الرسميون فى الحكومة البريطانية ولو انهم لا يرقون الى مرتبة الادميين المتكاملين . وينتمى الى المجموعة

الثانيــة من يطلق عليهم فورستر « الحيويين » فهم يحسون بعمق ولا يخافون من عواطفهم ويتفاعلون مع غيرهم لأنهم يدعون قلوبهم تقودهم وترشــدهم فى علاقاتهم بالآخرين . ولهذه المجموعة أفق متسع يجعلهم أحيانا لا يبالون بالتقاليد البالية اذا دعت الضرورة لذلك . ومن الشخصيات الرسمية ، رونى هيلسوب والرائد كالندر وعائلة ترتون فى قصته «رحلة الى الهند» وعائلة ويلكوكس فى « هواردز اند » ؛ ومن الشـــخصيات الحيوية ، فيلـدنج ومسز مـور فى « رحـلة الى الهنــد » وعائلة شـليجل فى « هواردز اند » .

* * *

حياته وفنه القصصى :

لقد توقف فورستر عن كتابة القصــة منـذ زمن طويل لأنه اتجه بعد نشر « رحلة الى الهند » فى عام ١٩٢٤ الى الكتابة فى موضوعات أخرى . وان كان ت . س . اليوت « وصامويل بتلر ييتس » قد تركا الشعر الغنائى ليكتبا مسرحيات شعرية فقد أغفل فورستر القصة ليكتب فى النقد وفى الحضارة والسياســة بوجه عام . ومع ذلك ، فان له مكانة مرموقة فى الأدب الانجليزى حتى الآن لمــا تحتله قصصــه القليلة الاولى (منــذ نشره « حيث تخشى الملائكة أن تطــأ الأرض » فى عام ١٩٠٥ حتى « رحلة الى الهند » فى عام ١٩٢٤) من مركز ممتاز فى الأدب الانجليزى عامة وفى مجال القصة خاصة . وعن طريق مقالاته النقدية وقصصه وشخصيته وآرائه أمكن للأدباء ولدارسى القصة الحديثة من ان يروا بصورة واضحة تلك العناصر التى تجتمع لتكون القصة النثرية وتكون ركائز للفن القصصى .

ونحن لا نجــــد فى كتــــابه المشــهور من القصة « أوجه القصة » Aspects of the Novel اهتماما يذكر بالرمز أو علم النفس التحليلى أو نظريات العلم الحــديث فى الفيزياء أو موسقة القصة أو حتى فى التجديد فى الاطار ، ولو أن هــذا لا يمنع من اســتعماله لبعض هذه الفنون القصصية التجديدية فى قصصه . فلدينا الرمز فى كهوف مارابار فى « رحـلة الى الهند » والمنزل والسيارة والشجرة العتيقة فى « هواردز اند » . وربما كان فورستر بطيئا فى الاعتراف بهذه الفنون القصصية وان كان على استعداد لتغيير وجهة نظره وخاصة بعــد قراءة جيمس جويس . ويعتبر فورستر كاتبا تقليديا فى كتابته للقصــــة ، ويذكرنا فى بعض أجزاء قصصــــه من أمثال « رحـلة الى الهنـد » ، « هواردز اند » بثاكرى وديكنز . فهو يعطى القارىء الاحساس بأن القصة أولا وقبل كل شىء ما هى الا عملية « تصنيع » أو « فبركة » ولا يجــد غضاضة فى الدخل بين القارىء والقصة أحيانا ليلقى الضوء على بعض المواقف ويطمئن القارىء بأنه هناك لمساعدته اذا اقتضى الأمر .



ويمكننا تلخيص اتجاهه فى الحياة وفى قصصه فى هذه الكلمات : ان فورستر يمثل شخصية المفكر الحر المرهف الحس الذى يعيش فى مجتمع يتمتع أفراده ببلادة الشعور ، أو شخصية الرجل الطيب الذى يحب التــأمل والذى يجد أن وجوده فى المجتمع يتطلب منه التورط فى مشاكله والذى يعتبر نفســه مسئولا عن تكوين الحضارة فى عصره وتوجيهها . فان لم يكن فورستر من هذا الصنف من الناس ، ما قدر له ان يكون الكاتب والقصصى الذى نعرفه اليوم .

وقد ولد فورستر فى ١١ يناير ســـنة ١٨٧٩ فى مدينة لندن وعاصر فيرجينيا وولف . وكان والده مهندسا مشهورا ، ووالدته من عائلة لها مكانتها فى مجال الفكر والأدب . وتعلم فى مدرسة « تونبردج » ولم يكن طالبا من طلبة الداخلية بل كان يدرس بالنهار . وكان لهذه التجربة أثرها فى حياته لأنه أدرك لأول مرة منذ شــبابه الفشل والاحباط اللذين يولدهما عدم القدرة على الارتباط بالآخرين وتكوين علاقات ودية معهم . ووجــد فورستر أن هزال جسمه وضعف قواه البدنية قد أقاما حاجزا بينـه وبين التجاوب مع أقرانه وممارسة الألعاب الرياضية ، واعتبره زملاؤه « دودة كتب » تماما كما حدث لستيفن ديدالوس (جيمس جويس) فى « صــــورة للفنان فى شبابه » عندما كان يدرس فى كلونجوز وود كوليدج ، ولألدوس هكسلى كما تصوره لنا قصته « تقابل الألحان » فى شخصية فيليب كوارلز .

وتعد المدرسة وجوها الارستقراطي المتعالي دورا هاما في قصتيه الأوليين — وكان مدة « سواستون » معقل المتأدبين المتعالين ، والقصة الثانية تشير الى تعاسة فورستر في هـذه الفترة المدرسية . (القصة الاولى : « حيث تخشى الملائكة أن تطأ الارض » والقصة الثانية : « اطول رحلة ») .

ويتحدث فورستر في مقال له بعنوان « ثورة باترسى » عن منزل جـده حيث كان يجتمع وليام ولبرفورس وجيمس ستيفن وغيرهما ليناقشوا مسائل دينية وانسانية وما كان لهذه المجموعة من نشاط في الغاء تجارة العبيد . وقد اثرت حياة المدرسة الخاصة في فورستر تأثيرا كبيرا واستمد منها معظم أفكاره ، ويصف فورستر مواطنيه بأنهم « أجسام نامية ، وعقول نصف نامية ، وقلوب غير نامية » . والسنوات التي قضاها في كمبردج تعد أسعد سنوات حياته ، فقد تمكن أخيرا من الدراسة المتأنية في جو علمى هادىء يساعد على التأمل ويشجع البحث الحر والفكر الحر ، واصبح من الممكن ان ينتقى اصدقاءه ويعمل وفق هواه في مشروعاته تحت اشراف أساتذة اجلاء لهم من الخبرة والدراية ما يمكنهم من اظهار المواهب في تلاميذهم وصقلها . وسرعان ما تفتحت مواهبه ونضج فكره واصبح دارسا وكاتبا — بل قد صار انسانا .

وبعد تخرجه في عام ١٩١٠ قرر مثل « ميلتون » وفيرجينيا وولف من قبله أن يشهد بنفسه مهد الحضارة الكلاسيكية ومعالمها ، فقام بزيارة اليونان وايطاليا حيث تمكن من امتصاص حضارة منطقة البحر المتوسط واستيعابها وله دليل عن مدينة الاسكندرية نشره عام ١٩٢٢ واضاف اليه في طبعة اخرى عام ١٩٣٨ وكتاب عن حكومة مصر عام ١٩٣١ .

وفي منتصف عشرينات عمره وصل الى قمة انتاجه الادبى ولم يكن له نشاط أدبى فحسب بل كان له آخر سياسى ، وحاول أن يقنع المحافظين بضرورة ادخال الاصلاحات ، واستمر يكتب في موضوعات سياسية في مجلة لها رأى مستقل . وقد ضمن حماسه وتعلقه الشديد بحضارة البحر الأبيض المتوسط قصصه التي اوحت له بها عناصر من الحضارة اليونانية وميثولوجيتها . ففي قصته « حيث تخشى الملائكة ان تطأ الأرض » نجد قصة دقيقة الصنع جميلة غنية بما فيها من فهم وادراك للقلب الانسانى والطبيعة الساحرة والقيم الروحية وسحر ايطاليا .

وفي خلال السنوات الخمس التالية ، ظهرت معظم كتب فورستر الهامة ما عدا «رحلة الى الهند» . وما ان بلغ الثلاثين من عمره حتى وكان قد نشر له « حيث تخشى الملائكة أن تطأ الأرض » في ١٩٠٥ ، « اطول رحلة » في ١٩٠٧ ، وهي قصة نشأته وحياته المدرسية ، « حجرة تطل على منظر » في ١٩٠٨ ، « هواردز اند » في ١٩١٠ والقصـة عمل طموح يحاول فورستر فيها أن يصور الأمراض النفسية التي تقوض نظام الحيـاة الانجليزية الحديثة كما يضمنها علاجا أوليـا ، وأخيرا مجموعة من القصص القصيرة في عام ١٩١٤ .

وفي عام ١٩١١ قام فورستر برحلة الى الهند لأول مرة وعند عودته ضمن نتائج زيارته وانطباعاته قصته المشهورة « رحلة الى الهند » ولكنه لم يتم القصة وتركها لفترة من الزمن حتى قام برحلته الثانية الى الهنـد عام ١٩٢١ . ولم تنشر أهم قصة له الا في عام ١٩٢٤ وتقبلها النقاد باطراء يشوبه نوع من الحيرة .واصبح فورستر من بعـدها صاحب شهرة عالية وقد بلغ توزيع هذه القصة حسب آخر احصائية من دار « بنجوين » وحدها أكثر من نصف مليون نسخة .

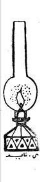
وفي عام ١٩٢٧ اختير للقيام بالقاء « محاضرات كلارك » في جامعة كمبردج وكان لآرائه في محاضراته من القصة والنثر القصصى أهميـة قصوى تعادل ما قاله ت . س . اليوت في النقـد والشعر في ثلاثينات واربعينات هـذا القرن . ولكن فورستر لم يواصل كتابة القصص بعد ما أحرزه من نصر وتمجيد ، ولكن اذا كنا قد خسرناه كقصصى ممتع فقد كسبناه في أجل ما يكتبه في النقد والسياسة

والحضارة والثقافة . وننظر الآن الى « رحلة الى الهند » وكأنها تنبىء بما قد يحدث فى المستقبل ويمكننا ادراك اهمية القصة الآن وبعد مرور أكثر من اربعين عاما على نشرها .

واذا لم يكن فورستر قد حذق فن « بروست » المعقد او جويس ، فهو بالرغم من ذلك قصصى بارع قوى من طراز ممتاز ، فحبكات قصصه دائما سهلة والسرد فيها مباشر مختصر وله القدرة على جذب انتباه القارىء وشده اليه فى معظم قصصه . وفورستر قصصى هادىء رزين لا ينفعل مع شخوصه كلورنس مثلا او جويس ، وفلسفته هى فلسفة الرجل العجوز المحنك الذى لا يرغب من الحياة فى غير الصداقة والاخلاص والحب والعلاقات الفردية الدافئة بين شخص وآخر .

* * *

اعماله :



يدور الصراع فى أول قصة فورستر ـ « حيث تخشى الملائكة ان تطأ الارض » Where Angels Fear to Tread ، ١٩٠٥ ـ بين « القشريين » و « الحيويين » ، وينشأ هذا الصدام كرد فعل يثيره زواج ارملة انجليزية شابة من مجتمع « سواستون » من رجل ايطالى عادى مرح يدعى « جينو » . وعندما تموت الام اثناء ولادة طفلها يشعر أقاربها المحافظون أن من حقهم العناية بالطفل خوفا عليه من والده السىء السمعة . ويصمم الوالد على الاحتفاظ بطفله الذى يحبه وينتصر على التقاليد الانجليزية العتيقة والتمسك بالشرف والاخلاص دون وعى أو تفكير . ويمثل « جينو » الفحولة البدائية المتكاملة ويتصرف بما يمليه عليه ايمانه واعتقاده لا بما تمليه عليه التقاليد والعرف ، ويتصرف بدافع من الرغبة الصادقة لا بدافع من الواجب الملزم . ويصور لنا فورستر أن قدرة « جينو » على الحب والاخلاص لابنه يعادلها فى القوة قدرته على المكر والدهاء والقسوة واللامبالاة فيما لا يخص ابنه . ولا يخدعنا فورستر ولا يخدع نفسه ، فهو يعلم جيدا أنه من الصعب العثور على شخصية تنبثق منها العواطف والدوافع المخلصة دون شوائب ، فالانسان الكامل لم يوجد بعد والعثور عليه حلم يراود القصصى دائما .

وبالرغم من قصر هذه القصة وسطحيتها وهدوئها فانها تحوى فى طياتها وفى طريقة تركيبها الفكرة الرئيسية فى قصصه الأخرى . وما لا يستطيع فورستر أن يحققه لنا فيها من تداخل وتعقيد وسمك فى النسيج القصصى وغزارة المادة والرؤى يعوضنا عنه بالطريقة المباشرة فى السرد وبالصراحة والبساطة التى يصف بها حلم شاب انجليزى . فقد كان لفورستر ـ بالرغم من أنه كان فى السادسة والعشرين من عمره ـ من النضوج الفكرى والاتزان ما يجعله يعتقد أن بيئة كالبيئة التى نشأ فيها لابد لها من التحكم فى العواطف التلقائية وكبتها . فقد نشأ أفراد مجتمع « سواستون » فى جو « بارد » يخلو من « حرارة » العواطف ويقاسى من السطحية والنفاق والأنانية الرخيصة . وادراك فورستر أن مجتمعا مثل هذا المجتمع لن يتمكن أفراده من التعبير عن الجانب الخير فيهم أو من تنمية قدراتهم الانسانية ، وقد حذق فورستر فن ابراز صور الشخوص على حقيقتها فى قصصه وغالبا ما يدفعها الى الظهور عارية أمامنا حين يجعلها تواجه أزمة معينة فى موقف يضطرها فيه الى الخروج من سلبيتها . ونرى هذه المواقف والأزمات بوضوح فى قصتيه « هوارذ اند » و « رحلة الى الهند » .

وتخلو هذه القصة من التعقيد المفتعل فى حبكتها ويمكن تبسيط هيكلها على هذا النحو : لنأخذ مثلا مجموعة من الشخوص جعلتهم طرق حياتهم وبيئتهم غير مكتملى الشخصية ولا يمكن اعتبارهم أفرادا لهم القدرة على التصرف والاحساس كالآدميين . ولننتقل مع هذه الشخوص فجأة الى بيئة اخرى أو بلد آخر أكثر ثراء من الناحية العاطفية والروحية وأكثر دفئا وأقرب الى الحضارة البدائية منه الى الحضارة الحديثة . ثم لنقم بتسجيل نتائج هذا الاحتكاك والتأقلم بنوع من الحياد وبنوع من التعاطف والاحساس الذى يبرز المغزى أو الدرس الخلقى والفلسفى بتضميناته العديدة .

وقد أعطانا هنرى جيمس فكرة عن هـــذه الطريقة من قبل وأضاف عليها فورستر طابعه الاجتماعى والثقاق ومصارحة فائقــة قلما تمكن منها هنرى جيمس دون مواربة .

ويمكن تفسير الفكرة المحورية فى هذه القصة وفى غيرها من قصصه على انها سلسلة من الأضداد : الاتصال الوثيق والاندماج الكلى بين الافراد يقابله مجرد الحديث العابر واللقاء السريع ؛ الحب الأساسى الذى يحياه الأفراد يقابله التحالف النفعى والتكاتف لمصلحة معينة ؛ الحقيقة يقابلها الغيرة العشواء والتحيز ؛ الوان الحضارة الغربية الميكانيكية ويقابلها التيارات الحضارية الخفية التى تربط انسانا بآخر ؛ الميثولوجية الطبيعية يقابلها التطبيق الحديث العملى للعلم ، هــذا الى جانب اصراره على ان هذه الأضداد لا تعمل منفردة فى أى حضارة او بيئة فلا الشرق شرق ولا الغرب غرب ولا الخير خير تماما يخلو من الشر ولا الشر شر تماما يخلو من الخــير .

وفى طبعــة حديثة للقصة يظهر على الغلاف صورة لقطع من ظرف خطاب ممزق عليه طابع بريد ايطالى ملغى وعبارة « لم يستدل عليــه » . ويلخص مصمم الغلاف لنا القصة رمزيا . فقد فشلت وسيلة الاتصال أو الربط وتمزقت . وربما تعتبر الصــورة تبسيطا جائرا للقصة التى يحاول فيها فورستر ان يصور حالات يصعب فيها التلاقى أو يكاد يكون مستحيلا . وربما يجد القارىء الآن نوعا من التكرار الممل فى عرض قضيته لا سيما اذا كان قد قرأ الكتب الحديثة فى « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس » لديل كارنجى او حتى قرأ كتابا فى علم النفس يشير الى مشكلة الاغتراب والعزلة والوحدة . ولكن أهمية فورستر ترجع الى انه تنبأ بهذه الظواهر قبل حدوثها ؛ ويصعب علينا أحيانا ان نعترف بأن جذور هذه الازمة فى الأدب الانجليزى ، شعره ونثره ، والتى روج لها لورنس وهكسلى وفيرجينيا وولف وجيمس جويس واليوت ، تمتد الى مجتمع سواستون وتحدث هذه الهزات العنيفة فيه منذ عام ١٨٩٠ . وهــذا زمان قبل زمان « ليوبولد بلوم » وستيفن ديدالوس فى « عوليس » وسبتيموس وارين سميث فى « مسز دالواى » وفيليب كوارلز فى « تقابل الالحان » .

ويختلف الانسان عن الحيوان فى قدرته على استعمال اللغة كوسيلة للاتصال بآخرين . واللغــة كوسيلة فكرية او اداة حضارية ، سواء مقروءة أو مسموعة ، لها فوائد لا تعد ولا تحصى . ولكن هــذه الوسيلة تخفق فى الحالات التى للقلب او النفس فيها دخل فى تجارب ذاتية ، فالكلمات التى نستعملها فى الصلاة أو فى الابتهال الى الله تعتبر كلمات ساذجة فقيرة قاصرة عن التعبير عما فى صدورنا من محبة نحو الله عز وجل . ولا يمكن للمحب أن يعبر عن نفســه او يترجم احساســه العميق أو انفعالاته الا بما توحى به بضع كلمات على بطاقة للتهنئة أو حتى خطاب غرامى طويل . وبالرغم من عجز الكلمات عن تأدية وظيفتها العاطفيــة فى مثل هذه الحالات فلا غنى لنا عنها ولهذا يعتز فورستر بالكلمة المكتوبة والمنطوقة ويقدرها حق قدرها ويقدسها لأنها حلقة الوصل التى يمكن ملاحظتها والرجوع اليها بين انسان وآخر . ويحاول فورستر أن يقوم بدور الواعظ فى القصة ويبسط موعظته فى أسلوب التخاطب بين الناس وان لم يكن أسلوب الاتصــال المباشر أو الفهم او التعاطف . ونجد أفراد الطبقــة الوسطى الأثرياء يحاولون أن يرفعوا من شأن لغــة التخاطب العادية ليجعلوا منها فنا فى حد ذاتها . ولا تعوز الكلمات هذه الطبقة وشخوصه امثال فيليب هيريتون ووالدته واخته هاريت تجيد الكلام ويوحى الينا فورستر فى كثير من المواقف بأنه من الامتهان للكلمات أن نستعملها بهذه الطريقة المبتذلة وأن نستعملها استعمالا سطحيا دون احساس ووزن دقيق لها . ونقرأ فى القصة :

« وتكلم فيليب دون انقطاع ... ولكنه لم يكن يدرى أن جزءا كبيرا من كلامه كان لا طائل تحته . »

ان فكرة الاتصال او الربط أو التلاقى تصل الى ذروتها فى القصة ويتبلور مغزاها الرمزى فى زواج « ليليا » من « جينو كاريلا » . ولقد مهد جو ايطاليا الشاعرى وسحرها وجمالها للتقارب بين هــذه السيدة الانجليزية وهــذا الايطالى البسيط ؛ بين الغنى والفقر ، بين الطبقة الراقية والطبقة

الدنيا ، بين الشمال والجنوب ، بين البـــارد والدافىء ــ حضارتان مختلفتان ، كما يقول فورستر ، تحاولان أن تندمجا وتترابطا وتتصلا . وتبدأ الفوارق والصعاب التى يقابلها كل فرد يحاول أن يخرج من نطاق دائرته الثقافية والحضارية واللغوية فى الاتســـاع حتى يصير لها تضمينات عالمية وانسانية تتعدى حدود ثقافة الفرد الواحد وحضارته . وقد عالج فورستر هذه المشكلة باهتمام زائد فى رائعته « رحلة الى الهند » . وتبـدأ الصعوبات التى تعترض الزوجين فى الظهور والتضخم حتى ينتهى الأمر بينهما ويقول فورستر فى القصـــة :

« كانت المحادثة ــ اذا كان من الممكن أن نسميها « محـــادثة » ــ تدور فى خليط من الانجليزية والايطالية . ولم تلتقط ليليـــا من الايطالية شـــيئا يذكر ، ولم يكن ســنيور كاريلا قد تعلم شيئا من الانجليزية ! » .

وتبدأ الشخوص تدريجيـا فى ادراك وجود روابط أعمق وأقوى من الكلمة المقروءة أو المسموعة ويتحدث « سبيريديونى » مع صديقه جينو عن « لغة الحب » بقوله :

« ان الشخص الذى يفهمنا من أول نظرة ، والذى لا يضـايقنا أبدا ، والذى لا نسأمه اطلاقا ، والذى نستطيع أن نفضى اليه بكل أفكارنا ورغباتنا ، لا عن طريق الكلام فحسب بل عن طريق الصمت ــ هذا هو ما أعنيه بكلمة Simpatico

وهذا الفهم المباشر لا تعوزه الكلمات ، ففى اســتطاعته تخطى حــواجز السن وحواجز الطبقات وحواجز المال . وقد كان فى اســتطاعة « ليزا » فى مسرحية بيجماليون لبرنارد شو مثلا أن تستغنى عن خدمات الأستاذ هيجينز . ويتزايد اهتمام فورستر بهذه المشكلة على مر السنين وتستمر فى شغل ذهنه ، فالخطابات المتفرقة والبطاقات التى يرسلها جينو « لارما » لكى يضيق المسافة بينه وبينها ويقارب فيها بين الحضارتين والبيئتين يحل محلها تبادل الخطابات والبرقيات بين أخوات آل شليجل فى قصته « هواردز اند » أما خطــاب فليدنج للدكتور عزيز فى « رحلة الى الهنـد » ــ ذلك الخطاب الذى نراه فى آخر القصة والذى يخطىء فى تفسير مغزاه محمود على صديق الدكتور عزيز ــ فيباعد بين المرسل والمرسل اليــه وتكون النتيجة اتساع الهوة بين الاثنين . ولكن بالرغم من معالجته لمشكلة الاتصال بتضميناتها المختلفة فى قصصه الأخرى الا أننا لا نجد عرضا دقيقا لهذه التضمينات الا فى قصته الأولى .



ويرى فورستر مع غيره من كتاب القرن العشرين التناقض فى « التقدم » العلمى الحديث ، فمع تطور وسائل النقل والمواصلات وتقدمها من سكك حديدية وتلغراف وتليفون يظهر التناقض فى تباعد الفرد من فرد آخر فتقريب المسافات قد زاد من المسافة بين الفرد والفرد (وقد عبر فورستر عن هـــذا أروع تعبير فى قصة قصيرة له بعنوان « عندما تتوقف الآلة ») . فقد ساعدت المخترعات الحديثة من راديو وتلفزيون وجرائد يومية ومجلات من التغلب على الزمان والمكان ولكنها فشلت فى انماء وتحقيق العلاقات الانسانية . ويدفع الفزع من « العالم الجديد الشجاع » فورستر الى خلق شخصية جينو ، فحجرته تسيطر على أثاثها ومحتوياتها الفوضى بعكس حجرة الاستقبال فى منزل هيريتون ويضيف فورستر : « ولكنها الفوضى التى تأتى نتيجة للحياة ، لا كنتيجة للحزن والكآبة . » وتدهش كارولين عندما تنظر الى طفل جينو ــ طفل حقيقى من صلب أبيه ــ ينام فى سلام على بساط قذر .

ويظهر أثر الآلة فى القصـــة من آن لآخر وترمز السيارة الى عريضة الدعوى ضد هذه الحضارة الميكانيكية ؛ فلدينا مس ديريك فى « رحــلة الى الهند » ، شخصية مزعجة تعكر صفو الجو وتقلق من حولها كل مرة تظهر بســـيارتها ، ولكن فورستر يدخر هجومه على الآلات الميكانيكية لقصـــته « هواردز اند » حيث بين أن فى اســتطاعة انجلترا أن تضحى بالآلة فى ســـبيل حيـــاة أكمل وأفضل .

وفى القصة يعالج فورستر الحب على مستويات مختلفة : حسب الأم (ليليا ومسز هيريتون) والحب الروحى (كارولين ابوت) ، والحب الجنسى (ليليا وجينو) والحب الابوى (جينو) وفقدان الحب (فيليب) والحب الفاسد (هاريت) . فمعظم أفراد مجتمع سواستون يبحثون دون وعى منهم عن الحب فى ايطاليا ، تلك العاطفة التى حرمتهم منها الحيـــاة المحافظة فى انجلترا . وتفشل هاريت فى الحب تماما لأن قلبها كان قد تحجر بعد أن تمكنت منه عادات سواستون العقيمة . ويعيش فيليب وكارولين لسوء حظهما حياة برمائية . ويؤثر جو ايطاليا الساحر عليهما ويعودان الى انجلترا بعد هذه المغامرة التى سيكون لهـــا اثرها فى مستقبل حياتهما ، فقـــد حرص فورستر على أن يجعل للقصـــة خاتمة ســـارة .

ومن عادة فورستر ألا يعطى القارىء جوابا شافيا أو علاجا ناجعا ، فهو يشجع شخوصه على التمسك بالحقيقة ولكنه لا يحرمهم من الانغماس أحيانا فى ملذات الخداع . فهو لا يحاول أن يرى الأشياء بيضاء او سوداء فمجتمع « سواستون » مجتمع ميت من الناحية العاطفية ولكنه مجتمع نظيف مؤدب مريح . ولا يخفى فورستر اعجابه بايطاليا ولكنه لا يتحيز لها ولا يحاول أن يخفى عيوبها من همجية وفوضى .

اطول رحلة ١٩٠٧ The Longest Journey

تعتبر هذه القصة نوعا من القصص الذهنى وتهتم بنقد الحياة أكثر من اهتمامها بتصويرها ومعظم شخوصها من الصنف « الشاطر » . ويدور الصراع فى القصة بين الزوج وهو شاب عقلانى والزوجة وهى سيدة ضيقة الأفق ترمز الى العالم بقيمه المادية . وفى القصة يتحدث فورستر عن دور الجامعة فى حياة الفرد : « انى أرثى لهؤلاء الذين لم يذهبوا الى كمبردج ، لا لأن الجامعـــة مكان أنيق ، ولكن تلك السنوات كانت ساحرة . واذا حالفك الحظ كان فى استطاعتك أن ترى هناك ما لم تره من قبل وربما لا تراه ثانية . هذه هى الحقيقة . ان هذه التجربة التى تكشف عن « الحياة الطيبة » ـ حياة خالية من الكفاح المرير والطموح ـ تعطى للذة وحلاوة للحياة وتضفى عليها مغزى لا يعرفه هؤلاء الذين لا يستطيعون ممارستها . »

حجرة تطل على منظر ١٩٠٨ A Room with a View

يدور الصراع فى هذه القصة فى نزل أو « بنسيون » فى ايطاليا ، فتصل لوسى مع شارلوت ابنة عمها وهى متحفظة للغاية ، فنظرتها للحياة ضيقة تحدها التقاليد الانجليزية من جانب ومن جانب آخر يحدها تقديسها للتأدب والحشمة . ووجدت السيدتان ان صاحب « البنسيون » قد فشل فى حجز حجرتين مناسبتين لهما بمنظر لطيف . وتثور شـــارلوت عندما يقترح مستر « اميرسون » أن تأخذ السيدتان الحجرتين المخصصتين له ولابنه بدلا من حجرتيهما . ويصور لنا فورستر الصراع الذى ينشأ فى نفس لوسى التى تجد نفسها فجأة مسرحا لقوى متضاربة ، فهى لا تريد أن تغضب شارلوت وفى الوقت نفسه لا تريد ان تجرح شعور جورج اميرسون الذى كانت قد بدأت تشعر نحوه بعاطفة وتستسلم فى النهاية للتقاليد . « وانضمت أخيرا الى الجيش العظيم من الذين يعيشون فى ظلام ولا يسيرون خلف العقل او القلب ، بل يسيرون الى غاياتهم وفقُ كلمات معينـــة . وهؤلاء هم الذين استســـلموا للعـــدو فى داخلهم . »

هواردز اند ١٩١٠ Howards End

ان حياة الفنان ، سواء رضينا أو لم نرض ، تقحم نفسها فى تقيمنا للعمل الادبى بالرغم من انه فى تقيمنا له يجب علينا ان نعنى بالعمل ذاته . ولكن هذا لا يحدث بهذه السهولة فالبرغم من اننـــا نعتبر حياة الفنان امرا خارجا عن نطاق انتاجه الادبى الا أننا ، دون وعى منا ، ندع ما نعرفه عن حياته يؤثر فى حكمنا على عمله . فنحن دائما نحس بوجـــود الاديب خلف العمـــل الادبى ؛ لا عن طريق

ما نستشفه من العمل الادبى ولكن عن طريق الحقائق والمعلومات التى نجمعها عن حياته الخاصة . وتعتبر « هواردز اند » تحفة فورستر اذا استثنينا قصته « رحلة الى الهند » ففيها تتطور افكاره وتنمو .

وتعتبر « هواردز اند » حلقة أخرى من حلقات الصراع بين العالمين ، ففى أحدهما تنمو الشخصية وتكتمل وفى الآخر تذبل من جراء الكبت وتذوى . فنرى صراعا بين العقل والروح من جانب وحياة المال والعمل من جانب آخر . ويقابل أفراد عائلة شليجل المثقفون افراد عائلة ديلكوكس أصحاب المال ويدرك الجميع فى النهاية أنه لا بد للعالم من ان يضم عديدا من الانواع . ويرى فورستر خيوط نسيج الحياة تتداخل وتتعقد أمامه ، فهناك اختلاط وتشوش واسرار ، وليس هناك شىء أسود او ابيض ، او صواب مطلق او خطأ مطلق ومن يريد أن يتجنب الخداع يجب عليه الا يؤمن بشىء ايمانا مطلقا فكل شىء موجود فى الحياة ولكن لا لشىء قيمة مطلقة .

تبدو انجلترا فى القصة فى حالة اضطراب وتتحرك القصة رمزيا لا عن طريق التنافر بين الشخوص فحسب بل لوجود زواج وسيمفونيه ومكتبة عامرة بالكتب وسيارة صاخبة وشجرة وارفة الظلال ومنزل قديم . ورمز انجلترا هو المنزل العتيق الذى استوحى من اسمه فورستر عنوان قصته : « هواردز اند » . والسؤال الذى يطرحه فورستر للبحث هو : لمن سيؤول المنزل ؟ من الذى سيرث انجلترا ؟ والصراع ليس بين طبقتين ولكن بين أفراد ينتمون الى طبقة واحدة : الطبقة المتوسطة . ولا نرى فى القصة اثرا للأرستقراطية ولا للفقراء وكما يقول فورستر : « نحن لا نهتم بالفقراء ولا يهمنا التفكير فيهم . ولا يمكن الا للأخصائى او الشاعر أن يهتم بهم . » هذه القصة تعالج الناس الطيبين ، أو هؤلاء الذين يضطرون الى التظاهر بأنهم طيبون . » فلدينا « ليونارد باست » فى طرف هذه المجموعة ويقف على حافة الفقر وفى الطرف الآخر يقف مستر ويلكوكس الغنى الذى يزداد ثراؤه باستمرار . وبينهما آل شليجل : مارجريت وهيلين ، تعيشان عيشة رغدة من دخل ثابت محترم . وآل شليجل يمثلون الذكاء والعقل والادراك والوعى فى القصة ومن طريقهم تتفتح القصة امامنا ، فهم بؤرة تلاق ومركز للتماس والربط بين طرفى الطبقة المتوسطة : الأغنياء والفقراء نسبيا . ولكن الشخصية التى تسيطر على القصة لا تنتمى الى احدى هاتين المجموعتين وهى مسز ويلكوكس التى وان كانت زوجة لرب الأسرة الا أنها تتركها ، ولاسمها المفرى ايحاءات كثيرة فى العهد القديم ــ راعوث أو روث . ولا يقتصر الصراع فى القصة على صراع بين أفرادها بل يتعداه الى صراع بين الرجل والمرأة . فتستجيب مارجريت شليجل الى فحولة آل ويلكوكس ومثابرتهم على العمل وتتزوج هنرى ويلكوكس ، وتقع هيلين شليجل فى حب بول ويلكوكس ولكنها تتركه عندما تكتشف انه جبان .



والقصة محاولة جريئة للتعبير عن فلسفة الفكر الحر وفيها يحاول فورستر ان ينظم اجزاء الحياة المبعثرة التى يجدها امامه . وقد نجح فى أن يضع انجلترا تحت مجهر قوى ويعزل المرض الذى ينخر فى عظامها ويمتص حيويتها وحيوية أهلها . وربما لا يكون العلاج الذى وضعه فورستر لمواطنيه علاجا شافيا ولكن ما يدعونا للاعجاب به هو تشخيصه للداء بكل دقة وأمانة . ويمكن وصف هذا المرض بأنه « نقص فى التناسب » . وقد تصبح انجلترا أحسن حالا وقد تبرأ من مرضها اذا عاد اليها التكافؤ والتوازن فى العلاقات الانسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكذلك فى التوازن بين الفكر والعمل بين الأفراد ، وفى التوازن بين الآلات والناس واخيرا فى اتحاد الجسد وتكافئه مع الروح . واذا وجدنا أن فورستر يطالبنا فى هذه القصة بالشىء الكثير ان لم يكن بالشىء العسير فلنقرأ سطرين أو ثلاثة من مقال له بعنوان « ما اومن به » What I believe لنرى الضرورة الملحة فى طلبه ولنبين ايمانه العميق بامكانية تحقيق حلمه : « **لا عن طريق تقدمه بل عن طريق تنظيم الخير وتوزيعه فى نفسه سيتمكن الانسان من حبس العنف فى صندوقه ، وهكذا سيكون لديه الوقت لاستكشاف العالم وترك اثره فيه بجدارة .** »

ولا يوجد شخص شرير فى القصة التى تعالج أنماطا عديدة من الشعب الانجليزى تبدأ من « جاكى » السوقى الذى تعلم من الحياة فى الشارع الى مستر ويلكوكس الثرى البارز فى المجتمع . وحتى تشارلز الذى يزج به فى السجن لجريمة ارتكبها لا يعتبر مذنبا بقدر ما أذنب المجتمع فى حقه . والشىء المعوج المنحرف فى هـــذه الشخوص هو نظرتهم للحيـــاة أو كما يقول ماثيو آرنولد : « القـدرة على النظر الى الحياة بتأن والنظر اليها نظرة شـــاملة . » فاذا نظرنا الى الحياة بهذه الطريقة ، برأى شريف وبقلب طيب ، فيجب أن تبتسم الحياة فى وجوهنا وتشرق وتتحسن .

وعند فورستر توجـد مجموعة من الشخوص تقف خارج دائرة هـــذا الصراع ، شخوص لا ترى الحقيقة ولا تدركها عقليـــا ولكنها « تحس » بها . فالحقيقة عندها احساس ، يدركونها بالوجدان والحدس ، ويفيض اثر هذه الشخوص على الناس من حولها ولكنها لا تشترك فى الاصلاح أو الصراع . وعادة ما تكون هذه الشخوص فى متوسط العمر أمثال مستر اميرسون فى « حجرة ذات منظر » ومسز مور فى « رحلة الى الهنـــد » ومسز ويلكوكس فى هـــذه القصة . وهـذه الشخوص تشبه شخوص فيرجينيا وولف أمثال مسز رامزاى فى « الى الفنار » ومسز دالواى فى « مسز دالواى » . وهذه الشخوص هى التى يفيض حبها وعطفها ليشمل الناس جميعا حتى الطيور والأشجار والحيوانات ولكنهم سلبيون ووظيفتهم فى القصة كوظيفة « الوسيط الكيميائى » Catalysis فى علم الكيمياء ، وهى المادة التى تؤثر فى مادة أخرى وتغيرها دون أن تتغير هى . وفى « هواردز اند » تلعب مسز ويلكوكس هذا الدور ثم تموت وتحل مارجريت شليجل محلها . وقد حققت مسز ويلكوكس قبل وفاتها هـذا التوازن تلقائيا دون جهد مقصود وهى مرتبة عالية من الحكمة يتمتع بها الحكماء . وقد تكون قبضة هـذه الشخوص وسيطرتها على الحياة قصيرة ـ فقد كان مستر امرسون يحتضر ، ومسز ويلكوكس تموت قبل نهاية القصة ـ الا أن سيطرتها على الآخرين تستمر ويمتد أثرها حتى بعد موتها ، ويتم هذا الأثر الفعال عن طريق طاقاتها الحيوية . فمسز ويلكوكس جزء من الطبيعة ذاتها (كما فى مسز رامزاى ومسز دالواى) وتنتشر شخصيتها وأثرها فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل وتشع اشعاعاتها فى كل الاتجاهات كما تشارك الشجرة الضخمة التى يستظل بها المنزل والتى توجد فى وسط الحشائش فى العلو والتسامى . ونقرأ عنها فى القصة : « واقتربت ، كانت تسير بقير **جلبة فوق المرجة ، وكان هناك حقيقة حزمة من القش فى يدها . كان يبدو أنها لا تنتمى الى الجيل الجديد وسيارتهم ، بل تنتمى الى المنزل والى الشـــجرة التى كانت تظلل المنزل . كان الانســـان يدرك أنها تقدس المـاضى وأن الحكمة الفرزية التى لا يمنحها الا الماضى قد آلت اليها ...** » .

فقد كانت علاقاتها علاقات غرزية تخلو من معوقات الحضـــارة الحديثـة . فهى مثلا لا تقول : « ان الشاب قد فسخ الخطبة » بل تقول : « انه قد كف عن حبها . » وعندما تتحدث لا يشغلها حديثها عن الانحنـاء الى الأرض الخضراء لتشم زهرة . وعندما تكون وسط الناس يبدو أنها تحس بأفكارهم قبل أن ينطقوا بهـــا . وعندما تجىء ساعتها ويحين أجلها نتأكد من قداستها » من الضوء الذى ينبعث من المدفئة ، ومن النافذة ، ومن الشمعة فى المصباح وقد ألقوا بهالة مرتجفة من النور حول يديها . » ولا تهتم مسز ويلكوكس بالمســـائل العقلية أو بالأمور المعقدة عادة : « كان التحدث بلباقة يزعجها ويضعف خيالها الرقيق ، كانت حزمة من القش ، وردة . » وبالرغم من أننـــا نقرأ عن وفاتها فى الربع الأول من القصـــة الا أن أثرها وروحها تظل ترفرف على القصة كلها وعندما تترك منزلها الريفى بعـــد وفاتها لمارجريت شليجل فهى تؤكد لنا استمرارها المادى فى حبكة القصة حتى نهايتهـــا .

وتتحدث مارجريت بلســـان فورستر فى القصـــة لان مسز ويلكوكس تؤثر الصمت وعندما فقدت مسز ويلكوكس صوتها وهى على فراش الموت ظلت ترمز الى جوهر الأمومة وبدت أكثر وأعظم من شخصية فى قصة . والمرأة التى تورثهـــا مسز ويلكوكس منزلها ووشـــاحها وسلطتها الروحية لا تشبه كثيرا

من احسنت اليها ، فهى شخصية حقيقية . وقد أحسنت مسز ويلكوكس الاختيار لأن مارجريت كانت متقدمة على اقرانها من الشخوص الأخرى فى طريق تكامل الشخصية التى أوردها فورستر . وبينما تظل مسز ويلكوكس فى قمة السكينونة ترمز مارجريت الى امكانيات الصيرورة ، فهى تنشد التكافؤ الناجح ولكنها انسانة مع ذلك .

ان طريق الفهم والتعاطف طريق صعب محفوف بالأخطار بالنسبة لمارجريت . فهناك اعتبارات طبقية ومادية تعطل سعى الحاج نحو هدفه . والعبارة التى يقتبسها فورستر ويضعها تحت عنوان قصته هى « الوصل لا غير ... » Only Connect وتبدو مارجريت أحيانا وقد أصابها الاحباط لادراكها أن الامر ليس بالسهولة التى تتصورها . فقد كانت تؤمن وأختها هيلين بأهمية الاتصال البشرى عن طريق الحب والصداقة ولكن ايمانها بدأ يتزعزع بعد معرفتهما لآل ويلكوكس . وعائلة ويلكوكس تمثل المال والتجارة والطابع المادى الدينامى والحركة الخارجية وكلها أنواع من النشاط الذى لا يعبأ بالتعاطف أو الحب أو الاتصال الوثيق . ويلخص لنا فورستر هذه الفكرة المحورية بطريقة موحية فى سلسلة من « البرقيات والغضب » . ولكن هذه الحياة القوية تغرى مارجريت ويكون لها اثرها فى تقدمها الروحى ، وتقول لأختها :

« الحقيقة هى أن هناك حياة عظيمة خارجية لم نلمسها ، أنا وانت (هيلين) ـ حياة للبرقيات والغضب فيها أهمية قصوى . والعلاقات الشخصية التى نضعها فى أعلى مرتبة ليست فى أعلى مرتبة هناك . فالحب هناك يعنى مهر الزواج ، والموت يعنى مراسيم الدفن . والى هنا اعتقد انى واضحة . ولكنى أواجه صعوبة : هذه الحياة الخارجية ، ولو أنها من الواضح فظيعة ، تبدو غالبا وكأنها الحياة الحقيقية ـ ففيها صلابة . فهى فعلا تنمى الشخصية . ولكن هل تفضى العلاقات الشخصية الى شىء مقزز فى النهاية ؟ » .

وقد تكون مارجريت قد تمكنت من التغاضى عن هوة الحياة الخارجية ولكنها لم تحقق بعد هذا التوازن ، ولن تجد ما تبحث عنه فيما تقدمه لها هيلين بنوع من الاغراء .

« انى أنوى أن أحبك أكثر من ذى قبل . نعم ، انى أحبك . فقد شيدت وانت شيئا حقيقيا ، وهذا الشىء روحى محض . وليس هناك ستار من الغموض بيننا . فالخداع والغموض يبدآن عندما يلمس الانسان الجسد ... ان ما يهمنا يوجد فوق الأشياء الملموسة ، المال ، الأزواج ، والسعى وراء منزل . ولكن سعادة الفردوس سوف تظهر تلقائيا . »



وتفكر مارجريت وتجيب بلسان فورستر :

« كانت تشعر ان هناك شيئا قليلا من عدم الاتزان فى عقل يقطع أوصال ما نراه بهذه السهولة . فرجل الأعمال الذى يعتبر هذه الحياة وكأنها كل شىء ، والمتصوف الذى يؤكد انها لا شىء ، يفشلان فى هذا الاعتقاد أو ذاك ، فى اصابة الحقيقة ... والحقيقة كان يمكن العثور عليها عن طريق رحلات مستمرة الى كل من العالمين . »

وعندما تقترب القصة من نهايتها تدرك مارجريت « ان الحياة عميقة ، كنهر عميق ، والموت سماء زرقاء ، كانت الحياة منزل ، والموت حزمة من القش ، أو زهرة ، أو برج ، والحياة والموت كل شىء ولا شىء ، ما عدا هذا الجنون المنظم ... وهناك روابط حقيقية فيما وراء الحدود التى تقيدنا الآن . » وتدرك مارجريت ان العالم لابد له من كل شىء فى توازن مناسب ، وهذا التوازن ، وقد ادركت مغزاه الآن ، هو أساس ما تتفوه به لزوجها : « فقد كان لابد من أن تتفوه به مرة واحدة فى حياتها لتقوم الاعوجاج فى العالم . » ويصبح مستر ويلكوكس جمهورها ، لأن فورستر ، عن طريق مارجريت يتعداه الى غيره ممن هم على شاكلته . وأخطر اتهام توجهه اليه هو أنه رفض أن يوطد صلاته بآخرين .

وتزخر القصة بهذه الاحكام التى قد تكون موضوع مناقشات ومناظرات فلسفية ، ويبقى الآن طريقة

عرضها من الناحية الفنيه والجمالية فى قصه . فاذا كانت ملكية « هواردز اند » تعنى انجلترا ذاتها كما يقول « ليونيل تريلنج » بطريقة مقنعة فى كتابه عن فورستر ، فهذا يعنى أن ملكية المنزل قد انتقلت من مسز ويلكوكس التى تمثل ادم العظيمة الى مارجريت شليجل التى ولدت فى محيط أرستقراطية الثقافة الجديدة والاحساس المرهف النقى و للذكاء والمال والديموقراطية الليبرالية . وانتقال ملكية المنزل اليها لم يكن سهلا لأن آل ويلكوكس بما لهم من خبرة فى عالم المال والتجارة يتحايلون على التوريث بحيل قانونية . ويمتد أثر مسز ويلكوكس وقدرتها حتى وهى فى قبرها وتسير الأمور بعناد [illegible] حتى تصل الى نهاية القصة وتصبح مارجريت سيدة هواردز اند . وطريقة مارجريت فى ادارة شئون المنزل ترمز الى مستقبل انجلترا كما يتخيله فورستر . فلا زال مستر ويلكوكس يعيش فى المنزل ولكنه اصبح رجلا مريضا وقد انتقلت السلطة من يده الى يد زوجته .

ويعتبر الابن غير الشرعى من هيلين شليجل وليونارد باست جزءا من التراث وهو نتاج طبقتين وفى المستقبل سيصبح الجميع احرارا وسيكون للطبقة العاملة دور فعال فى السياسة الى جوار الدور الذى يقوم به المتعلمون وأفراد الطبقة المتوسطة التى ستحل محل الراسمالية الارستقراطية التى ينقصها الحب والعطف وطريقة لتوطيد الروابط خلاف « البرقيات والغضب . »

وعندما أطلق فورستر على قصته « هواردز اند » فهو يوحى الينا بأهمية الرمز وبأهمية المعنى الذى يعلقه على هذا المنزل الريفى . وفى طبعة حديثة لدار بنجوين حرص مصمم الغلاف على ابراز هذه الرموز فوضع السيارة فى أمامية الصورة ووضع المنزل الريفى فى خلفيتها وبجواره الشجرة العتيقة التى يستظل بها المنزل . وفى هذا المنزل الريفى نرى الجذور الطبيعية والاستقرار والجمال — وكلها ينابيع الحضارة الانجليزية القديمة . فالأختان مارجريت وهيلين من أصل انجلو جرمانى وتمثلان الارستقراطية الحضرية الجديدة التى تتركز فى لندن والتى تعتمد على العقل . ولكى يبرز فورستر الفكرة الأساسية وهى أن انجلترا وطن قبل كل شىء وليست مكانا لبناء المنازل يقول : « لقد ظهر هذا البناء الى حيز الوجود ، وذلك مقضى عليه . واليوم قد تغيرت هوايته هول : وسيحل الدور على شارع ريجينت غدا . وشهر بعد شهر أخذت رائحة البترول تفوح من الشوارع بشدة واصبح من العسير عبورها . واخذ الناس يستمعون بصعوبة الى بعضهم وهم يتكلمون ، واخذوا يستنشقون هواء يقل عن ذى قبل ، وشاهدوا السماء تنكمش رويدا رويدا ، وانكمشت الطبيعة : كانت أوراق الأشجار تتساقط فى منتصف الصيف ؛ واشرقت الشمس من خلال سماء ملبدة بالدخان القذر . »

ويقترب فورستر فى حبه للطبيعة من وردزورث فى أجزاء من القصة ، وفى أجزاء اخرى ينظر الى قضيته من بعيد مثل جويس .

ويموت ليونارد باست ويوحى الينا فورستر بأن المنزل سيؤول الى ابنه فى المدى الطويل . وفى الوقت الحاضر يحاول مستر ويلكوكس أن يدخل المنزل ولكنه يسأل « من معه المفتاح » ولا يجد جوابا . وتدفع مارجريت باب المنزل بيدها بكل بساطة وتدخل فقد كان مقدرا لها أن ترث المنزل والأرض من حوله والشجرة التى تعتبر جزءا من المنزل . ويتضح لنا ما ستفعله مارجريت بالمنزل وبانجلترا من طريقة ادارتها لشئون المنزل فى نهاية القصة .

وينظر فورستر الى الالة على انها رمز للحركة الدائبة والتقدم المادى ، ويرى ان هذا التقدم لابد أن يصاحبه تقدم مماثل فى الحب والشفقة لان من يسرعون لا يستطيعون تأمل الحياة فى اناة ورؤيتها رؤية كاملة . والسرعة من أجل السرعة دون حساب الاتجاه والهدف شىء خطر بل شر . وتشعر مارجريت بهذا : « انى اكره هذا التغير المستمر فى لندن . انه خلاصة حياتنا ونحن فى أسوأ حال — فوضى دائمة . وكل الخصال ، الخير والشر واللامبالاة فى حركة تدفق — تسيل ، تسيل الى الأبد » .

ويعتبر مستر ويلكوكس ، عبقرى المال والتجارة ، هو المسئول الأول عن هذه الحركة الدائبة . « كان هنرى يتحرك دائما ، ويدفع الآخرين للتحرك ، حتى تقابلت أطراف الأرض . » وتعتمد شركته

على المطاط فى « الامبراطورية » وتؤثر هذه الحركة الجنونية على مسز ويلكوكس قبل وفاتها فتراها مارجريت وهى تصعد فى مصعد : « وعندما أغلق الباب الزجاجى للمصعد على مسز ويلكوكس احست انها كالمسجونة ... امرأة قل ان يوجد مثلها كانت فى طريقهـا الى السماء كمينة فى زجاجة ، والى أى سماء ـ قبة كقبة الجحيم ، سوداء كالهباب ، ويتساقط منها الهباب . » ويرمز فورستر الى الآلية فى انجلترا بالسيارة التى تتخذ الشخوص مواقف مختلفة . فمنهم من يتحمس لها ومنهم من يكرهها . وشخوصه التى تتعاطف مع السيارة هى التى تحبذ الآلية مثل تشارلز الذى يعنى بسيارته أكثر من عنايتـه بالآدميين من حوله ويقودها بسرعة فائقة دون أن يصل الى شىء ودون أن نعرف غايته . ولهذا يصور لنا فورستر مسز ويلكوكس كسيدة لا يعنيها من أمر السيارة شىء « كان يبدو أنهـا لا تنتمى الى الجيل الجديد ولا للسيارة ، بل للمنزل ... » ونراها فى منظر تشاهد فيه تشارلز « الذى كان لازال واقفا فى سيارته الكريهة وهى تهتز » ثم تحول بصرها بعيدا منه الى أزهارها . ومارجريت ، التى ترث مسز ويلكوكس ، تكره السيارة ولا تستعملها .

يعبر فورستر عن آرائه فى هـذه القصة بنوع من الاتزان والحكمة وسعة الصدر ، فهو يعلم جيدا ويعترف ان الحياة معقدة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وبالرغم من توفر حسن النية والصدق فان توطيد العلاقات يصبح ممكنا اذا توفرت « العملة » ، وكما يقول جورج أورويل بعده بربع قرن من الزمان : « ان روح العالم هى الاقتصاد ، واحقر هوة ليست عدم وجود الحب ، بل عـدم وجـود العملة . » ولكن مجرد الحصول على العملة لا يكفى لرفع النـاس الى مستوى بطولى .



يقول ليونيل تريلنج اننـا لا نجد الا قلة من الرجال الاقوياء فى قصص فورستر ولذلك تعتمد انجلترا على النساء فى بناء مستقبلها . وفى هواردز اند يشل فورستر حركة معظم الرجال ، فنجـد تشارلز فى السجن ، ويموت ليونارد باست ، وويلكوكس مريض ، وتصبح الامور فى يد مارجريت وهيلين كما كانت من قبل فى يد مسز ويلكوكس . وفى القصة يخيل الينا أن فورستر لا يدرى كيف سيكون عليه الحال فى المستقبل ويحاول أن يجعل القارىء يشاركه هـذا الشعور .

رحلة الى الهند ١٩٢٤ A Passage to India

ما ان نصل الى قصته « رحلة الى الهند » الا ونجد فورستر قد نال الشهرة التى كان يستحقها وكان الوقت كذلك مواتيا لنشر كتاب مثل هذا الكتاب . وكان فورستر قد انتهى من كتابة الجزء الأخير بعد عودته من الهند فى عام ١٩١٢ . وتقع حوادث القصة قبل الحرب العالمية الاولى ونشرها فورستر بعد أن كان حماس « كيبلنج » قد فتر للامبراطورية وكانت الديموقراطية فى انجلترا قد بدأت تعطف على الهند . وفى أمريكا أثنى النقاد على القصـة على انها ادانة للحكم البريطانى فى الهند ، وفى انجلترا أصبحت القصة سلاحا تهكميا فى يدى الذين كانوا يريدون السخرية من الطبقة الحاكمة وخريجى المدارس الخاصة ، ومن السياسة البريطانية بوجه عام .

ويظهر بعد نظر فورستر وما تنبأ به فى القصة فى نهايتها :

« الهند أمه ! ياله من تمجيد ! انها الوافد الأخير الى عصبة أمم القرن التاسع عشر النكراء ! تسير مترنحة فى هـذه الساعة من العالم لتحتل مقعدها ! هى ، تلك التى لم يكن لها من نظير سوى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، سوف تقف مع جواتيمالا على قدم المساواة ، وربما مع بلجيكا ! كان « فيلدنج » يسخر ثانية . وأخذ عزيز يهتز فى اتجاهات مختلفة ، وقد تملكته ثورة عاتية ، غير مدرك لما ينبغى أن يعمل . وصاح : « ليسقط الانجليز على كل حال . هـذا مؤكد . اغربوا عنـا يا سادة ، وضاعفوا سرعتكم . اننا قد نكره بعضنا البعض ، ولكن كراهيتنا لكم لا يفوقها شىء . فان لم أرغمكم انا على الرحيل ، فسيفعل ذلك أحمـد أو سيفعله كريم . سوف نتخلص منكم حتى

وان مضت خمسمائة سنة مضاعفة خمسين مرة . اجل ، سوف نلقى بكل انجليزى لعين الى البحر ، وعندئذ » ـ واتجه بجواده نحوه منفعلا ـ « وعندئذ » وانهى كلامه وهو يكاد يقبله « سوف نصبح أنت وانا صديقين » .

فقال الاخر وهو يمسك به فى حرارة « ولم لا نكون أصدقاء من الآن ؟ ان هـــذا ما أريده أنا ، وهـــذا ما تريده أنت » .

لقد اقتبس فورستر عنوان قصته من قصيدة بهذا العنوان للشاعر الأمريكى « والت ويتمان » وكان شاعرا متصوفا . ويتكون هيكل القصة من الصراع والفروق بين ثلاث حضارات ـ الحضارة الغربية المسيحية والحضـــارة الهندية والحضارة الاسلامية فى الهند . ويمكن تقسيم الشخصيات الى ثلاث انماط : المسلم العـــاطفى الطيب والهندوكى المتصوف والانجليزى المسيحى . وربما كان الدكتور عزيز يمثل الرجل المسلم الشرقى بما فيـــه من عيوب ومحاسن ولكنه يتسامى بحضارته ويتعداها وكذلك الحال مع جودبول وفيلدنج ؛ فكل شخص يحاول قدر استطاعته وفى حدود حضارته التى نشأ فيها وما لها من دلالات وتضمينات ان يتصل بآخرين أبناء حضارة اخرى . وتعكس القصة كل هذه المحاولات فى أسلوب واقعى رائع .

وحبكة القصة بســيطة وهى الاعتقاد بأن الدكتور عزيز قد اعتدى على فتاة انجليزية فى كهف من كهوف مارابار . وتقوم زوبعة فى شاندرابور ويصور لنا فورستر الصراع والتحيز والتخرب والحقد والتفريق العنصرى فى سلسلة من المناظر السريعة التى تظهر فيها الشخوص على حقيقتها عندما تعرضت لهـــذه الازمة فترى سوء تطبيق العـــدالة والهيستيريا الجماعية التى تأخذ بعقل الشخوص وتجعل من الصعب التوفيق بين وجهات النظر المختلفة . ولكن العطف والذكاء والحب يستطيعون فى النهـــاية التغلب على هذه العقبات ، وينقسم الأوربيون الى قسمين ، غلاظ القلوب فى جانب ويمثلهم الرائد كالندر وروني هيسلوب وقد أعماهم التحيز ضد المواطنين ، وفى الجانب الاخر يقف فيلدنج الذى كان يؤمن ببراءة الدكتور عزيز من هذا الاتهام . أما مسز مور ـ وهى تشبه الى حـــد ما مسز ويلكوكس فى « هواردز اند » ـ فتترك الهنـــد قبل أن تستمع المحكمة الى القضية وتموت على ظهر السفينة فى البحر بين الشرق والغرب . فلا هى قد وصلت الى انجلترا أو بقيت فى الهند لتؤدى دورها فى التقريب بين الحضارتين ويتحول اسمها فيما بعـــد الى أسطورة يرددها الشعب فى كلمة « ازمور » .

وتعتبر مسز مور من زاوية اخرى أهم شخصية فى القصة لتعاطفها مع المسلمين والهنود ويظهر هـــذا التعاطف فى محادثتها فى المسجد مع الدكتور عزيز . وتمر بأحرج لحظات حياتها عندما تهزها التجربة التى مرت بها فى كهوف مارابار .

« كلا ، انها لم تكن ترغب فى تكرار التجربة . وكلما ازدادت تفكيرا فيها ، غدت فى نظرها أفظع وارهب . لقد أصبحت الآن تضيق بها أكثر مما كانت وقت أن مرت بها . فقد كان فى وسعها أن تنسى الصدمة والرائحـــة ، أما الصدى فقد بدأ يهدم تعلقها بالحياة على نحو لا تستطيع وصفه . ذلك لان هـــذا الصـــدى الذى أتى فى وقت تصـــادف فيه أن أحست بالتعب كان يهمس فى أذنهـــا « ان العطف ، والشفقة ، والشجاعة ، كلها موجودة ، ولكنها جميعا سواء . وكذلك القذارة . ان كل شىء موجود ، وليست هناك قيمة لأى شىء . » ولو كان المرء قد نطق أقذع الألفاظ فى ذلك المكان ، أو انشد شعرا رفيعا ، لأتاه رد واحد لا يتغير هو « أو ـ بوم » . ولو كان قد تحـــدث بلسان الملائكة ودافع عن كل ما فى العالم الحاضر والماضى والمستقبل من تعاسة وسوء تفاهم ، وعن كل بؤس يجب أن يعانيـــه الناس مهما كانت اراؤهم ومراكزهم ، ومهما حاولوا أن يتهربوا منـــه او يتجنبوه ـ لو كان قد فعل ذلك لانتهى الى نفس النتيجة ... ولكن فجأة ، وفى طرف ذهنها ،

ظهرت العقيدة ، العقيدة المسيحية المسكينة الصغيرة الثرثارة ، وأدركت أن كل عباراتها المقدسة من « ليكن نور » حتى « قد أكمل » ، كل هذه لم تكن تؤدى الا الى « بوم ».

وهنا أحست بخوف أوسع نطاقا من المعتـــاد . ان الكون الذى لم يفهمه عقلها أبدا ، لا يمنح روحها الراحة التى تنشـــدها ... وأدركت أنهـا لا تريد أن تكتب لأولادها ، ولا تريد أن تتصل بأحد ، حتى بالله ذاته . »

ولكلمة « رحلة » فى عنوان القصـــة مغزاها ، فهى محاولة أخرى للربط والاتصال وهى همزة الوصل بين طريقة فى الحياة واخرى ، بين الغرب والشرق ، بين القلب الانسانى فى صراعه مع الأداة الحكومية المستعمرة وبين الحرية والاستقلال . والقصة بالاضافة الى هذا كله صورة صوفية رمزية للحياة والموت والعلاقات الانسانية . واذا كان هناك غموض فى القصة فهذا يرجع الى طموح فورستر واتساع رقعة اهتمامه ويوضح فورستر موقفه وموقف الغربيين من الهند فى العبارة التالية :



« كيف يستطيع العقل أن يفهم بلادا كهذه ؟ لقد حاولت أجيال الغزاة أن تفهمها ، ولكنها ظلت نائية عنهـــا . فما كانت المدن الهادمة التى شيدوها الا أماكن يعتكفون فيها ، وما كانت معاركهم الا تعبيرا عن ضيق أناس لا يجدون للعودة الى وطنهم سبيلا . وان الهنـــد لتعرف متاعبهم حق المعرفة ، بل انها لتعرف متاعب العالم بأسره ، حتى أعمق أعماقها . وهى تنادى قائله « اقبلوا » بأفواهها المائة ، ومن خلال أشياء تافهة وأشياء فخمة . ولكن « اقبلوا » الى أى شىء ؟ هـــذا ما لم تحدده أبدا . »

وفى دراســـة له يقول « جلين الان » ان تقسيم القصـــة الى « المسجد » و « الـكهوف » ، « المعبد » يشير الى الربيع والصيف والخريف الممطر فى الهند ؛ الى العاطفة التى يمثلها الدكتور عزيز والى العقل الذى يمثله فيلدنج والى الحب الذى يمثله « جودبول » . أما مسز مور فتنتمى الى كل هـــذه العواطف فهى تشعر بالراحـــة فى المسجد والكهف والمعبد . ويشير التقسيم كذلك الى طرق ثلاث : طريق العمل وطريق المعرفة وطريق التأمل والعبادة .

ولا يقتصر الصراع فى القصة على صراع بين الحضارات بل على صراع بين أفراد حضارة واحدة كما يتضح من الموقف التالى بين رونى ومسز مور :

« ـ اننا لم نحضر الى هنا لكى نسلك سلوكا لطيفا !

ـ ماذا تعنى ؟ (قالت مسز مور)

ـ أعنى ما أقول . اننا جئنا الى هنا لنقيم العدالة ونحافظ على الأمن . هذه مشاعرى ، وليست الهند حجرة استقبال .

ـ ان مشاعرك مشاعر اله . قالتها فى هدوء ، ولكن سلوكه هو الذى ضايقها أكثر من مشاعره .

ثم قال وهو يحاول أن يعود الى طبيعته : « ان الهند تحب الالهة . »

ـ والانجليز يحبون أن يظهروا كآلهة .

وقالت وهى تدق بالخواتم فى أصـــابعها : « ســأجادل فى ذلك ، وفى الحقيقة سأملى رأيى فى المسألة . ان الانجليز قد جاءوا هنا ليكونوا لطافا . »

فسألها وقد عاد يتكلم فى رفق لأنه خجل من انفعاله ، قائلا :

ـ وكيف تفهمين ذلك يا أمى ؟

ـ لأن الهنـــد جزء من العـــالم ؛ وقد جمعنا الله على الأرض لـكى يحب بعضـــنا بعضا . ان الله ... محبة . »

ان نهاية القصة ليست واضحة تماما ويجعلنا فورستر ندرك أن « رحلة الى الهند » لا تكفى بل ، كما يقوم الشاعر والت ويتمان ، رحلة الى ما وراء الهنـــد !



عندما تتحقق الأحلام

بقلم
عبد المعطى المسيرى

انتبه الدكتور شاكر من نومه اثر حلم مزعج زال عنه النوم ، وأورثه القلق والسهاد .. راى أنه بينما كان يتنزه على شاطىء النهر سمع صيحة استغاثة ، فلما التفت نحو مصدر الصوت ، ألفى « سميرة » ـ الفتاة المريضة بقلبها والتى يتولى علاجها ـ مشرفة على الغرق ، ورغم أنه لم يكن الوحيد ـ فثمة اشخاص كانوا أقرب الى مكانها منه ، فقد توجهت اليه بتوسلاتها تستصرخه وتستجديه المعونة مرددة : « اغثنى يا دكتور ، انقذنى يا دكتور » .. ولكنه لم يسارع الى نجدتها كما ينبغى بل طفق يخلع ملابسه ببطء وقلة اكتراث ، وعندما هم بالنزول الى الماء كان كل شىء قد انتهى » .

وقد مكث الدكتور شاكر بضع ساعات مبلبل الفكر ، مضطرب الخاطر ، كلما حاول أن ينحى عنه هواجس منامه ، أو كلما أثقل جفنه النعاس ، أيقظه طيف « سميرة » وهى تعلو وتهبط فى الماء صائحة : « اغثنى يادكتور ، أنقذنى يا دكتور » .

وفى الصباح شرع يرتدى ملابسه وما تزال الرؤيا ماثلة فى مخيلته ، تلح عليه من كل جانب ، وتتمثل له فى كل شىء .. فسميرة فى المرآة تناضل الماء ، وفى أرجاء الحجرة تستصرخ وتستغيث.



وركب سيارته قاصدا العيادة ، ولكنه عندما بلغ مفترق الطرق ، انحرف عن طريق عيادته ، واتجه صوب منزل

المريضة ، وما كاد يدنو منه حتى سمع الصياح والعويل .. !!

لم يسنح في فكره ان ما هجست به أحلامه ستصدمه به اليقظة ، ولم يكن يخطر بباله ان غرق سميرة في المنام يعني ... الحقيقة ، فحاول ان يتجنب مواجهة اهلها ، ولكنه لم يلبث أن وجد نفسه بينهم وقد شرقوا بدموعهم ، وتلظى الهم بين ضلوعهم ، فهم بين منقبض صدر ، ولهيف قلب، فواساهم ما استطاع الى ذلك سبيلا، وانكفأ راجعا بعد ان راى تفسير حلمه، فقد أنبأه احدهم بأن « سميرة » كانت وهي في سكرات الموت تند عنها هذه الكلمات: « اغثني يا دكتور ، انقذني يا دكتور » .

* * *

ودارت عجلة الزمن .. واضحى الدكتور شاكر انسانا جديدا ، فقد أثار حلم سميرة ما كمن في قلبه من سماحة طبع ، ودماثة خلق ، وترك في نفسه اعمق الأثر .

كان يشعر شعورا قويا بتبعة التقصير ازاء « سميرة » لأنه آثر الراحة والتمطي في الفراش على القيام بالواجب، والاستجابة لندائها .. وكثيرا ما هتف به ضميره : « من يدرى يا شاكر ، ربما كانت في حاجة الى جرعة ، أو حقنة ، ومن يدرى أيضا ربما كان في الحقنة او الجرعة ما يدفع عنها يد الموت ؟! »

وكان لا يجد منفذا للتكفير ، وتخفيف ثقل وطأة التبعة ، الا في اشاعة الخير بين الناس ، وتوخي المنفعة لهم ، وفي مواساة المساكين ، ثم في العمل المتصل والسعي الدائم .

جعل يحسن على الناس بعلمه ، كما يحسن عليهم بماله ، لا يرد داعيا ، ولا يبخل على فقير ، ولا يعوقه عن مرضاه برد ، ولا قيظ .. لا يسري عنه الا العمل ، العمل المتصل حتى لم تعد له اوقات فراغ ، اذ يبدو على الدوام وكأنه مطالب بعمل لا يحتمل الا رجاء .

وكان كلما امعن في اسداء المعروف شعر بالغبطة تسري في كيانه ، وكلما أسرف على نفسه فأرهقها بالعمل المضني ، تنسيه راحة ضميره ، تعب بدنه فيرتمي بجمعه في الترفيه عن النفوس والابدان .

* * *

ثم دارت عجلة الزمن .. واستطارت شهرة الدكتور شاكر بين الناس ـ وخاصة الفقراء فقصدوا اليه من مختلف الانحاء يلتمسون طبه وبره .. واغتبط الجميع بهذا التغيير المفاجيء ، وكان أشدهم اغتباطا وفرحا زوجه « يسرية هانم » فقد طرأ عليها تغيير مماثل في احتفائها به ، ولقائها له .

كانت لا تلقاه الا كاشحة متجهمة ، وكانت تنفر على الدوام من تودده اليها، ولا تجد حرجا من التلميح بما تكن له في قلبها من بغض ، وما يجيش به صدرها من وغر .. فلما انغمر في تيار عمله ، غمرته بحنانها وقبلاتها ، وبكل ما كانت تضن به عليه .

وهكذا فاز الدكتور شاكر براحة ضميره ، وتقدير الناس ، وقلب يسرية



وحبها .. ولم يكن يقدر ابدا ان « يسرية » قد فتحت له طاقة فى قلبها، لأنه بعمله المتواصل ، وانشغاله الدائم قد فتح لها ما كان موصدا من الأبواب !

ومن اين له العلم بانها كانت لا تميل اليه ، ولا تعده بطل احلامها !؟ ثم من اين له انها كانت تؤثر عليه صديقه الأستاذ فوزى !؟ وانها قد وهبته حبها وقلبها .. وبدنها !!

لقد اجتمع لصديقه فوزى ما يروق فى عين امراة متقدة النفس ، تفيض حركة وطربا كيسرية هانم ، فهو عريض المنكبين ، فاره القامة ، فاحم الشعر، يضطرم فى ضلوعه الشباب والطيش واللهو ، وتضطرب فى راسه أساليب متقنة من الاغراء والاخفاء .. فهو مع شاكر نعم الصديق ، ومع يسرية نعم العشيق !!

وكانت يسرية تختلس الوقت اختلاسا لتلتقى به ، فلما انغمس زوجها فى عمله، سنحت لها الفرصة فتهافتت على ملذاتها ، ولجت فى غلوائها ، وبقدر ما ارتمى الدكتور شاكر بجمعه فى العمل ، ارتمى العاشقان فى تيار التهتك والعبث ، يعبان من نشوة اللذة الآثمة .. وكانما احست يسرية نحو زوجها بشيء من تقدير الجميل ، لاتاحته الفرصة لها ـ ولو عن طريق غير مباشر فكانت اذا التقت به ـ وما أقل ذلك ، تغمره بفيض من قبلاتها وضحكاتها ، وتتيح له من السعادة ما كان محرما عليه !!

ولكن اذا كان الدكتور شاكر قد ربح راحة ضميره ، وفاز بتقدير الناس ، وبتودد زوجه .. واذا كانت يسرية قد منيت باشباع ميلها الغريزى الى العبث والطيش فقد خسر الاثنان ابنهما فريد !؟

فقد توعك الطفل اول الأمر ، ولكن اباه استهون المرض فلم يحفل به ، وضن بشيء من وقته أن يضيع فى هذا التوعك البسيط وهو لا يكاد يجد وقتا لمرضاه الذين تفتك بهم اوجع الأسقام.. ويسرية هانم كانت لا ترى الدنيا الا من جانب واحد : جانب اللهو والمجون كأنما قد اعطيت الحياة لتهبها لهذا الجانب دون غيره !! ؟

وعلى هذا النحو كان الوالد فى واد ، والأم فى آخر ، والصغير بين الاثنين موعوك مضنى ، يتزايد توعكه ، وتتفاقم علته .

وفجاة استفاق الاثنان على انين فريد وهزاله ... استفاقا فوجدا تلك الطفولة النضرة الضاحية ، وتلك البراءة السمحة الرفافة قد استحالت الى تهدم فى البدن ، وتهضم فى الوجه ..

وبذل الدكتور ما فى وسعه ليعرف مرض ابنه ولكنه لم يوفق ، فليس ثمة علة ظاهرة فاستعان باصدقائه الأطباء فغشيهم من الحيرة ما غشيهم ، ولكنهم

اجمعوا على أمر واحد وهو ان الطفل بحاجة الى الراحة والهدوء والهواء ..

وبعد حديث قصير مع يسرية ، انتقلت بطفلها الى ضيعة الزوج في ضواحي المدينة بعد ان زودهما شاكر بما يناسب الصغير من علاج .

وآوى الدكتور شاكر الى فراشه ذات مساء ، ولكنه لم يلبث ان هب مذعورا ، فقد عاودته رؤياه القديمة .. ففريد يستصرخ ويستغيث : « اغثني يا أبي ، ادركني يا ابي !! » .

وتراقص طيف الطفل في ارجاء الحجرة ، وفي المرآة يئن ويتوجع !!

لقد جرب شاكر عاقبة الاهمال ، وعلمته التجارب أن اوهى التواني يخفي في طياته أفدح النتائج ، ولذلك لم يدع لحظة تفر منه ..

استقل سيارته وانطلق بها ينهب الأرض نهبا ، واقترب من الضيعة .. ودنا من منازلها القليلة فسمع الصياح والعويل !!

ها هي المأساة تتكرر !! استغاثة في الحلم ، ثم الصياح والعويل ، فالموت ..

ولكنه لم يلبث أن تحقق ان الأصوات المفجعة لم تصدر عن بيته ، وانما عن البيت المجاور ، بيت شركائه في الضيعة .. فدار بخاطره ان يواسي جيرانه أولا ، ولكن شيئا خفيا جعل يقود قدميه نحو منزله .

فتح الباب ، وارتقى الدرج ، وفي نفسه أن يفاجىء ولده وزوجه ليتيح لهما نشوة اللقاء الطارىء .

ودلف الى حجرة الصغير فرأى الظلام الدامس ، والهدوء الشامل .

أشعل مصابيح الكهربائي واقترب..

لا شيء سوى الصغير يئن ويتوجع ..

ولا شيء سوى العقاقير ومقياس الحرارة وقد علاها الغبار !

الصغير وحجرته ، وطرق علاجه ، كل هذه تنبىء عن الاهمال وتشي به..

ولكن أين يسريه !! ؟

اتجه الى الغرفة الأخرى فرأى النور يشع من خلال فرجاتها .. وسمع حديثا وضحكا يصدر منها ، فتقدم على اطراف اصابعه كالشبح ، فرأى ..

ويا لهول ما رأى ، وسمع ويا لهول ما سمع !!

رأى يسرية وفوزي في فراشه يتعانقان ويتضاحكان .

انجابت السحب فجاة عن مخيلته فتشوهت في نظره صورة الزوج والصديق ولكنه تماسك ..

لقد شعر أنه في موقف لا يجدي فيه الهزل ، ولا العنف .. شعر أنه من الغبن أن يخسر ماراض نفسه عليه من هدوء وتسامح ، وأن ينفعل ويثور على من لا يستحق الانفعال والثورة ..

وأشرقت بصيرته عندما طرق أذنيه ثانية أنين ولده فرجع اليه وقبله ، ثم قبله ..

وبهدوء كهدوء الماء العميق الذي تضطرب في جوانبه الأفكار والأسرار ، وهو ساكن السطح ، بارد الأديم ، أخرج ورقة من جيبه وكتب فيها هذه الكلمات :

« لقد ارتضيت هذه القسمة ! لك العشيق والصديق .. ولي فريد » .

ثم وضع الورقة على الفراش مكان الطفل وحمله ، وقفل راجعا الى المدينة .

أقوى من الألم

بقلم: محمد الجيار

تذكرت كم كان كل شيء يدعو الى السخرية ‥ كما كان يدعو الى الاعجاب وكانت ساعة الحائط تشير بكف حزينة الى منتصف الليل ، والحجرة الكبيرة ليس بها احد سواى ‥ وفى مقعدى الوثير كنت أنتظر الطبيب ، وذراعى اليسرى التى كسرت منذ ساعة يضج بها الم كبير وبدأت أستعيد ماحدث ٠

كانت ليلة راس السنة ، والمدينة تلمع من بعيد بنور فرح غامض.. وهواء ديسمبر يسرى محملا بأنفاس أزهار ولدت مع العام الجديد ‥ والناس يطل من عيونهم انتظار غريب الى حياة جديدة ٠

وتهيأت ـ كعادتى كل عام ـ للترحيب بالعام الجديد ، الا ان طقوس الاحتفاء هذه المرة تختلف عن كل سنة ماضية ‥ لأننى ساستقبل العام الجديد فى عيون امرأة ليست كالنساء ‥ فيها آخر أضواء بابل ‥ أنثى متجددة السحر لايمل القمر من التحديق فى عينيها ، ذات جدائل ذهبية تتهدل على كتفيها فى صمت متمرد ثائر ، وشاقنى ان أفتح زجاجة عطر ثمينة أعددتها لفاتنتى هدية فى عيد رأس السنة ‥ عطر (التابو) ، ولكنى اجفلت عندما دخلت زوجتى (أمينة) الى الحجرة ، فتحاشيت عينيها ، الا انهما حاصرتا وجهى ، فرأيت فيهما تلك الأرقام الثرثارة عن ايجار المنزل ، وتكاليف المعيشة ، واستهلاك الكهرباء ‥ وأنا رجل موظف ، ولا أحب أن أكون موظفا صباحا ‥ ومساء !

ولكن زوجتى كانت هادئة دائما ، وتكسرت نظراتها على عينى فى عتاب

طويل ، وجاءني صوتها العائلي الحالي من دعوات الرغبة ..

– على فين .. وايه الوجاهة دي كلها .. ؟

– ولا وجاهة ولا حاجة يا أمينة .. دي حتة بدلة جديدة .

– طيب يا سيدي مبروك .. ومبروك عليك السنة الجديدة كمان .

– الله يبارك فيكي يا أمينة .. عن اذنك .. أنا عندي ميعاد مع أصحابي. وابتسمت أمينة بحزن مسالم ، وأطرقت الى الارض ، وارتفعت نظراتها البطيئة تتسلقني ، كما تتسلق لبلابة جدار سجن طويل ، وتطلعت الى عيني زوجتي .. كانت تطلب شيئا .. كانت أصابعها كأنامل طفل أخرس يريد أن يقول شيئا .. شيئا يؤلمه .

– عاوزه حاجة يا أمينة ..

– فين هدية رأس السنة ؟

تلعثمت أفكاري – هل رأت علبة العطر الغالية التي أعددتها لسوزى ؟

ولكن أمينة قطعت على حيرتي بضحكة بريئة وقالت في بساطة الطفل :

– هدية السنة الجديدة .. عندي هي شيء بدون غرامه ..واحتوتني بذراعيها احتوتني بكل مافي – فطبعت قبلة باردة على شفتيها ، كتوقيع الموظفين المنسيين على دفاتر الحضور والانصراف في وزارة الأوقاف ! .

***

كانت المدينة تموج بالأضواء الفرحة والوجوه الباسمة ، والاشياء الجديدة ، وأنا قابع داخل سيارة (تاكسى) تنطلق بي الى سوزى ، السماء من بعيد تتشح ببعض السحب ، وأضـواء المصابيح تتراقص على أمواج النيل ، وكان سائق السيارة طويل القامة ، مائل الرأس الى الامام ، كنت أحب كل شيء في هذه الامسية ، كنت راضيا عن البشر جميعا .. وأدار السائق مفتاح المذياع ، فانبعث صوت أم كلثوم حلو كالأمنية، ورحت أردد معها ذلك المقطع « كان لك معايا .. أجمل حكاية .. »

وامتزج النغم ، بعطر التابو الذي يفوح من ضمير العالم كله في هذا المساء بأشعة المصابيح الملونة في مهرجان المدينة الساهرة .. فأسندت رأسي وأشعلت سيجارة ، ورحت أنفث دخانها في هدوء وسلام كاملين .

ماذا حدث ؟

العالم يتحطم .. الدنيا انفجرت ، العربة انقلبت بي بعد اصطدامها بأحد أعمدة كوبري أبي العلاء .. آلام هائلة تنشب أظافرها في كل جسمي .. زجاجة عطر (التابو) تحطمت وسال العطر مع الدم الذي انبثق من صدري كل هذا حدث فجأة .. وأنا في قمة سعادتي ، والقاني الليل بقسوة الى قاع العذاب الاسود ، وأحسست أن ذراعي اليسرى مقطوعة تماما ، ويسيل منها الدم ، أردت الحركة .. فلم أستطع ، ونفذ الى صدري دخان أسود كثيف كرائحة الموت ، رائحة كل الأشياء العزيزة التي أحببتها في طفولتي ، وتحولت في عيد رأس السنة الى رماد .

السيارة توشك أن تنفجر ، وأنا

عاجز عن الحركة ، ولكن الشيء الذى لن أنساه مدى الحياة ،هوان مذياع السيارة المحطمة لم يصب بعطل ، كان الغناء ينبعث منه واضحا جليا فوق آلامي ، وآه من صوت أم كلثوم وهو يتساقط على رأسي .. ودمى المنتثر فى العربة . (كان لك معايا ... أجمل حكاية ... فى العمر ...) !! !!

وامتدت أذرع الناس وأنقذتني من قبضة الموت ، وفى رعب ذاهل رحت أبحث عن ذراعي ، حسبتها وقعت مني ، ولـكنني لمست شيئا مدلى من كتفي وينتهي بأصابع مضمومة ، وساعة فى المعصم لا زالت تدق . !



لا أعرف لماذا شاهدت فى هذه اللحظات العصيبة وجه زوجتي أمينة يطل من وراء ضبابه، وجه زوجتي الطيبة الصابرة ... بعينيها الغافرتين وابتسامتها البطولية ، وجه زوجتي المتعب الشاحب دائما ...

***

وفى بهو الاستقبال . باحدى المستشفيات ، تكومت بآلامي على أحد المقاعد ونظرت بحزن الى ساعة معلقة فى الحائط ، فرأيتها تشير الى الحادية عشر مساء ، موعدى مع سوزى ، وهبت نسمة باردة من نسمات الليل حركت بقايا عطر الزجاجة التى تحطمت فى السيارة ، ورأيت نفسى فى مرآة معلقة أمامي ، مرآة صدئة مشروخة ، كنت أكثر من شيء ممزق،وقد لايرى الانسان وجوه الناس رؤية واضحة فى معظم الاحيان ، وفى لحظة معينة يستكشف الوجه الحقيقي للانسان .. ولقد رأيت وجوه الناس فى هذه الليلة تتسم بالأنانية والقسوة والكذب .. وأطل على فجأة وأنا منكمش فى مقعدى وجه الباشتمرجي ، عيناه مشرطان من مشارط الاطباء القديمة الصدئة ، وكل شيء فيه يسرق منك شيئا ، فيه عطف زائف يؤلمك ، رأيته يفرك كفا بأخرى ، فصافحته بابتسامة دامية ، همس فى أذني : أنا معاك .. ما تخافشي .. فهمست اليه : بس أنا دراعي مكسورة ومش قادر أطلع فلوس .. نظر الى بعينين ضيقتين تكذبان بلا سبب ..على الدوام .. وقال : يا أخي ايدك اليمين سليمة .. هات الجوده .. ربنا يشفيك .

وادخلت يدى اليمنى الىجيب سترتي الداخلية ، بعد أن تركت النصف المكسورة من ذراعي اليسرى ، وجاهدت أن أعثر على حافظة النقود .. وفزعت.. لم يكن معى شيء .. لقد فقدت الحافظة أثناء الحادث وتطلعت مرتبكا الى الباشتمرجي وخرج صوتي كالفحيح.. الفلوس راحت فابتسم ساخرا وقال : كده .. يعنى عيان من غير فلوس ..

مش عاوزين · وانتزعنى من شرودى الذاهل صوت هذا الرجل الذى يبيع الابتسامة ··والكلمةالطيبة ، وتصورت عينيه تنغرزان فى لحمى ·· تكسران ذراعى من جديد ·

وجاء طبيب المستشفى ، وطلب من الباشتمرجى أن يخلع عنى سترتى ليرى ذراعى المكسورة ، وبدا الرجل ينزعها بغلظة وبلا تمهل ورحت أتوجع طالبا اليه عدم ايلامى ، فراح يقول :

ـ ايه يعنى حتة كسر فى الدراع ·· ياراجل استحمل ·

وبدأت أصابع الطبيب تتحسس العظام المكسورة ، والباشتمرجى ينظر الى نظرات قاسية متشفية ، وهواء العام الجديد يلفح جرحى ، ثم رأيت الطبيب يشعل سيجارة ويقول : كسر مضاعف ·· عمرى ماشفت كسر زى ده ·· بس للأسف مفيش جهاز أشعة دلوقت ، وما فيش حل غير انك تبات هنا ، ونديك حقنة مسكنة ، كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر مساء ·· ورجوت الطبيب أن يخلى سبيلى ، آملا أن اهتدى الى طبيب عظام خاص ·

كنت وحدى ·· والألم ·· والليل ·· وليلة رأس السنةبأسرارها الغامضة ولكن المدينة تحولت الى غول متزين ، كل شىء يتحرك بسرعة كأنه مسروق من شىء آخر ، وانطلقت بى سيارة تاكسى ومن زجاج السيارة كانت الأضواء الملونة الراقصة ··والاعلانات الصارخة والنساء الجميلات ذوات الثياب الضيقة كل شىء كما هو ·· لم يتغير · الا أننى مع آلامى الشديدة كنت أبتسم ساخرا من كل شىء ·

وكان من العسير الاهتداء الى طبيب خاص فى ليلة رأس السنة ، فالألم فى مثل هذه الليالى ضيف ثقيل ، الا أننى اهتديت الى عيادة لطبيب عظام بعد بحث طويل شاق ، وارتميت على أول مقعد منتظرا طبيبى الوحيدفىهذا الليل الكبير ·

ـ الدكتور جاى بعد شويه ·

كان صوتا مريحا صافيا نطق به رجل فى حوالى الخمسين من عمره ، أشيب الرأس ، غائر الخدين ، فى جبهته أثر لجرح قديم ·

وكان ذراعى المكسور قد وصل بى الى قمة الألم ، ولم أعد أطيق شيئا ·· الا أن صورة هذا الرجل الوديع الباسم الطبيب آنستنى وربتت على جرحى ، ورأيته يشعل لى سيجارة ويقول :

ـ شده وتزول ·· معلهشى ·

فقلت بصوت ممزق : بس اشمعنا دا يحصل فى رأس السنة ؟ فابتسم الرجل الباسم ونفث دخان سيجارته وقال : ما هو لازم كده علشان تقدر قيمة الحركة ·· والصحة ، والكلام العادى بين الأصحاب ··

فقلت : بس أنا خايف ذراعى ينقطع وكان نفسى تكون تضحيتى بذراعى لسبب كبير ، حرب الجزاير مثلا ·· أما ان ذراعى يروح كده فى حادث عبيطزى ده ·· وأنا رايح أسهر مع أصدقائى

وهنا خفق قلبي ، وتذكرت سوزى ، فرجوت هذا الرجل الطيب أن يطلب لى رقم تليفونها ، وقمت استند على ذراعه حتى جلست بجوار التليفون والعرق يتفصد بهجبيني ، وجاءني صوت سوزى يتمطى سكران ٠٠ وكانت هناك موسيقى راقصة صاخبة وأصوات رجال يضحكون ٠٠ وبصوت متقطع مغموس بالدم قلت :

ـ سوزى ٠٠ أنا متأسف ٠٠ مقدرتش آجى ٠٠ اصل حصل لى حادث ٠

ـ حادث ايه ؟ انت بتتكلم منين دلوقت ٠٠ ياخسارة الليلة ضاعت ٠

ـ ضاعت ياسوزى ٠٠ زى ليالى كتير ٠٠ بس مش أنا اللى ضيعتها ٠ تقدرى تجيلى دلوقت ٠٠ فى عيادة الدكتور ٠

ـ عيادة الدكتور ٠٠ مش ممكن ٠٠ أنا آسفة جدا ٠٠ عندى بارتى وبنحتفل بعيد رأس السنة ٠٠ شد حيلك انت ٠

وللمرة الثانية أسمع صوت تكسر زجاجة العطر التى كنت سأقدمها هدية اليها ٠٠٠ ما أرخص مثل هذه العلاقات ٠٠ لن تعرف الحب الحقيقى الا فى ساعات الألم ٠٠

وصحوت على صوت الرجل ـ صديقى ـ يقول : انت حضرتك مش مجوز ؟

فأجبته : مجوز من زمان ٠٠٠ فابتسم قائلا : يظهر ان فيه حاجة تاعباك فى الدنيا دى ٠٠ طيب اسمع راح أحكى لك حكاية حتنسيك آلامك

ـ من عشرين سنة ، وبعد ما انتهت حفلة الغنا والرقص بتاعة ليلة دخلتى، خدت فهيمة مراتى ، وخرجنا نلف البلد فى عربية متزينة بالورد ، كانت فهيمة حلوة ومزهزهه زى عود النعناع الأخضر ٠٠ وعلى طول سمعت الدنيا اتهدت على راسى ٠٠ العربية اتخبطت ، وفهيمة الحلوة الصغيرة اتكسرت رجلها اليمين ٠٠ تعرف ان رجلها انقطعت بعد كده ٠٠٠ ومع كده عاش حبنا طول العمر ٠



وبكى الرجل الطيب لأول مرة ٠٠

فقمت أحمل ذراعى المكسورة ٠ ، ورحت أواسيه ، وقد نسيت تماما آلام ذراعى ٠٠ شعرت بتفاهتها أمام تضحية هذا الرجل ، وبهرنى حبه لزوجته ، وثقته بالحياة ٠٠

وأخيرا ٠٠ حضر الطبيب ،واستلقيت على منضدة العمليات ووجه الرجل الطيب الباسم الصبور يملأنى بالشجاعة والقوة ، وتعلقت بضوء المصباح ٠٠ تشبثت عيناى بحبل الضوء ، وبدأ الخدر يتسلل هادئا الى كيانى ، والأصوات تغيب ، والراحة تشمل جسدى المتعب المعذب ، وغصت فى قرار مظلم سحيق،

ومر زمن لا أعرف مداه ، ثم انقشعت ظلمة الغيب الذى طوانى فى احشائه، وبدات عيناى تتفتحان على الأشياء المحيطة بى ، واستتبنت من خلال الضباب الكثيف وجها رحيما مبللا بالدموع ٠٠ أول وجه يطالعنى بعد عودتى ، راية السلام البيضاء التى ترفعها الحياة لى ٠٠٠

كانت ملامح هذا الوجه معروفة لى تماما ، الا اننى اراها الآن أكثر وضوحا وحنوا وصدقا ٠٠ كان يبدو جديدا باهرا يطل على من أعلى الهاوية ، وشعرت بعينين ترفعانى على محفة من النور الشفيف ، وتصعدان بى بطيئا ٠٠ بطيئا نحو القمة المشمسة الدافئة.

وابتسمت للوجه الحنون الصادق ٠٠ وهمست : أمينة ٠٠ مراتى ٠٠ فضمتنى بذراعيها ، وطبعت على فمى المثلوج قبلة لم أذق احلى منها فى حياتى كلها ٠

كنت استشعر طمأنينة بالغة ، وصفحا كاملا عن قسوة الحياة ، وحبا جديدا للناس جميعا ، حتى لهذا السائق الذى تسبب بحماقته فى كسر ذراعى ــ دون سبب ٠٠

***

وحدنا ٠٠ كنا نعود ، ذراعها هى ذراعى ، يدها اليسرى متشابكة الأصابع مع يدى اليمنى ، وكانت هناك غمامة تمر سريعا لتفسح الطريق لميلاد القمر وذراعى المكسورة داخل اطار حديدى من جبيرة ممتدة لا تسمح لها باية حركة ، وبدأنا نصعد درج المنزل فى خطوات متناغمة متآلفة ، ولأول مرة استقبلنا المنزل بكل دفئه وسلامه ، واحتوانى الفراش كصدر أمى ، وأطلت على عينا زوجتى بكل حنان الحب وروعته وصدقه وشعرت وأنا فى سجن هذه الجبيرة بنوع غريب من الحرية والانطلاق النفسى ٠٠ مع زوجتى التى لم ار وجهها قبل الآن همست أمينة : ايه رايك ياحبيبى ٠٠٠ نحتفل بعيد رأس السنة هنا فى البيت ٠٠٠ أنا راح أدور الراديو ونسمع موسيقى العالم السهران فى الليلة دى ٠٠

رددت عليها : ازاى يا أمينة عرفت بالحادث ٠٠ ومن اتصل بك ٠ قالت : اتصل بى شخص اسمه (أبو سالم)٠ وقال انه باشتمرجى الدكتور ، وانك تحت البنج وأعطانى العنوان فحضرت..

***

وبعيدا عن عالم الكذب حيث يسمع الانسان صوت نفسه ، ومع آلام الذراع المكسورة ، كانت الحياة تبدأ كلماتها الحارة المخلصة فى حوار حبيب مع عينى أمينة زوجتى وحبيبتى ٠

الجوع

نيران الهنود ، من حول السياج الذى ينتهى اليه المرتفع ، قبالة النهر ، تلتمع ليل نهـار ، وفى الظلام من غير نجوم تبث مزيدا من الرهبة . أما الاسبانيون ، المتمركزون فى حذر بين الجذوع فيرون على ضـوء النيران التى تنثرها الريح المجنونة ظلال المتوحشين الدائمة الحركة وبين الحين والحين تتسرب الى أكواخ الطين نسمة من الهواء لاسعة البرد ، تحمل معها أناشـيد الحرب وصيحاتها فلا يلبث أن يتجـدد بعدها تساقط السهام المحرقة ، التى تضىء بمرورها الخاطف عرى المشهد . أما فى فترات الهدنة ، فان آهات القائد الذى لا يغادر فراشه تزيد الفزاة رعبا ، فيتمنون لو استطاعوا الخلاص منه ، لو استطاعوا نقله بمقعـده ، وهو كالمعتوه ينتضى رمحه ، الى المراكب المهتزة بعيدا وراء الشاطىء المتعرج ، ولو استطاعوا نشر الأشرعة والهرب بأنفسهم من هذه الأرض الملعونة ؛ ولكن حصار الهنود لهم يمنعهم من ذلك . فان لم تكن صيحات المحاصرين ولا آهات « مندوسا » فهى توسلات أولئك الذين أرمضهم الجوع ، والذين تتزايد شكواهم كميـاه المد ، من تحت الأصوات الأخرى ، من تحت المطلقات والسـهام الطـائرة وتداعى البيوت المحترقة .

هكذا مرت أيام عديدة ، أيام كثيرة . لم يعودوا الآن يعدونها . واليوم لم تبق كسرة خبـز . ذهب كل ما يمكن أن يتقاسم ، أو ينتزع ، أو يمضغ : حصص التموين الهزيلة أولا ، ثم الدقيق العفن ،

(*) « مانويل موخيكا لاينز » (المولود عام ١٩١٠) أحد كبار كتاب القصة المعاصرة فى الأرجنتين . وأشهر مجموعاته : « هنا عاشوا » و « بيونس آيرس المجهولة » . وأكثر قصصه تاريخية ، منها هذه التى تروى فصلا من الغزو الاسبانى للأرجنتين يوم كانت موطنا للهنود .

تأليف
مانويل موخيكا لاينز
ترجمة : نزيه الحكيم

والجـرذان ، والزواحف الصـغيرة القذرة ، والأخذية المغلية التى التهموا جلودها فى هذيان . الآن تساوى القادة والجنود ، يرقدون فى أى مكان ، قريبا من النار الناصلة أو الأوتاد المنصوبة للدفاع . وأصبح عسيرا تمييز الموتى من الأحياء .

ويرفض « دون بدرو » أن يرى عينيه المتورمتين وشفتيه كثمرة التين الجافة ، ولكن فى داخل كوخه الحقير يتابعه شبح تلك الوجوه وقد تخلت عنها أجسامها ، تزحف فى سخريةباكية فوق قطع الأثاث الفخمة التى أتى بها من « قادس » ، وتكاد تلتصق بالسجادة الضخمة التى رسم عليها شعار (رهبانية سنيتاغو) ، ويراها على الموائـد ، بين الأطباق التى خلت من الطعـام فكشفت فى قعرها اللماع عن شعار مؤسس الأسرة المالكة .

ويتلوى المريض كان به مسـه من الشيطان . ويده اليمنى ، التى أحاطت بها سبحة من خشب ، تتعلق بشرافات السرير ، يشدها فى حنق ، كما لو كان يود اقتلاع سقفه الأرجوانى ودفن نفسه تحت رسومه المطرزة . ولكن ذلك لن ينجيه من آهات الجنود ، ولن يبعد عنه ذكرى صوت « أوسوريو » ، الذى تركهم يقتلونه على شـاطىء « جانيرو » ، أو صوت أخيه « دون دييغو » الذى ذبحه الهنود ، ولا الأصوات الأخـرى الأكثر بعدا ، أصوات أولئك الذين قادهم الى نهب روما ، يوم اضطر البابا أن يلجأ مع كبار رهبانه الى حصن « سان انجيلو » بل لا حاجة به أن ينظر من النافذة ليذكر أن فى الساحة قريبا منه ، فى قلب الواقع الحى ، جثث ثلاثة من الاسبانيين أمر بحرقهم لأنهم سرقوا حصانا وأكلوه . انه يتصـورهم مقطعى الأوصال ، لأنه يعرف أن رفاقا آخرين لهم قـد نهشوا عضلاتهم .

متى يعودون ، أولئك الذين ذهبوا الى البرازيل ليأتوا بالأغذية ؟ متى ينتهى هذا العذاب ويرحلون الى أراضى المعدن واللؤلؤ ؟ متى ؟ ..

وآخر أيضـا يهيم بالخيـال . انه « بايتوس » صـانع أقواس الرماية . يقبـع فى زاوية من دكانه ، على الأرض العارية ، ويفكر أن القـائد وضباطه ينعمون بالموائد الغنيـة بينما هو يقتله الجوع الذى يمزق أحشاءه . واذ ذاك يغدو حقـده على رؤسائه اشد لهبا ؛ ويدعمه هذا الحقد ، يغذيه ، يمنعه من أن يستسلم للموت . انه حقـد قـد لا يبرره شىء ، ولكنه فى حياته الخالية من الايمان يزوده بالحافز العنيف . لقد كان فى « مورون » يكره سيده ؛ فاذا هـو جاء الى أمريكا فلأنه حسب أن سيغتنى فيها الجميع ، سادة وأتباعا ، ثم لا توجد بينهم فوارق لشد ما ضل به الحساب ! ان اسبانيا لم ترسل الى الهند الجديدة (١) جيشا يضم عددا من الاشراف كهذا الجيش . كلهم «دوقات» ! وعلى سطح المركب وفى غرفـة كانوا يتحدثون كما لو كانوا فى القصور : لقد كان « بايتوس » يرقبهم بعينيـه الصغيرتين وقد أغلقهما نصف اغلاقة ، فلم يكن بينهم لديه من يستحق بعض

(١) هكذا كانوا يسمون القارة الأمريكية .

الاحترام الا « خوان أوسوريو » ، ذلك الذى قتلوه فى « جانيرو » . قتله السادة حسدا ومخافة .. ما أشد ما يكرههم ، بتقاليدهم ومظاهرهم ! كما لو أنهم ولدوا جميعا على طريقة واحدة ! بل انه ليزداد نقمة عليهم حين يحاولون التلطف ويتحدثون الى البحارة كما لو كانوا فى مستواهم . كذابون، كذابون! انه ليكاد يشعر بالغبطة للكارثة التى نزلت بالحملة فكانت ضربة قاصمة لأطماع هؤلاء الأمراء المزيفين .

الجوع يدفع الغيوم الى دماغه ويجعله يهذى . الجوع ! الجوع ! لو يستطيع أن يعض بأسنانه قطعة من لحم ! ولكن أين اللحم ؟ اليوم بالذات ، مع شقيقه « فرنسيسكو » يستند أحدهما الى ذراع الآخر ، جاس المعسكر كله : لم يبق فيه ما يسرق . عبثا عرض أخوه على الآخرين أن يبادلوه قنفذه ، أو أفعى ، أو جلدا ، أو أية لقمة ، بالجوهرة الوحيدة التى يمتلكها : ذلك الخاتم الفضى الذى أعطته اياه أمه يوم أبحر من « سان لوكار » . وما كان بواجد شيئا حتى لو قدم جبلا من ذهب ، لأنه لم يعد هناك من شىء . لم يعد هناك الا أن يشد على بطنه الذى تخزه الآلام وأن ينطوى على نفسه راعشا فى زاوية الدكان .

ولكن الريح تحمل رائحة الجثث المحروقة . ويفتح « بايتوس » عينيه ويمر بلسانه على شفتيه المعروقتين . الجثث المحروقة ! هذه الليلة دور أخيه فى الحراسة فى موضع القنيصة . ولا ريب أنه الآن هناك ، مع قوسه . لم لا يزحف اليه ؟ لعلهما معا يستطيعان ان ينزلا احدى الجثث . وحينئذ ..

وحمل سكينه العريض وخرج يتهادى .

هى ليلة ظالمة البرد من ليالى « يونيو » (١) . القمر الشاحب يلقى نوره الهزيل على الأكواخ والنيران المتفرقة . ويكاد المرء أن يأمل السلام



مع الهنود بعد ساعات ، فهم الآخرون جياع ، وقد تضاءلت حدة هجمتهم . و « بايتوس » يبحث عن طريقه فى الظلام ، بين الشجيرات ، باتجاه المشانق وتتراءى له ، كثلاثة رقاصات بشعة ،

(١) حيث فصل الشتاء فى النصف الجنوبى من الكرة .

الجثث الثلاث المعلقة المهشمة . معلقة بلا اذرعة ، بلا اقدام . خطوات أخرى ويبلغها . ولابد أن أخاه يتجول قريبا منه . خطوات أخرى ..

ولكن ، فجاة ، تبرز من الليل أربعة أشباح ، تقترب من احدى المشانق . ويشعر صانع الأقواس بغضبته تتيقظ ، يهيجها قدوم هؤلاء فى وقت غير مناسب الآن يراهم . انهم أربعـــة من النبلاء ، أربعة من القادة : « دون فرنسيسكو دو مندوسا » ، و « دون دييفو باربا » ، و « كارلوس دو بران » ، و « برناردو سانتوريون » .

ويختفى «بايتوس» بنفسه وراء أحد المتاريس ، يؤجج غيظه أن يراهم - حتى فى هذه اللحظات التى يخيم فيها الموت على الجميع - لم يفقدوا شيئا من زهوهم وكبريائهم . هكذا ، على الأقل ، يراهم فى الظلمة . فهذا ، مثلا ، « دييفو باربا » فارس سان خوان ، ما يزال يحمل كل أسلحته ، ومعها الصليب الأبيض الثمانى مفتوحا كالزهرة على جانبـــه الأيسر ، بينما الايطالى « سانتوريون » يحمل فوق درعه الوشاح الفرو الذى يزيده غطرسة .

انه يكره « برناردو سانتوريون » هذا اكثر من الجميع . لقد بدأت كراهيته له منذ أبحروا من «سان لوكار» ، وظلت فى تزايد طوال الرحلة ، لكثرة ما رواه له عنه الجنود الآخرون . فهو يعرف الآن عنه انه كان ضـــابطا صغيرا لدى الأمير « دوريا » ، وانه قاتل تحت امرته فى نابولى واليونان ، وأن العبيد الأتراك المربوطين بالمجاديف كانوا يتلوون تحت ســياطه . ويعرف أيضا أن القائد « الأميرال » قد أعطاه هـــذا الوشاح الفرو فى نفس اليوم الذى أنعم فيه عليه الامبراطور بوسام كبير . ولكن هذا كله لا يبرر هذه المنجهية . لو رأيته وهو على ظهر المركب لظننت ان الأمـــير « أندريا دوريا » كان هو القـــادم الى أمريكا ، ان له فى التخطر برأسه الأسمر شبه الأفريقى ، وفى الكشف عن الأقراط الذهب المعلقة على الفرو طريقة تدفع « بايتوس » الى أن يصر بأسنانه ويشد على قبضته ..

ويتسامر النبلاء على ضوء اللهب . وتلتمع خواتمهم ، حين يحركونها بكبرياء رجال البـــلاط . ومن ورائهم الجثث الثلاث المعلقة تدور بين أصابع الريح . والجوع والخنق يخنقان صانع الأقواس يود لو يصرخ ، ولـكنه لا يســـتطيع ، ويسقط فى صمت مغمى عليـــه فوق العشب المتفرق .

وحين استرد وعيـــه ، كان القمر قد اختفى والنار تكاد لا ترف ، موشكة على الانطفـــاء . وكانت الريح قد هـــدأت فتضاءل ما يسمع من صراخ الهنود . ونهض « بايتوس » فى عناء ونظر فى اتجاه المشانق ، فكاد لا يتبين الجثث ، وكأنما أحاط بها كلها ضباب خفيف . وتحرك شخص ما ، جـــد قريب منه ، فحبس انفاســــه ، فاذا بفـــرو « برناردو سانتوريون » يبرز ، رائعا ، على ضوء الجمرات الأحمر . أما الآخرون فكانوا قد انصرفوا . وأنعم « بايتوس » نظره

فى الظلمة : لا أحـــد . لا شـقيقه ، ولا حتى الراهب «رودريفو دو سيبيدا» الذى كان من عادته أن يقوم بجولة فى مثل هذه الساعة ، ومعه كتاب الصلاة .

وتقـــدم « برناردو سانتوريون » فوقف بين « بايتوس » وبين الجثث : « برناردو سانتوريون » وحده ، لأن القسس بعيدون . وعلى بضعة أمتار تهتز الأجساد المتسولة الأطراف . وهو يعذبه الجوع عذابا يدرك انه ان لم يهدىء منه على الفور فلابد أن يجن . وعض « بايتوس » ذراعه الى أن استشعر على لسانه دفء الدم .. لكان يلتهم نفسه ، لو اســــتطاع . لكان يأكل ذراعه .. والأجساد الثلاثة الشاحبة معلقة تهتز ، فى اغراء مفزع ... ليت هـذا الايطالى يخلى الســاحة ، ليته يغرب عنه مرة واحدة .. مرة واحدة .. الى الأبد . وفى الحق ، لم لا ؟ لم لا يهتبل الفرصة التى بين يديه ويزيحـــه من طريقه الى الأبد ؟ ان أحدا لن يعرف . هى قفزة ، وبعدها يغوص سكين القنص العريض فى ظهر الايطالى . ولكن هل فى طاقته ، هو المنهوك القوى ، أن يقفز ؟ لو كان فى بلده لكان واثقا بمهارته وبقدرته ... لو فى بلده ..

لا ، لم تكن قفزة . كانت اندفاعة الى أمام ، خفيضة متوازنة ، كما يفعل كلب الصيد . واضطر أن يرفع المقبض بكلتى يديه لكى يغمس النصل ، فما أسرع ما اختفى فى نعومة الفرو ! لكانما تسرب وحده الى الداخل ، باتجاه القلب ، فى لحم هـذا الحيوان الكاسر الذى حظى أخيرا بصيده ! وهوى الحيوان فى صرخة مكتومة ، يرتجف فى تشنجه ، وسقط هو فوقه ، واستشعر على وجهه ، على جبينه وعلى أنفه وعلى خديه ، دغدغة الفرو . وانتزع السكين وأعاد ضربته مرتين ، ثم ثالثة . انه فى هذيانه لا يعرف هل هو قد قتل ضابط الأمير « دوريا » أم واحدا من تلك السباع التى ما تألوا تدور حول المعسكر . حتى هدأت كل رعشة . وحينئذ مد يده الى ما تحت الوشاح فعثر بذراع الرجل ، فكشط هذا الذراع بالسكين وأعمل فيه نهشا بأسنانه التى شحذها الجوع . لم يفكر فى وحشية ما يفعل ، بل فى أن يعض ، أن يشبع جوعه . وحينئـــذ ، حينئذ فقـط ، رأى على نور الجمر الأحمر ، بعيدا ، جد بعيـــد ، جسد الضابط الايطالى صريعا الى جانب السياج ، وقد زرع سهم بين عينيه الزجاجيتين . وتعثرت أسنان « بايتوس » بخاتم أمه الفضى ومال فرأى وجه أخيه ، تحت ذلك الوشاح الذى كان سرقه من الضابط بعد موته ليتدثر به .

ويطلق صانع الأقواس آهـــة غير انسانية . وكالسكران يصطدم بالسياج المبنى من جذوع الشجر ، ويأخذ يعدو نحو الوهـــدة ، باتجاه نيران الهنود . وتجحظ عيناه ، تخرجان من محجريهما وكان ذراع أخيه المشوه يسد حاقومه ويفجره .

لعب العيال

قصة

بقلم : وصفى آل وصفى



أمى ، وأختى ، وأخى ، وعمتى ، وزوجها ، وأنا ..

اجتمعنا فى غرفة الضيوف ، نشرب الشاى ويلامح بعضنا البعض . كنت اعرف سبب الاجتماع ، فقد حدثتنى أمى ، وجادلتنى وتركتنى مستاءة ... وطاردتنى أختى ، حاورتنى ، وضايقتنى مداعباتها طوال الأسبوع .. « لو أعرف فقط من تحبين ؟! أحد أمرين ، تحبين .. أو مجنونة ! » .. وكلمنى أخى .. عنفنى ، ثم هددنى بأن يستعمل «سلطته» باعتباره ولى أمرى المسئول عن مستقبلى ! أما عمتى وزوجها فكان وجودهما أمرا طبيعيا .. وهو صديق الحاج نصيف جمعتهما الوظيفة حتى احيلا الى المعاش فجمعتهما قهوة «المالية» ، وهى صاحبة الحاجة سنية «الروح بالروح» ، والحاج نصيف والحاجة سنية والدا عمر .. الدكتور عمر ، والدكتور عمر أو بتعبير أدق أنا والدكتور عمر سبب الاجتماع .

كنت أحب الشاى ، يلذ لى أن ارشفه على مهل ، بيد ان ضيقى وتوترى عطلا استمتاعى به فتجرعت

فنجالى وتناولت كيس الصوف أشغل يدى ريثما يهجم «المتآمرون» ..

وكانما كانت أمى تنتظر حركتى هذه ، فما كدت أعقد بضعة غرز حتى اهابت بى :

ـ سعاد ، دعى الصوف .. واشتركى معنا .

لم يكن يسعنى أن اتجاهل كلامها ، فارخيت يدى فى حجرى ورفعت وجهى أمس عينيها بضراعة صامتة .. لكنها تفادت نظرتى واستأنفت على الفور :

ـ ليس بيننا غريب ، أخوك واختك، عمتك وعمك .. كلنا تهمنا مصلحتك. عمتك تطلب ردا ، الدكتور عمر أمه كلمتها ثانية .. نراه مناسبا ، فما رايك ؟

وابتسمت رغما عنى ، اجبتها فى صدرى : على خيرة الله ، مادمتم ترونه مناسبا . مبروك ، تزوجوه ! وأبتسمت رغما عنى .. واذا عمتى تهلل : «البدر ابتسم ياجماعة ، زغردى ياأم محمود .. أم ازغرد أنا » !

ذعرت .. خشيت ان تستجيب امى لصيحتها ، أو ان تفعلها هى . كدت ارجوهما ان يشفقا على ويرأفا بى، ثم تذكرت اننى عاهدت نفسى ان الزم الصمت فلا أنبس بكلمة فى هذا الاجتماع؛ لقد تداولوا وتشاوروا وقرروا عقد اجتماع عاجل ».، دون أن يصارحونى طبعا بانهم ينوون « الضغط » على .. فليتكلموا هم اذن ويكفى أنى أستمع ! والهيت نفسى بالتفكير ، حتى اسمع جديدا .. قلت اطمئنها : فيم الخوف والذعر ؟ فلتزغرد أمى وعمتى ، لتزغرد اختى ، ليزغردوا جميعا ومعهم أخى وزوج عمتى .. فانا فى حمى القانون. لن يستطيعوا معى شيئا ما لم أرض عمر .. الدكتور عمر ، زوجا . واذا كان ثمة من يجب أن يخاف ، يذعر ، فهو الدكتور عمر ، العريس الذى يريدون أن يزوجوه انسانة لاتحبه .. يريدون؟ الذى يريد أن يتزوج انسانة لا تحبه !

وجاءنى صوت اخى، خشنا أن تنتفض نبراته فتنم على ما يدارى من غضب :

ـ سعاد ، اسمعى .. لم تعودى صغيرة . انا لم أكتف بكلام زوج عمتك، سألت عن الدكتور عمر الكثيرين ... وأنت أيضا قابلته أكثر من مرة .. ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟

رفعت اليه وجهى أعاتبه فلم يفهم نظرتى ، كان من العسير عليه أن يفهم .. فأغمضت عينى أبتهل : أنقذنى يا رب ، احمنى من أخى ... ودع لى الباقين !

وصاحت أختى ثملة بنزق آخر العنقود :

ـ صحيح .. ماذا تريدين أكثر من ذلك يا سعاد ؟!

فنظرت اليها فى صمت . أستمع الى ذهنى يرد عليها ساخرا : أريد أن أحبه! الرجل الذى سوف أمنحه جسدى وروحى ، حياتى ، لا بد أن أحبه . قد يكون عمر شابا طيبا ، لا عيب فيه ، ولكن هذا لا يكفى يا سوسن . انا لن اتزوج الا رجلا أحبه ، أعرف عن يقين

انه .. أننى أحبه . والحب يا سوسن شىء آخر غير تلك الأغانى التى ترددينها رائحة غادية ، الحب ...

وتكلم زوج عمتى :

ـ اسمعى يا سعاد يا بنتى .. والله لولا أننى أعرفه جيدا ، وأعرف اباه ، لما تدخلت .

وعقبت عمتى :

ـ والله لو المرحوم والدك يعيش لأعجبه ، دكتور وشاب .. وأدبه لا يعلى عليه .. ماذا تتمنى الواحدة أكثر من هذا ؟

ورقص لسان سوسن فى فمها فاطلقته :

ـ الحب ياعمتى.. هو موظف تشغله عندها؟ ألا تذهبين الى السينما ياعمتى؟!

فصرخ أخى يزجرها :

ـ سوسن ! كفى .. عيب الكلام الفارغ! كبرت على لعب العيال، احترمى نفسك ..

وشرد فكرى : مسكين أخى ، مسكين حقا .. زوجوه بطريقة « محترمة » أكبر بكثير من لعب العيال ! زفوه الى منيرة، زوجوهما .. زوجتهما العائلتان لمجرد أنها جميلة وأصيلة وأنه شاب ومهندس وأدبه لا يعلى عليه . وقضى شهر العسل فبدءا « كوميديا الاخفاق » المحزنة ، وحاولت الأسرتان بطبيعة الحال أن توفقا بينهما بكافة الطرق .. باية طريقة وأى شكل .. فلم تفلحا . ومع ذلك لم يجرؤ أحد على الاعتراف بأنه لا «يريد» منيرة ، وأنها هى أيضا لا « تريده » .. حتى وقع الطلاق !

ويبدو أننى نسيت ، أشحت بوجهى ومصمصت بشفتى ، وخاطرى يعاتب أخى : حتى أنت يامحمود ، أنت «تضغط» على .. بعد التجربة ؟ لا بد أنى فعلت ذلك دون انتباه ، فقد لطمنى صوته يزمجر فى كبرياء غبية وهو يلوح بيده الى ناحيتى :

ـ والله عال ! كلامنا لا يعجبها !

وتحرك لسانى ، ولكننى لم أسمع صوتى ، تعلقت بحلقى غصة .. نبض عنقى .. واختلج أنفى، والتهبت أذناى، طرفت بعينى فذابت دموعى وبكيت ..

***

كان بكائى ايذانا بفشل الاجتماع..

نطت سوسن تحتضننى وتقبلنى .. حسبتنى أفتعل البكاء لأنجو بقلبى فجعلت تحتضننى وهى تردد : « خلاص يا حبيبتى ، ولا يهمك .. لا تريدينه ؟ خلاص .. لا تأخذيه ! » ، ثم تقرصنى وتميل فتقبلنى لتهمس : « دموع ... بكاء .. مزيدا من الدموع والبكاء » !

كاد صدرى أن ينفجر بالضحك ، لولا أن أخذنى رد فعل حاد فصرخت.. وجريت الى غرفتى وأغلقت الباب . وارتميت على فراشى أدفن وجهى فى وسادتى الحبيبة ، وسكبت ما تبقى من دموعى . ومضى بعض الوقت وأنا منكبة على وجهى فيما يشبه الحلم ، كانت الأصوات تاتينى من غرفة الضيوف مجرد حسيس لا شكل له ولا معنى ،



فانصرف انتباهى عنها تدريجيا وراح يجتر بعض المواقف مما أفضى بنا الى اجتماع غرفة الضيوف ..

هذا عمر .. الدكتور عمر ، أول مرة شاهدته عندما ذهبت الى عيادته مع أمى . بعد ما عاد من الخارج ترددت عمتى الى منزلنا تلح على أمى أن « تجربه » ، وذات يوم سألتنى أمى :

ـ سعاد ، ما رأيك .. أفكر فى الذهاب الى الدكتور عمر فقد أرتاح معه أكثر ؟ وابتسمت فعادت تسألنى :

ـ ما يضحكك ؟

ـ أبدا ، نذهب اليه فقد ترتاح عمتى !

وذهبت معها ..

وخرجنا من عيادته ووقفنا ننتظر المصعد ، فقالت أمى :

ـ يبدو ابن حلال ، وظريف .. أليس ظريفا يا سعاد ؟

وعبست أصطنع الدهشة ، وقلت أداعبها :

ـ مستحيل ؟

ـ ما هو المستحيل ؟

ـ صغير يا ماما .. عليك !

فضحكت تلقننى درسا خفيفا فى الأدب ..

وبعد أسبوعين صحبتنى الى عيادته للمرة الثانية ، فلاحظت أنه يخاطبنى بطريقة رسمية يشوبها ذلك البرود

الذى يشيعه فى أحاديثنا عدم الاهتمام· لم يتغير شىء من طريقة معاملته لى فى المرة الأولى ، غير أننى تذكرت حديث أمى عن ظرفه فراقبته · كان ظريفا حقا ·· مع أمى ، اما معى فكانت العبارات القليلة التى استقبلنى وودعنى بها خالية تماما من أى ظرف أو تظرف!

استراحت أمى الى الدكتور عمر ، فأصبح طبيبها ·· وطبيب العائلة فيما لا يستلزم أكثر من استشارة تليفونية· وكنت أرافقها كلما ذهبت الى عيادته ، حيث أجلس كشخص أجنبى ·· أعجب لهما يتبادلان «السلامات» و «الدردشة» كصديقين قديمين وأحاول أن أتذكر أين قرأت أن « المرأة مخلوق رقيق تأسره المعاملة الرقيقة » ! وانقشع البرود عن معاملته لى تدريجيا ، فصار يبتسم وهو يخاطبنى ·· وهو يرحب بى ··· وهو يودعنى، بيد أنه لم يتخفف من الرسمية ولم ينبسط معى أبدا · وتنبهت بعد حين الى أن أمى تغالى فى الاهتمام بزينتى كلما حان موعد ذهابنا الى عيادته ، واستفز تصرفها هذا كبريائى فكنت أتعمد الاهمال ·· وبين اهتمامها المكشوف وعنادى اندلع الكثير من الخلاف والمناقرة والنكد والغضب ·

وبدأت عمتى تكثر من زيارتنا ، وتطيل الزيارة ·· وتفتح « سيرة » عمر فتمدح وتطنب . وفى النهاية ظهر زوج عمتى ، وانتظمت زياراته مع عمتى ·· مما ألهم سوسن الكثير من التفسيرات المضحكة لما طرأ على الدنيا فتسبب فى هذه المحبة الجارفة بعد أن كانت ظاهرة موسمية لا تهب علينا فى غير الأعياد !

وذات مساء، وأنا أصبغ شعر أمى·· سألتنى :

ـ سعاد ، جدا ·· ما رأيك فى الدكتور عمر ؟

كانت سوسن فى الغرفة المجاورة تذاكر ، ولعلها كانت تطالع محاضرات الشريعة ، فسمعت السؤال وتطوعت بالسخرية :

ـ حدثتنا عمتى ، عن زوجها ·· عن أبى عمر ، عن أمه ، أنه لا قبله ولابعده! كلها أحاديث ضعيفة ، ضعيفة للغاية!

وضحكت ، غير أن أمى استحثتنى همسا : « دعك من سوسن ، أسأل جدا ·· ما رأيك فيه ؟ » ·· وحدست فى تلك اللحظة أن المحظور معلق فوق رأسى كسيف ، « داموكليس » ··· المحظور ؟ طبعا ، كل ما يتعس الانسان محظور ، والزواج على غير حب يتعس الانسان ، وعمر ·· وأنا لا أحب عمر..

وفجأة ، قبل أن أجيب ، أسندت أمى رأسها الى صدرى تقول فى صوت واهن : « سعاد أسنديني ، أنتفض ·· أدوخ ·· يا سعاد » فألقيت فرشاة الصباغة واحتضنتها أنادى سوسن لتستدعى الدكتور عمر · ثم شغلت بأمى حتى رقدت ، وصعدت الى جوارها أعتنى بها وأدللها ·· وأهدهد مخاوفى·

أسرع عمر الينا فاستقبلته سوسن وقادته الى غرفة أمى ، ونادتنى قبل أن يدخلا ولكننى لم أنتبه الا وهو يلمس كتفى ويستأذننى : « لو سمحت ·· ». وارتبكت ، وهبطت من الفراش وفى

وجنتى حياء يلتهب • وتقدمت سوسن تقف أمامى وتحجبنى، أتاحت لى الفرصة لأنسحب ، ومع ذلك لبثت فى مكانى لا اتحرك ••• حافية عارية الكتفين متوهجة الخدين• ومضت لحظات ثم تكلم، لم يوجه حديثه الى أى منا •• قال فى هدوء دون أن يلتفت الينا : « سليمة باذن الله ، أنفلونزا حادة بعض الشىء• مياه ساخنة لغلى الابرة لو سمحت وغطاء آخر •• » ، فاستجبت فى الحال وخرجت أهرول •

وبعد أيام انفردت بى أمى وبدأت المعركة ، أخبرتنى أن أمه طلبت من عمتى أن تجس « النبض » وتمهد «الجو» وتتعرف شروطنا ورغباتنا •• ورفضت أن أتجاوب معها فجادلتنى طويلا ثم غاضبتنى مستاءة• وذاع الخبر فطاردتنى سوسن تعلق بلسانها الساخر ، ثم تبعها محمود يجرب الأمر والزجر •• فلم أضعف • قلت لهم جميعا ، لا ، لا •• لا •• وأبيت أن أصارحهم بسبب رفضى• كان من الممكن ان أقول ببساطة: لا يحبنى ، لا أحبه ، بهذه الطريقة لا يمكن أن أحبه •• لو أن أمى كانت تقرأ فيتطور فهمها للزواج ، لو أن أخى كان قد تعلم من تجربته فآمن بالحب ، لو أن سوسن كانت تعرف ما هو الحب •• الحب الحقيقى لا حب العيون الكحيلة والشعر الحرير !

لو •• لو ••

لو أننى أحب عمر ••

لو أنه يحبنى ••

ونمت ••

***

أصبحت فكان أول ما خطر ببالى أن اليوم موعد ذهاب أمى الى عيادة الدكتور عمر لقياس « الضغط » ، ثم تذكرت•• ومع الذكرى أخذتنى الحيرة وأسلمتنى الى فكرة : ترى هل أصاحب أمى اليه كالعادة ، أم أمتنع فتحل محلى سوسن؟ لكن ماذا تراه يظن بى اذا لم أذهب ؟ سوف يحسبنى أعانى خجلة تمسكنى عن مقابلته ، سوف يذهب به الظن مذهبا أو آخر •• وسوف يسوؤنى أن يذهب به الظن أى مذهب • لا بد اذن من مواجهته ، أجل أذهب فأواجهه ، كلانا مثقف ، نعيش فى نور القرن العشرين•• لن تتعجل عمتى فى الاعتذار الى أمه ، فاذا ذهبت اليه اليوم وأبلغته الرفض بنفسى كان ذلك درسا لاينسى!

استقر رأيى فأزحت الغطاء بقدمى ووثبت من الفراش ، وفتحت النافذة وشرعت أمارس رياضتى الصباحية وأناقش موقفى معه: كيف أبدأ حديثى؟ كيف أحاوره اذا حاورنى ؟ كيف أغلق باب الخطبة فى وجهه بحيث لا أدع مجالا للبس •• ولا أحرجه ؟ وأخيرا وقفت أمام المرآة أسوى شعرى وأتأكد من وضوح الهالتين الداكنتين حول عينى ، كان على أن أحتال لأمى ، فلئن استنفرت حنانها ظاهرتنى ووقتنى الكثير من طيش سوسن وعنجهية محمود وتطفل عمتى!

وغادرت غرفتي فوجدت أمي تستمع الى «ربات البيوت» ، لم تشعر باقترابي فأخذت أدعك عيني ٠٠٠ وقلت وأنا أجتهد أن يخرج صوتي بليدا :

ـ صباح الخير يا ماما ٠٠

وفي الحال اندفعت يدها الى مفتاح المذياع فأسكتته ، والتفتت الى تقول في لهفة :

ـ صباح الخير يا سعاد ٠٠٠ هكذا يابنتي ؟ أغضبت أخاك ، وعمتك ٠٠ من يفعل فعلتك ؟!

كان غاية ما أريد أن يتهدج صوتي وأنا أجيبها ، ولكنني لم أكد أفتح فمي حتى غلبني الانفعال فبكيت ٠٠ وانهرت راكعة أخبيء وجهي في حجرها وانتحب :

ـ ماما ! لماذا ؟ ماما ٠٠ ماما !

وفي حنان انسابت كفاها على شعري فاحتضنتا ذقني ، وقالت تعاتبني كأنما تخاطب طفلا غريرا :

ـ عيب يا سعاد ، عيب ٠٠ لم تعودي صغيرة ! كم مرة وأنت ترفضين خطابا لا عيب فيهم ٠٠ هي البنت مالها غير الزواج ؟

انحسر عني الضعف في لحظة ، ونفضت رأسي فاقمتها ٠٠ وأمسكت ركبتيها أصيح :

ـ ماما ٠٠

ـ عيني يا بنتي ؟

ـ كيف سأتزوج عمر !

ـ كما تتزوج الناس يا بنتي ٠٠

ـ والناس ٠٠٠ كيف تتزوج من فضلك ؟

ـ يخطبون ، يكتبون ويدخلون ٠٠

ـ دعك من الخطبة ، ماذا يفعلون في كتب الكتاب ؟

ـ يتعاهدون ، يهبون أنفسهم لبعضهم ٠٠

ـ وماذا يفعلون في الدخلة ٠٠ لو سمحت ؟

انفرجت شفتاها لتجيب، ثم انطبقتا. وابتسمت تهز رأسها ، ومدت يدها تقرص وجنتي وتراجعني :

ـ لا ٠٠ زدتها حبتين ، ارزني يا سعاد ٠٠٠ قومي اغسلي وجهك وكلي لقمة ثم تكلمي عمر يا سعاد ٠٠

وقبل أن تحدثني عن عمر قفزت أقاطعها :

ـ أنا أحكي لك عن الدخلة ٠٠٠ ما يحدث في الدخلة ! في الدخلة يتحدون ٠٠٠ البنت تعطي زوجها كل شيء ٠٠ جسمها ٠٠ كل ذرة فجسمها، وروحها ٠٠ كل همسة في روحها ٠ والشاب يعطي امراته كل شيء ، جسمه ٠٠ كل ذرة ٠٠

ـ وماله يا بنتي ٠٠ هو حرام ؟

ـ وأبو الحرام لما واحد من الاثنين يكون ٠٠ أعني لا يحب الثاني ، غصب أو استسلام أو شهوة ٠٠

ـ يتحابان بعد الزواج ، بعد الزواج الواحدة يا بنتي ٠٠

وفجأة هجمت عليها أقول :

ــ ماما .. اعطني قبلة !

فرفعت يديها الى صدرى بحركة تلقائية تصدني برقة :

ــ ارزني أولا وأنا أقبلك مائة قبلة.

ــ أرأيت ؟

ــ رأيت العجب يا سعاد !

وابتعدت عنها لأجلس وأكلمها على مهل :

ــ لا عجب ولا دهشة .. اذا كانت قبلة واحدة لا تريدين أن تعطيها لى « أنا » غصبا عنك .. كيف تريدينني اذن أن أعطى جسمي كله وروحي كبها لعمر غصبا عني؟ ارزني وأنا أقبلك مائة قبلة .. يعني ؟ لما أرزن أعجبك ، ترضى عني تحبينني .. ولما تحبينني تقبلينني أليس كذلك!؟ بعد الزواج.. واذا لم يتحابا بعد الزواج ؟ ولم نذهب بعيدا ؟ هذا محمود .. أدب أصل .. كمال، ماذا ينقصه؟ ومنيرة أيضا، لايعلا عليها .. أليس كذلك ؟ لم يتحابا من الاول يا ماما ، تزوجا على فكرة فيما بعد .. بعد الزواج ، والهيبة خيبة !



وسكت أناملها ، واستمتع بلذة الشعور بالغلبة ، فتنهدت تقول :

ــ والله يابنتى لاأعرف ، أنا علمتكم وخلص ضميرى يا سعاد يا بنتى. لكن عمر يحبك يا سعاد ، والله يحبك . لو تسمعين كلام عمتك.. كيف نتصرف يا سعاد ؟ كيف نقول له يا بنتى سعاد لا تحبك !؟

أمي ، وأختي ، وأنا ، والضيوف : عمتي وزوجها والحاجة سنية ٠٠ وعمر ٠٠ جمعتنا غرفة الضيوف ، نشرب الشاي ونتبادل المجاملات ٠٠

عمر !

لم أكن أعرف سببا يبرر حضوره مع والديه لزيارتنا بعد ما دار بيننا من أسبوعين ، صحيح أن أمي انصاعت لوسوسة عمتي فأخذت أخي وذهبت تزورهم « حتى يبقى الود ٠٠٠ وان رفضنا » ٠٠ لكنني أجبته بنفسي فكيف يأتي معهما ليجلس قبالتي في هدوء يبتسم كأن شيئا بيننا لم يكن ؟!

ثم انني لم أعرف بخبر هذه الزيارة الا ظهرا ، ونحن نتناول الغداء قال أخي فجاة ينبيء أمي : « ماما ، الحاج نصيف والحاجة سنية يزوراننا بعد الظهر ٠ الدكتور عمر كلمني في المكتب ، هو حاضر معهم » ٠٠ فاذا هي تجاوبه ببساطة : « أعرف يا بني ، عمتك كلمتني » ٠ وصرخ كياني يحتج ، الا أنني حشرت شفتي بين أسناني وكظمت ثورتي : هكذا ؟ دون مراعاة لشعوري؟

ويقولون ان المرأة تحررت ! حسنا ، فليأت ٠٠ اليوم وغدا وكل يوم ٠ هو عمر وأنا سعاد ، لن ينال مني شيئا عن طريقكم أبدا ٠ تآمروا ، تآمروا ، تآمروا فلن أتزوجه الا اذا أحببني ٠٠٠ اعترف بوجودي ٠٠

وأتى ، وجلس قبالتي يرشف الشاي في هدوء ويبتسم !

وتناولت كيس الصوف أحرق ضيقي اضطرابي ، أعقد غرزة وأحل غرزتين ٠٠ حتى تظرفت عمتي تقول :

ـ وبعدين معك يا سعاد ! عليك ذنب يا بنتي ٠٠ شغل شغل شغل ؟! دعي التريكو قليلا يا شيخة وتسلي معنا ، أسمعينا كلمة ٠٠ حكاية ، أي شيء ٠

كان من الجائز أن يتأول عمر صمتي فتشوبه شبهة خجل أو استخذاء ، فارخيت يدي أطيعها :

ـ حاضر يا عمتي ، لا مؤاخذة ٠٠

ورفعت عيني فبغتتهما ابتسامة عمر، ونقلتها الى وجه عمتي فأثارتني نظرتها المتعطفة ٠ وتشبثت نظرتي بعنقها ، أتصور أصابعي تخنقه بخيوط الصوف الى أن تقسم ألا تعود تتدخل فيما لا يعنيها ٠٠ وتبينت سوسن بوادر نقمتي فهبت لانقاذ الموقف :

ـ دعك منها يا عمتي ، أنا أحكي لك نكتة ٠٠ تحبين النكت طبعا ياعمتي !؟

وتنهدت عمتي ، ونظرت الى أمي وهي تزم شفتيها فتكومهما على أحد جانبي فمها .. ثم اجابت بامتعاض :

ـ احكي يا سوسن ، احكي يابنتي!

ـ مرة كانت واحدة تحب بنتها بشكل غير عادي ، الحقيقة هي كانت عمتها لكن حتى لا تغضبي يا عمتي ٠٠ وفي يوم أرادت أن تكحلها ٠٠

اكتفيت بهذا القدر من نكتة سوسن، وذهبت أسترجع ما حدث غداة اجتماع غرفة الضيوف الأول منذ أسبوعين ٠٠

كنت قد أفلحت في التأثير على أمي

فسلمت أو كادت ، قبل أن تستدرك ٠٠ « لكن عمر يحبك يا سعاد ٠٠ كيف نقول له يا بنتى سعاد لا تحبك ؟! » ٠ اذ ذاك كان من السهل أن أتظاهر بالتفكير فى مخرج لهذا المأزق ، فاشرد قليلا ثم أقترح عليها أن أواجهه بنفسى وأنهى الأمر معه ٠ وكم كانت دهشتى عندما تنبهت الى أننى شردت فعلا ، أتخيل عمر وقد فاجأته فلم يملك الا أن يحتج فى حيرة : « لكننى أحبك ياسعاد، والله أحبك ٠٠ » ٠ غير أننى استطعت أن أسترد شارة وعيى بسرعة ، وقلت أهون الأمر :

— المسألة بسيطة ٠

— بسيطة ؟ كيف يا سعاد ؟

— اذا كان لا يمكنكم أن تقولوا له ذلك فيمكنني أنا ٠٠٠

— أنت ؟!

— من غيرى ؟ اليوم موعد قياس الضغط ٠٠ أذهب معك وانتهز الفرصة وأكلمه ٠

فما كان منها الا أن ضربت صدرها تصيح :

— يا خبر يا سعاد ٠٠ والله كان أخوك يذبحنا ! واحد يريد أن يخطبك فتذهبى اليه لتقولى له أحبك ولا أحبك ٠٠ من يسمع بهذا ؟!

أخذت بثورتها لحظات ، ثم أدركت سذاجتى وغبائى : كيف ؟ كيف أجاز عقلى احتمال أن تقر أمى مثل هذه الحماقة ؟ ربما لو كنت فاجأتها فى العيادة وتحدثت الى عمر ، ربما سكتت عندئذ ٠٠ أمام الامر الواقع !

وصلصل جرس التليفون فقمت أجاوبه ، واذا عمتى تسأل عن صحتى! وبينما أنا أداورها خطرت ببالى الفكرة: التليفون ! أكلمه فى التليفون ، واوفر عليه حرج مواجهتى وأنا ارفضه ٠٠

***

ارغمتنى قهقهة عمتى العالية على الانتباه ، ووجدتهم يضحكون جميعا فساهمت ببعض ضحكات فاترة ٠٠

واستأنفت سوسن :

— نكتة أخرى ، هيه ؟!

فصدها محمود والابتسامة تغيب عن شفتيه :

— كفى يا سوسن ، كفاية ٠٠

عزت سوسن كتفيها وقلبت شفتها السفلى وعلقت حاجبيها ، وتراجعت فى مقعدها تقول وهى تقلد حركات مغلوب على أمره :

— أمرك يا باشمهندس ٠٠ أمرنا لله يا باشمهندس !

وخيم الصمت ، ثم تكلمت أمى تحيى ضيوفها : « أهلا٠٠ أهلا ٠٠، آنستم » ٠٠ واختلست النظر الى عمر فضبطنى، ضبطتنى عيناه ٠٠ كان يبتسم لى ، يشعل لفافة وعيناه على وجهى تبتسمان ٠٠ وحولت وجهى أنصت الى عمتى تقول : « أهلا يا حاجة ، زارنا النبى والنبى ٠٠ » ، وزوجها يردد وراءها :

« شرفت يا حاج ، شرفت يا دكتور ، شرفتم ٠٠ » ٠

ولاحقتني نظرات أمي حتى اصطادت عيني ، تومىء الى طبق البسكويت وتحدق ٠٠ ولم أتحرك فحسبتني لا أفهم ، واستمرت تومىء وتخز عيني ، فلما ضقت ذرعا باصرارها رميت به الى سوسن :

ـ سوسن قدمي ، عمتك لم تأخذ شيئا ٠٠ والدكتور !

وقامت سوسن فقدمت الطبق الى عمر ، وأخذ واحدة فرابطت تلح أن يأخذ ثانية :

ـ تفضل ٠٠ واحدة أيضا ، هذا بسكويت سعاد ! تفضل ، رطل ونصف لبن ، ثلاث أقات دقيق زيرو ، على رطلين سمن وعشرين بيضة ٠٠ بالله ماذا تفعل ؟ ليسانس الآداب في الدولاب أخونا أخته لا تشتغل !

وضحك عمر ، وضحكت ٠٠ حبيبتي يا سوسن !

لم تقنع سوسن ، استخفها نجاحها في اضحاكنا فدارت تحكي قصة بسكويت سعاد باضافات جديدة : كيف يعجن ، كيف يسوى ٠٠ وكيف يؤكل ! وانتهزت فرصة فوضى الضحك ونظرت الى عمر ، وضبطته ، ضبطت عيناه على وجهي تبثان عيني ابتسامة دافئة ٠٠ عالجت أن أقاومها ، أصدها ، أنكر الطمأنينة التي تربت بها قلبي ، فلم أطق ٠ لم يسعني الا أن أجذب نظري الى لوحة وراء ظهره تمثل أمي والمرحوم أبي في ثياب زفاف مطلع القرن العشرين، ومع ذلك لم تفارق ابتسامته عيني ٠٠ اختفت صورة أبي من اللوحة تدريجيا وانطبعت مكانها صورته ٠٠٠ وذكرت حديثي معه من أسبوعين ، طفا الى سطح فكري فتناوله خيال سماعة التليفون يرد علي :

ـ آلو ٠٠

ـ آلو ٠٠ دكتور عمر ؟

ـ دكتور عمر يا هانم ٠٠ أي خدمة ؟

ـ صباح الخير يا دكتور ، أنا سعاد عبد السميع ٠٠

ـ أهلا ٠٠ أهلا ٠٠

ـ دكتور عمر ٠٠٠

ـ نعم يا آنسة سعاد ، خيرا ، كيف حال الوالدة ؟



ـ دكتور عمر ، حضرتك طلبت يدى وانا ٠٠٠

كنت اتوقع انني لن أكاد أنهيعبارتي حتى يبادر بالــكلام فاكتفي أنا بالرد والدفاع ، لذا ســكت ٠ غير أنه لبث صامتا بعض الوقت ، فلما تكلم بدا لى صوته مضطربا ٠٠ قال :

ـ لى الشرف يا آنسة سعاد ، لكن ٠٠ أنا يسعدنى ٠٠ لكن ٠٠ الواقع ٠٠

ـ أنا آسفة يا دكتور ٠

ـ ٠٠٠

ـ أنا آسفة !

ـ ممكن ٠٠ ممكن أعرف السبب ؟

ـ دكتور عمر ٠٠ أظن انك فاهم !

وللمرة الثانيــة لم أتلق جــوابا ، فاستجمعت شجاعتى بسرعة :

ـ أظن يا دكتور الزوجين لا بد أن يحبا بعضهما ليستطيعا ٠٠ ليستطيعا أن يواجها الحياة معا ٠٠

ـ يعنى أنت ٠٠٠

ـ أنا آسفة ، أنا أحبك ٠٠ قصــدى اعزك ، قصدى كأخى ، لكن ٠٠٠

ـ آنسة سعاد ٠٠ يمكنني أن أسأل سؤالا جريئا ؟

ـ تفضل ، لست محجبة !

ـ شخص آخر ؟

ـ لا ، لا أبدا ! لكننا ...

ـ لكننا ماذا ؟

ـ لا نكاد نعرف بعضنا ٠٠

ـ لا نكاد ٠٠٠ تقابلنا عدة مرات ، وأنا ٠٠ الحقيقة ٠٠٠

وفجأة سكت كما لو كان قد اقتنع بوجاهة اعتراضى ، وانتظـرت أن يتم حديثه فلما طال صمته تساءلت وأصابع يدى الخالية تلف خصلة من شـــعرى وتشدها :

ـ خلاص يا دكتور ؟

ـ خلاص يا آنسة سعاد ، أنا آسف٠

ـ لا مبرر للأسف ، هكذا أحسن ٠٠

ـ فعلا أحسن ٠

ـ أنا شاكرة ٠٠

ـ العفو ٠

ـ عن اذنك ٠٠

ـ تفضلى ، سلمى على الوالدة ٠

ـ يصل ، عن اذنك ٠٠

كنت أعلم أن « الاتيكيت » يسمح لى أن أضـع السماعة أولا ، ومع ذلك لم أضعها الا بعد أن سمعت صوت انقطاع الاتصال من ناحيته ٠ ثم لم أكد أضعها حتى انقبضـت نفسى ، ودخلت غرفتى فانزويت ٠ كنت اعتقــد اننى أنهى بتصرفى هذا الأزمة التى سببها مشروع خطبته لى عن طريق محور «أمه ـ عمتى» فوجدتنى أرقد آخر اليوم وفى صدرى أزمة جديدة لا أعرف لهـا على التحديد سببا ٠

لماذا ؟

غمة وانتهت٠٠ ففيم انقباضى ، قلقى وحيرتى واضطرابى ؟

كان محمود لطيفــا ، لم يشر الى الموضوع بكلمة بعد عودته من عمله ٠٠ كذلك لم تقل أمى شيئا ، لم تحاول أن تستأنف حديث الصباح او كلامالبارحة ٠٠ وسوسن أيضــا خففت من لغوها وسخريتها ، وقصرتهما على معاكستــى بنظراتها وسعالها بين الحين والحين !

وعمر كان مهذبا ، هادئا ، رصينا ، لبقا ٠٠ فلماذا أحجمت عن الذهاب مع أمى الى عيادته مساء ؟

لماذا جثم على صدرى شعور الخيبة ، وارهقنى ·· فلم يجرنى منه سوى ظلام الندم ! لماذا ·· وقد رفضت غيره من قبل ونعمت بالراحة ؟!

لماذا ؟ لماذا ؟

لأننى أحبه ! كنت أحبه من البداية !

عرفت ذلك بعد أسبوع من الضنى والسهاد ، بدأت المعرفة شكا لم يزل يراودنى فارفضه فيعاودنى الى أن رضخت وسلمت · وفى هذه الأثناء كانت عمتى تعمل جاهدة على اقناع أمى بضرورة تأجيل « الرد » ، والذهاب معها لزيارة الحاجة سنية · ولم تكن أمى بحاجة الى من يقنعها بان العريس «لقطة» ، ولكنها ظلت مترددة بشأن الزيارة الى آخر لحظة · ومن خلال أحاديثهما التى كنت أستمع اليها اتفاقا ـ وقصدا ـ استنتجت الحقيقة المخزية : أن عمر لم يعهد الى أمه بطلب يدى ·· غاية الأمر أنه صارحها باعجابه بى وحبه لى ·· ربما ، فما كان من عمتى الا أن نشطت تعرض عليها صورى وتحدثها بمحاسنى وأخلاقى ·· ومهارتى ، وانتزعت منها تفويضا بجس « النبض » وتمهيد « الجو » !

وجن جنونى ·· وانزويت عاجزة لا املك أن أرد أمى عن جر أخى والانطلاق وراء عمتى ، قصرت شجاعتى عن احتمال هوان مصارحتها بأننى كلمت عمر ورفضته وهو الذى لم يطلبنى ! وهكذا انتصرت عمتى ، وعشت الأيام التالية فى حالة من البلبلة والتمزق لا أزال اذكرها فافزع : أحبه ، لا أستطيع أن أنبس بكلمة ·· يظننى لا أحبه !

كنت لا أزال أنظر الى خيال عمر فى اللوحة وراء ظهره عندما سمعته يقول :

ـ مصادفة غريبة ، آخر سنة لى فى المانيا كنت أسكن مع عائلة بنتها الكبرى ·· لن تصدقونى ، صورة طبق الأصل من الآنسة سعاد · حتى أنى أول مرة شاهدت سعاد كاد لسانى يسبق ويقول ايفا ··

وسبق لسان سوسن يعلق :

ـ حلو ، رائع ·· ايفا عبدالسميع !

فزمجر أخى كهر وطئوا ذيله :

ـ سوسن !

وخفت أن يحرج عمر ، فاذا هو يلتفت الى سوسن يبتسم ويجاوبها بلهجة طبيعية وكأن هرنا لم يزمجر :

ـ لا حلو ولا رائع يا سوسن ،الحقيقة شمسنا ونسيمنا وسكر النيل ·· هذا كله يلون جمالنا بعذوبة مختلفة تماما · يجوز فى أعيننا ، لكن ·· لكننا لا نرى الا بأعيننا ·

كانت كلماته الأخيرة موجهة الى ، فبينما هو يختم عبارته دارت نظرته تدغدغ وجهى وتطل فى عينى ·· وأحسست سخونة الحياء تسرى فى وجنتى ، وتداعى الى خاطرى موقفى يوم مرضت أمى فبادر الينا وفاجانى حافية عارية الذراعين ·· بيد أننى لقيت فرصتى لأتكلم فلم أدعها ، قلت وأنا أغالب خجلى :

ـ لكن العينين يا دكتور لا تكشفان جمال الروح والعقل ·· وهما الأهم !

فأشرقت عيناه بفرحة ظاهرة يرد على :

ـ والله ان كانت غاية العينين النظر ·· مجرد عملية النظر السطحية ، فالحق معك · لكن هذا استعمال خاطىء للعينين

٠٠ المفروض أننا ننظر لنعرف ، لنقارن، لنستنتج ٠٠

واحتجت سوسن :

ـ لكن هذا موضوع آخر يا دكتور ، لامؤاخذة ٠٠ لو أنك اندفعت فى المناقشة مع سعاد فلن نسمع أبدا حكاية صاحبك عبد السلام !

فضحك عمر ، وقال ونظرته معلقة بعينى لا تتحول :

ـ حلمك يا سوسن ، يا آنسة سعاد ٠٠ الواقع أنك قلت نفس الكلام الذى قالته ايفا لصاحبى المهندس عبدالسلام٠

ووجدتنى أسأله :

ـ وبعد ؟

ـ الحقيقة أنه طلب يدها هكذا فجأة من غير مقدمات ، صحيح أنه منذ زارنى فرآها وقدماه تعمقان أثرهما على سلم المنزل ٠٠ لكن المناسبة لم تسنحليجلسا معا أو يخرجا معافيتعرفا بعضهماالبعض ويتقاربا ٠ وفى يوم عزم وتوكل ، ووقع عليها كالسبع ٠٠ وأعطنى يدك يا ايفا ! صاحبتنا ظلت تضـحك أسبوعا ، ثم أرادت أن تشعره بلباقة بالأمر ٠٠ ولا فائدة ٠ كيف لا تحبه ؟ أسمر شـهم ، جميل ٠٠ جده الكبير خوفو ٠٠ ولن تمضى شهور حتى يصبح مهندسا ملء السمع والبصر ! النهاية ، ظل يطاردها ويضايقها حتى قالت له يوما : « اسمع يا حبيبى ٠٠ أنا لا يمكن أن أتزوجـك ما لم أحبك ، ولا يمكن أن أحبك ما لم أعرفك، ولا يمكن أن أعرفك ما لم أجلس معكمرة ومرة فنتكلم ونتناقش ونتفاهم٠

وأنت أيضا ٠٠ أنت لا تعرف منى غير شكلى٠٠ فمن أدراك أنك تحبنى حقا ؟ !

توقف عمر يقدم لفافة لأبيه وأخـرى لزوج عمتى ، فقــالت عمتى تعبر عن تبرمها بمد الحروف :

ـ أكمل يادكتور ، أكمل !

وابرق فى ذهنى خاطر مكير فاندفعت أقول :

ـ يكمل ماذا ياعمتى ؟ عبد السـلام وافقها طبعا ٠٠ فعرفها جيدا وفهمهـا وعـرفته وفهمته ٠ تأكد أنه يحبها ، وادركت هى أنها ٠٠٠

والتفت الى عمر أسأله :

ـ اليس كذلك يادكتور ؟ !

تغير وجه أمى ٠٠

وعلقت سوسن فى دهشة :

ـ عجبى !

وقال عمر بعد أن مال على يد زوج عمتى وأشعل لفافته :

ـ تمام ٠٠

وسعل محمود ، طاب له السـعال فسعل ٠٠

وصاحت عمتى مستنكرة :

ـ بنت من هذه؟ مقطوعة من شجرة؟! هكذا تتفاهم مع الرجل ٠٠ لا أم ولا أب ولا عمة ولا خالة ؟! فتدخلت أمى تعزيها :

ـ يجوز أنها يتيمة، لابد أنهايتيمة٠٠ ماذا تفعل يا كبدى ؟ !

وتكلم محمود يفسر اليتم الذى فرضته أمى على ايفا :

ـ الحرب تركت ملايين الأيتام ..

فضحك عمر يستدرك :

ـ صحيح الحرب يتمت عشرات الألوف من بنات الشعب الألمانى ، لكن ايفا ليست يتيمة . كل الحكاية أن الأمهات والآباء هناك ، الأقارب على وجه العموم لا يتدخلون فى مسائل الزواج الا فى النهاية .. فى البداية وفى النهاية . فى البداية يربون البنات ، والأولاد، يفهمونهم قيمة الزواج ومعناه. يربونهم ويفهمونهم جيدا ثم يتركونهم وشانهم . وفى النهاية ، عند ما يتفاهم الشاب والشابة على كل شىء ، يذهب العريس ليقول لأهل حبيبته من هو .. ليثبت لهم انه اهل لها .. ليطلب منهم يدها . طبعا الأهل لا يكونون نائمين ، ولكن يقظتهم تكون غالبا صامتة محايدة. رقيبة من بعيد لا تتدخل الا اذا دقت أجراس الخطر .

وصحت دون تفكير :

ـ معقول !

فهتفت سوسن تؤيدنى :

ـ واى معقول ؟ معقول وابن معقول!

وعاد محمود يسعل ، غلب عقله يقول متحفظا :

ـ معقول ، بشرط أن يكونوا غير نائمين .. حقا !

وأردفت أمى على استحياء ، بعد أن نقلت نظرتها بينى وبين عمر أكثر من مرة :

ـ معقول ..

ففرت عمتى تغمغم :

ـ معقول معقول ، مالنا .. على راى المثل أبى راض وأنا راض .. وعلى رأيه يا داخل بين البصلة وقشرتها !

***

معقول !

معقول ..

معقول ، معقول ..

لم أنم ، أنا ووسادتى .. أوشوشها وتوشوشنى : معقول .. معقول .. من يا سعاد ؟! عمر .. حبيبى عمر ياوسادتى الغالية ! صبرا.. غدا نتزوج فأحملك الى عشنا نريح رأسينا على صدرك ! لكنه لم يقل شيئا ، عن الزواج يا سعاد ! يا ساذجة .. وابتسامته ؟ وفرحته ؟ ويده تختلج فى يدى وهو ينصرف آخر الضيوف .. وتهاويل الضياء ترقص فى عينيه ؟ !

وعند ما بدأ النوم يسكرنى ، وأشعة الفجر تتسلل الى مخدعى فيتسع وتشيع فيه الطمأنينة ، كنت أراهن وسادتى أن قصة ايفا وعبد السلام مختلقة تماما.. مؤلفة من أولها الى آخرها !

تطور فكرة .. الموت الزمن الموسيقى عند توماس مان



بقلم: هيلدا الوسي
ترجمة: فاروق يوسف اسكندر

أكسبت الرواية الحديثة بعدا جديدا ، فان (الرواية المطردة النسق) التى سادت فى القرن التاسع عشر ، تدل باسمها نفسه على أنها تمتد فى البعد الأفقى اولا وبالذات ، فهى بتكوينها الاطرادى واستمرارها تتقدم مع الزمن ، وان امتدت الى الأمام أيضا بطريقة ما ، لترتبط بمنابعها ومنشئها . ولكن الرواية بعد (دستويفسكى ، وبروست ، وجويس ، وكافكا) أصبحت تغوص نحو الاعماق ، مستفيدة من البعد الراسى ، فهى اشبه بشكل (الفيوج) فى التاليف الموسيقى ، تبنى من طبقات متعددة ، أو مستويات كثيرة بعضها فوق بعض تتابع فيها ـ فى وقت واحد ـ أفكار متعددة تترابط عن طريق البناء .

ويعد (توماس مان) من بين الروائيين الذين استخدموا هذا الشكل التاليفى بطريقة مستمرة .. حتى ان تكوين طبقات العمل لا يدل على فنية (استيتيك) جديدة فحسب ، بل يكشف عن نفسية المؤلف ، وهذه الكثرة فى السطوح ، والغنى فى المستويات ، يمنحـان عمله ذلك العمق وذلك التعقيد اللذين يجعلان قراءته جهدا غير يسير .

ولكن اذا كان (توماس مان) يبنى رواياته ـ بطريقة واعية ـ وفقا لهندسة متعددة السطوح ، واذا كانت الأفكار فى جميع المستويات تتجاوب وتتداعى .. فان من بين هذه الافكار ما يفلت من سيطرة الفنان ، ولا يظهر فى عمله عن طريق الاختيار الواعى الارادى ، فان العمل الفنى لا يحمل بالمعنى الذى أراده الفنان وظن أنه ينقله فحسب ، بل ان بجانب الأغراض والأفكار التى تحدد المضمون العقلى ، أو الموضوع ، معنى انسانيا يدخل فى الشكل ، ويظهر فى فكرة ذات تحولات ، يتشبع بها الفنان دون أن يعيها . وهـذا المعنى الذى يظهر أحيانا بقوة يبدو الفنان عاجزا عن التخلص من سيطرتها ، يكون دليلا على نفسيته حتى لنتساءل ان لم تكن الفكرة هى التى اختارته .. وهو فى حال من السلبية للتعبير عنهـــا .

ان معرفة هذه الأفكار الخفية ، وميثولوجية الكاتب الباطنية .. لازمة لفهم أعمال الروائى الكبير ودلالتها . فاذا كان للموضوع المختـــار دلالته ، واذا فرض هـذا الموضوع نفسه بالقيمة النموذجية للمضمون ، فان هـــذه العناصر التأليفية (Motifs) وهـذه الأفكار الخفية التى تتكرر ـ مع خفائها ـ فى العمل الفنى .. وتنبثق فيه باستمرار هى التى تلقى الضوء على اشكالية العمل وصاحبه . وحتى لوكانت هـــذه الأفكار غير الواعية مدينةبوجودها لتكوين نفسى خاص بالمؤلف ، اى الأصل خارج من الفن ذاته ، فانها تحـدد اختيار الموضوع ، بل تكوين العمل الفنى ، وكذلك تكوين شـخصياته .. او باختصار ، العالم الفنى للرواية .

ويقول بودلير فى كلمة له : « انه يكفى أن تحسب الـكلمات التى تتردد فى العمل الأدبى بكثرة غير عادية لتحصل على مفتاح عالمه الخيالى ... » .



وأعمال (توماس مان) تشمل عالما متميزا باتساعه ، فهو يمتد من عصر ما قبل التاريخ .. الى وقتنا هذا ، ومع ذلك فان هـــذه الموضوعات المتباينة تظهر فيها فكرتان ، أو على الأصح حلقتان من العناصر التأليفية ، بتواتر والحاح وشدة تجعلهما أشبه بالوسواس .

فاحدى هاتين الفكرتين تعلنان عن نفسيهما فى جميع مستويات الرواية ، فكرة الاثنينية . فهى تتخذ شكل النقيضين ، أو ازدواج الارادة ، أو الاستقطاب ، أو الجدلية ، على حسب المجال الذى تظهر فيه ، ولكن الذى يظهر دائما هو ذلك الأصل العقلى العتيق .

ان كون (توماس مان) كون ممزق ، وعالمه تحكمه قوى متضادة ، وسلالم من القيم التى لا يمكن التوفيق بينها ، فى توتر حاد يعكس التناحر الأبدى القائم فى الواقع .

نعم ان (توماس مان) ليس أول من شعر بالازدواج فى عالمنا وعبر عنه ، ولكن هذا التمزق لا يظهر ضخما كاملا حاسما كما يظهر فى أعماله .. فهو يظهر فى أعماله حتى فى أدنى مناطق الحياة والروح . و (توماس مان) لا يتصـــدى لاكتشاف ظاهرة الاثنينية فى ذاتها ، ولكن الفكرة تنبثق باستقلال وعنف والمؤلف لا يكاد يشعر . وحتى لو فرضنا أنه ليس ثمة صلة ما بين الفنان والانسان بوصفه انسانا . فان هـــذا الانسان يدخل ، رغم كل شىء ، تجربته الانسانية ونظرته الفعلية واشكاليته الشخصية فى انتاجه كله .. أن الشكل الفنى يعمره دائما وعى الفنان .

والفكرة الثانية التى ترتبط بترددها وشدتها مع تلك الفكرة الأساسية (فكرة الاثنينية) .. هى فكرة أو على الأصح ، مجموعة من الأفكار ، يجمع (توماس مان) بينها جمعا تلقائيا : فكرة الموت ، وفكرة الزمن ، وفكرة الموسيقى . فهذه الأفكار الثلاث يتحد بعضها ببعض ، ويحل بعضها محل بعض ، ويمتزج بعضها ببعض حتى ليبـــدو من المستحيل ـ لأول وهلة ـ أن نفصل بينها ، وأن نقدم بعضها على بعض .

وقد اشـار (فوجير) فى دراسة قيمة الى مبلغ جاذبية الاغراء . ولئن لم يكن (توماس مان) هو الوحيد الذى عالج هذا الموضوع فى الادب الحديث ، فان فكرة الموت لتبلغ فى اعماله حدا من العظم والاكتمال والتأثير الوجدانى بحيث تبرز الى الامام وتحتفظ مدة طويلة بالمنزلة الرئيسية ولم يكن بد ــ وهو تلميذ لفلسـفة (شوبنهور) التشاؤمية ــ أن تصبح فـكرة الموت عنده هى الفكرة الرئيسيّة المتغلغلة فى كل شىء . وبهذا يمكننا أن نفهم النبرة الرومانسية لهذا الحنين الى الموت الذى يصل أحيانا الى درجة المرض . فاذا كان فنانو عصرنا من (كافكا) الى (مالرو) ومن (هيدجر) الى (سارتر) ، قد أظهروا ما فى الوضع الانسـانى من سخف تراجيدى ، فان هذا الظهور عند (توماس مان) أكثر اتصالا بشخصه ، وتغلغلا فى باطنه ، وامتزاجا بوجدانه . فليس ما عنده هو الموت وحده ، وانما هو « أن نموت » بكل ما فى ذلك من فزع نهـائى : خوف المحكوم عليـه بالاعدام من المصير المحتوم . ولم يدرس كاتب آخر بمثل هذا الاصرار ــ الممتزج بالتقزز ــ الانسان أمام الموت ، ولا تتبعه بمثل ذلك القرب فى تجربته الأخيرة هذه .

أن فى أعمال (توماس مان) من الوحـدة ما يجعل عددا قليلا من الأفكار هى وحدها التى تتناول مرة بعد مرة من زوايا جـديدة ابدا . ومن هذه الأفكار فكرة الموت . انها اشبه بمقالة حديثة فى (فن الموت) أهو ضعف بنيته ، ومعايشته للموت باتصال وثيق ؟ أهى ذكريات شبابه المحزنة ، عندما ماتت اثنتان من اخواته منتحرتين .. ؟ أهو مولده بعد سلسلة طويلة من الأجيال فى عائلة توشك أن تندثر ، وفى مجتمع وعصر يشرفان على الزوال ؟ أم هى حساسيته الهائلة ــ نعمته أو نقمته ؟ أم هى كل هذه العوامل مجتمعة ومتحـدة ؟ مهما يكن من أمر فان الواقع أن كل أعماله ــ منذ قصصه الأولى ــ يظهر فيه هذا الوسواس ... وسواس الموت .!!

ففى (الموت فى البندقيـة) ترتبط فكرة الحب الافلاطونى الذى يكنه الفنان (آشنباخ) للفتى (تادزيو) بوباء الكوليرا الذى يستشرى فى المدينة .. وفى (تريستان) و (السيد فريدمان الصغير) ، واخيرا فى أولى الروايات الطويلة : (بودنبروكس) التى يدور موضوعها الاساسى حول انقراض أسرة أبوية فى جميع هذه الاعمال يظهر الفنان تلك الصلة الحميمة بالموت او ذلك القرب الوسواس منه .

فمنظر موت زوجة القنصل ، أو منظر موت (توماس بودنبروكس) مرسـومان بغـاية التفصيل الذى يكشف ثورة الكائن ومقاومته حين تذهب كل عزة ، ولا يبقى الا الخوف النهائى : خوف الكائن المطارد المذهول . كل ذلك موصوف بمزيج غريب من الواقعيـة والموضوعية والهول . وأنك لتشعر بجاذبية الموت (لتوماس مان) نفس الجاذبيـة التى تتجلى فى تصاوير المذبح (لجرونفالد) حيث يبدو المسيح داميا متورما ، والمصابون بالطاعون تغطيهم قروحهم المتنتـة ، أشبه ببضع لوحات من كتاب تشريح ، أو بكابوس خارج من قلم (ادجار الان بو) وبعد خمس وعشرين سنة يعود (توماس مان) الى بحث جديد عن الموت فى (الجبل السحرى) . فهذا الجبل السحرى خير مكان لمثل ذلك البحث . فالموت يظهر فيه بكل صوره : التافهة والتراجيدية ، والبطولية ، والمضحكة أيضا ، وكأنه فى أنبوبة مقفلة ــ المصـحة ــ حيث يأتى المرضى ليموتوا . ومن الجدير بالذكر أن كلا من (كنوت هامسون) و (هرمان هسه) نشر له عمل كبير فى الفترة نفسها ــ بعد عام تقريبا ــ كان بحثا فى الموت أيضا ، وكان جزء كبير منه يدور فى مصحة ، وهى مصادفة عجيبة .

و (الجبل السحرى) يبـدو بين اعمال (توماس مان) وكأنه ملحمة المرض ، وأغنية التحلل فان فكرة الموت تعـالج من القصص الأولى (الموت فى البندقية) و (تريستان) و (السيد فريدمان الصغير) كما تعـالج فى (بودنبروكس) علاجا جماليا رومانسيا ، فى بعض الأحيان . فتربط الحب بالموت . وقد كان (توماس مان) متأثرا فى هذا (بفاجنر) نجد أمامنا ما يشبه أن يكون أغنية زفاف

الموت . أما الجبل السحرى فانها نقطة تحول فى تطور هذه الفكرة ، نعم ان فيها مناظر تذكرنا بمنظر زوجة القنصل .. يصل وصف الموت فيها الى أقصى ما يحتمل ، ولكن هذه المناظر تتغير قليلا قليلا ، وتصبح ثانوية ، وتتراجع الى الظل أمام فكرة جديدة ، هى فكرة الزمن . واذا كان (الجبل السحرى) قبل كل شىء مقالة فى (فن الموت) واذا كان الموضوع قبل كل شىء استكشاف أهل المصحة للحياة والموت ، فانه أيضا بحث متصل عن ظاهرة الزمن . (فهانس كاستورب) هذا الشاب الساذج ، يصعد الى المصحة فى زيارة قصيرة لقريب مريض . وهناك يبقى سبع سنين ، ويفقد كل فكرة عن الزمن ، عندما يصيبه المرض هو نفسه . وبفضل المرض يدق فهمه ، ويصبح حساسا لاشكالية الحياة والموت . ولكنه يكتشف وهو ممدد على كرسيه الطويل ، أمام القمم الخالدة يكتشف بدهشة ظاهرة الزمن ، فيبدأ بعيدا عن الحياة الجارية بوقفاتها العادية ، بعيدا عن حياة (الخضم) عن الحياة البورجوازية ، يواجه هذه الظاهرة بتطلع ، ثم بانفعال . ويعكف عقله الساذج ، الذى لم يألف التأملات الفلسفية ، على هذه المشكلة التى برزت أمامه فجأة ، ويفكر فيها مرة بعد مرة من زواياها المختلفة .

حقا ان ظاهرة الزمن كانت من أهم الكشوف فى ذلك العصر . ففى أوائل القرن كان برجسون يلقى محاضراته الأولى فى الكوليج دى فرانس ، وكانت مقالتـــه عن (المعطيـــات المباشرة) قد ظهرت فى سنة ١٨٨٩ م .

وفى تلك الاثناء كان (المستقبليون) يكتشفون - بدورهم - من الزمن مقولة يحاولون ادخالها فى الرسم لاغناء سكون العالم التصويرى بحركة الانسياب الزمنى . وشارك الأدب من جانبه فى هذا الكشف الجديد فجعل منـــه (بروست) الشخصية الأولى فى أعماله ، واحتـــذى على منواله (جويس) و (فرجينيا وولف) وآخرون .

أما عند (توماس مان) فالزمن بحث طويل بطىء . فالفكرة تظهر لأول مرة فى (الموت فى البندقية) تظهر خافتة ، وكأنها فكرة ثانوية . فبينما كان (آشنباخ) راقدا على الشاطىء ، يمسك الرمل ثم يتركه ينثال من بين أصابعه ، يتذكر الساعة الرملية التى كان يلعب بها وهو صبى . ويفكر فى قصر الزمن الذى كان يحدده حجم الســـاعة الرملية ، ويقارنه بالمساحة الشاسعة التى تحيط به ، وفى تهويماته يفقد فكرة الزمن ويشعر فى الوقت نفسه بما فى هذه الفكرة من تعقيد .. وفى (الجبل السحرى) تناول الفكرة بأستاذية تتفق مع ســـعة العمل وامتلائه .. ففى هذه الأعالى ، حيث يسقط الثلج فى الصيف بينما تبعث الشمس بدفئها وأشعتها الملوحة فى الشتاء ، وحيث تختفى كل الأكتان العادية ، يشعر (هانزكاستورب) بالزمن ، ويشعر بوجوده . ولكن ما الزمن ؟ أهو موجود مستقل ؟ أهو اصطلاح ؟ أهو شرط للمكان ؟ انه يظهر فى الديمومة durée ولكن هذه الديمومة متغيرة ، فهو تبدو بطيئة مرة ، وسريعة مرة أخرى . هل يمكن قياس الزمن حقا ؟ ان (هانزكاستورب) يكتشف بعقله الساذج الفرق بين الزمن الفلكى والزمن المعيشى . وهو يفهم أن ديمومة الوعى ليست هى ديمومة الآلة الزمنية .



ويكتشف (كاستورب) الفلســـفة الحديثة من (برجسون) الى (اينشتين) يكتشفها من جديد بتجربته الخاصة ، ويفكر فيهـــا من جديد بعلمه المتواضع . وتتجلى بصيرته وهو جالس على شرفته ، فوق تلك القمم الصافية ، وجها لوجه أمام الخلود .

واذا كان (الجبل الســحرى) ممثلا لمرحلة اكتشاف فــكرة الزمن ، فان للالية (يوسف وأخوته) هذا العمل الضخم ، هى قمة هـــذا التفكير وجماعه وتمامه : فالفصـــل الأول - وهـــو أشبه بمقدمة موسيقية - يحتوى على تأمل لفكرة الزمن ، ويبدأ بهذه العبارة : (عميقة هى بئر الماضى) الا يحق لنا ان نقول أنهـــا بئر بغير قرار ؟ » و (لعازر) الشيخ يشرح لتلميذه يوسف ، وهو جالس على حافة بئر ، تكوين الزمن والتـــاريخ ، الذى هو مظهر انسانى للزمن . وقد حفل (الجبل السحرى)

بتأملات، ومناقشات حول الزمن ، ولكن (توماس مان) يقدم فى ثلاثيته المستوحاة من الكتاب المقدس مفهوما جديدا للزمن . ولقد كان الموضوع يدور حتى الآن حول الزمن الفردى ، الزمن الذى يعيشه الفرد ، الزمن الانسانى . أما التـــاريخ التوارثى القديم ، الذى تدور فيه أحداث الثلاثية ، فانه لا يخضع لمقياس الفرد . فهو يمتد لأجيال ، ويغيب فى ظلال الزمن الاول وأصول الانسان الأولى . ليس هذا هو الزمن المتقدم المعروف فى الغرب ، عند الانسان الغربى ، الزمن الذى تتتابع فيه الأحداث بعلية ومنطق محدودين فالشرق الذى تدور فيه قصة (يوسف واخوته) لا يعرف التاريخية ، انه لا تاريخى . وكذلك يكتسب الزمن فى الثلاثيـة مبدأ جديدا . (فلمارز) المنحنى على البئر يتأمل فى أعماقها ، يرى طبقـــات الماء المتتابعة كأنما هى نفسها طبقات التاريخ ، طبقا من طبق . كل شىء هناك ، المـــاضى فى القرار ، والحاضر أقرب وأعلى ، تحت الطبقـات الأخيرة من الصيرورة والغد . ان (توماس مان) يضع بأزاء الزمن التقدمى الغربى زمنا سكونيا ، يضع التزامن بأزاء اختلاف الزمن ، الزمن البئر بأزاء الزمن النهر . هذا البئر اشبه بمستودع للزمن السكونى الموجود أبدا . وهنا يلتقى (توماس مان) بمفهوم التكعيبيين الذين يحاولون فى أعمالهم الفنيـة ابراز التجربة نفسها ، تجربة الزمن غير المتحرك .

ولكن ماذا عن اقتحام (الزمن المكانى) كما يظهر فى (يوسف وأخوته) ؟ أن هـذا الزمن الرأسى يستدعى اكتشافا آخر . فالغوص فى ظلمات ما قبل التـــاريخ ، فى الأزمان الأسطورية القديمة ، هو فى الوقت نفسـه نزول الى أعماق الوعى الانسانى ، الى أن تلتقى الطبقات المتزايدة العمق من النفس البشرية الانســانية مع المستويات المتزايدة البعد من التاريخ ، وتلتقى الأنا القديمة مع الزمن القديم لتتحـــــد معـه .

وهكذا تضعف فكرة الموت ، وتتحول بنوع من الانتقال غير المحسوس ، فالشكل الزمنى الوجدانى للموت يزول ويحل محله الشكل الأبدى المنوى . ويصبح الزمن فى تحولات الفكرة عند (توماس مان) أقنوما من أقانيم الموت : فموت الأب يعقوب ، وموت الحبيبـــة راحيل ، لم يعودا صراعا رهيبـــا مدمرا .. صراع جسد لجسـد يقوم به الانسان مع المجهول المخيف . ان هـذه المعركة لم تعد محقـا للفرد فى عملية فيزيقية وكيميائية ، لم تعد تحللا خبيث الرائحة ، بل رسما مقدسا وسرا وعملا رمزيا اختفى منه كل رعب ، أن هذا الموت يتم على مستوى آخر ، والوجدانية تخلى مكانها لموضوعية ميتافيزيقيـــة .

ونجــد محاولة بالغة التفنن لشرح هذه الفكرة الذهبية عن الزمن فى قصة (لوطه فى ويمار) . ففى فترة يوم تتخلله ذكريات وأثارات وقصص شارحة ، تنبسط حياة جوتيه كاملة ، وههنا محاولة عجيبة فى الفن ، كأنما أخذت أجسام ذات شكل ، وجردت من مساحاتها الخاصة بها ، وعكست على سطح مستو .

ولكن الأبحاث من الزمن لا تقف هنا . واذا كان الزمن تحولا للموت فحسب ، فان الزمن يخضع بدوره لتحول جديد . ألم يكن (هانز كاستورب) فى صراعه مع ظاهرة الزمن ، يضع بالحاح متزايد مسألة الامكانيات الجمالية للزمن : هل للزمن مضمون فنى ؟ هل الزمن يخلق أشكالا فنية ؟ أن تجربة الزمن تتحقق فى الموسيقى ، فى الشـكل الصوتى . فان الزمن جزء من حقيقة الموسيقى . وبعد تحليل الزمن يهجم (توماس مان) على تحليل البناء الموسيقى .

وقـد لعبت الموســيقى ، دائما ، دورا فى أعمـــال توماس مان ، وصـــاحبت فـكرة الموت فى قصصه الأولى .

ونحن نعلم أن اهتمامه الأساسي وموضوعه الأول والجوهري هو ظاهرة الخلق والفناء ، ولكن المؤلف الموسيقى بخاصة هو الذى يتيح له العكوف على هـذه المشكلة . فاذا كان (آشنباخ) فى (الموت فى البندقية) و (تونيو كروجر) كما تبين فان بازائهما صفا طويلا متصلا بين الموسيقيين الذين يقدمهم الينا (توماس مان) ليصل أخيرا فى عمله الضخم (الدكتور فاوست) الى بحث من أكمل البحوث حول الظاهرة الصوتية فى مجموعها . فهذا البحث يمتد من تحليل البناء الموسيقى الى التحليل السيكولوجى والتاريخى ، والى تحليل ماهية الموسيقى نفسها .

وينبغى أن نلاحظ — فى هـذا الصدد — الاهتمام المتزايد الذى تبديه الاسطاطيقا الحديثة نحو الموسيقى ، وهو اهتمام يظهر من جوانبه المختلفة فى الرسم كما يظهر فى الادب . فهذه الظاهرة تبدو لنـا عظيمة الدلالة ، وتستحق أن نبحث من قريب .

لقد أهمل فى التصوير الآلة الموسيقية من بين أشياء الطبيعة الصامتة منذ عصر (الباروك) ولكنها أصبحت فى فن التصوير الحديث موضوعا محببا . فقد حلت محل الزهور والفاكهة والفلايين والسمك المملح . ومنـذ العصر التكعيبى (لبيكاسو) الى (براك) و (شـاجال) و (كلى) و (ديفى) — ولنكتف بذكر أشهر الأسماء — يزداد استعمال فن الرسم للآلة الموسيقية على أنها موضوع مفضل . وفى الفترة نفسها تظهر الموسيقى فى الادب . فنجد (رومان رولان) و (فرفل) يدخلان الى عالم الموسيقى أيضا من خلال ترجمة لحياة مؤلف موسيقى حقيقى أو خيالى . أما (بروست) فانه يعنى بالظاهرة الموسيقية فى ذاتها لا بالفرد الموسيقار .



وقـد أصبح تحليل فـكرة (السوناتة الصغيرة) لفنتى ، التى عزفت فى حفلات (فردوتان) الموسيقية ، تحليلا شهيرا ، وبازاء هذا التحليل للظاهرة الصوتية ولموضوع الفكرة الصغيرة ، نجـد فقرة أخرى فى تحليـل الانفعال الذى يشعر به (سوان) وهو تحليل للأثر الجمالى والسيكولوجى الذى يشعر به المستمع للموسيقى .

وان أساتذة الموسيقى ليدهشون لتحليل الأعمال الموسيقية الذى يدخله النغمـة الأساسية Leitmotif على طريقة (فاجنر) ليس الا عنصرا ثانويا ، وان لكن له دلالة .

ومع ذلك ، فان كان ثمة تأليف أكثر التصاقا ب Cortrepoint وطريقة الفيوج من (بودنبروكس) فهو (الدكتور فاوست) !! فان تراجيدية ألمانيا النازية ، ألمانيا هذه التى تنسى كل قيم الانسان والقيم الانسانية ، وتسلم نفسها الى قوى الشعور الباطن المدمرة غير العاقلة ، تراجيدية ألمانيا هـذه تعالج فى خط مواز لدراما المؤلف الموسيقى (أدريان ليفركون) الذى يدفعـه حرصه على اكتساب العبقرية الخالقة الى أن يوقع عقدا مع الشيطان ، كما فعل فاوست القديم . فهو لكى يصل الى الالهام يبيع روحه للشياطين .. للأمور الشيطانية . والصوت الثالث للفكرة تمثله الظاهرة الموسيقية نفسها . وكل صوت ينتمى الى مستوى زمنى مختلف . فزمن فاوست التـاريخى هو القرن الخامس عشر . وزمن (أدريان ليفركون) هو زمن ما قبل الحرب . وزمن الشاهد هو ألمانيا النازية وخرابها .

ولكن (توماس مان) يعـد أن يحلل العمل الموسيقى ويستعير البناء الموسيقى يتقدم الى بحث جديد . فهو يتساءل عن المضمون الوجـدانى للموسيقى . ولا يجـده — أول الأمر — الا من الجانب الرومانتيكى حيث تلتحم الموسيقى والموت تحت تأثير (فاجنر) ولكنها لا تلبث أن تثبت جانبها المقلق . فهناك فى (الموت فى البندقية) موسيقى متجول يعزف على أرغنة الآلى لحنا مرحا داعرا فى نفس الوقت ، ويحمل الموت — الكوليرا التى كانت تعيث فى المدينـة — الى الفنـدق الذى يأوى اليه الأبطال — و (تريستان) باعتمادها على أوبرا (فاجنر) تربط مرة أخرى بين الموسيقى والموت . فان البطلة تموت وهى تعزف تلك الموسيقى المثيرة الكئيبة ، موسيقى (الموت حبا) « لايزوالد » أغنية الزفاف للموت ، اذ لا تستطيع أن تقاوم الانفعال القتال الذى تبعثه هذه الموسيقى . وتحت تأثير الموسيقى أيضا ،

ينتهى مصير (السير فريدمان الصغير) . و (الدم المحرم) عمل غريب ، يصعب تحديد معناه ، من أعمال (توماس مان) . فهو يقوم على طريقة (النقل) المحببة الى (توماس مان) . نقل فكرة الاتصال الجنسى بين المحارم ، الذى عرف عن الآلهة الجرمانية ، والذى نجده فى (ريجفريد) « لفاجنر » الى الوسط البورجوازى فى برلين . وعلى طول الرواية تلعب الموسيقى دورها المساعد ، فهى لا تثير عواطف الانسان الا لتحررها . وفى الموسيقى أيضا ينتهى مصير أسرة (بودنبروكس) القديمة . ومرة أخرى يصاحب نهاية هذه الأسرة المنقرضة تحليل قطعة موسيقية مزعجة مريضة ، ألفها (هانو) ذلك السليل الاخير الذى يقعد به ضعفه عن حياة أجداده السليمة النشيطة .

والى هنا تظهر الموسيقى ، التى يربطها الكاتب بالموت فى مفهوم رومانتيكى ، وتظهر قبل كل شىء فى تأثيرها على الفرد . وأخيرا يعالج (توماس مان) الموسيقى بوصفها مظهرا لمدينة أو حضارة (توماس مان) فى رواياته ، فهناك تغيرات وتحليلات « لفاجنر » ، الذى أهدى اليه الروائى دراسة ممتازة .

وهناك تفسيرات وتحليلات (لبيتهوفن) و (باخ) وسائر الموسيقيين العظام الى أحدثهم (شونبرج) فى (الدكتور فاوست) ولكن هناك أكثر من ذلك . هناك تحليلات لأعمال موسيقية ضخمة ولكنها متخيلة ، تحليلات تقدم الينا بثروة من التفصيلات ، ومعرفة بالصنعة ، وفهم للقوانين الخاصة بالموسيقى ، وادراك لها باعتبارها موجودا خاصا ، حتى أن (كلاوس برنجسهايم) ومعه كثير من النقاد ، ما زالوا يعجبون ويتساءلون : الا يمكن كتابة هذه الأعمال المتخيلة بالاعتماد على أوصافها الدقيقة ، وبذا نعكس الترتيب ، فنسير من التحليل الى العمل ، بدلا من السير من العمل الى التحليل .

ولكن هناك استعارة أهم من عالم الموسيقى ، وذلك عندما تقدم الموسيقى قوانينها الخاصة ، وقواعد تأليفها ، بل بناءها ، الى العمل الأدبى .

ألم يكن (أندريه جيد) قد قرأ (بودنبروكس) حين تساءل فى (مزيفى النقود) : لماذا لا تبنى الرواية على حسب الشكل التأليفى (الفيوج) بل ان عنوان هكسلى Foint and Counterpriod

ليعلن عن نمط (الفيوج) فى تأليف الرواية ، فى نفس الوقت الذى تتضمن فيه تحليلا من أجمل ما كتب عن موسيقى باخ .

ولكن توماس مان يتقن هذه الطريقة منذ (بود نبروكس) فيصبح هو — فيما نعلم — أول من يستخدم التأليف الموسيقى فى عمل أدبى ، والتأليف المقصود هنا هو نمط (الفيوج) . والواقع أن (بودنبروكس) هى حتى فى أدق تفاصيلها فيوج من ثلاثة أصوات : انحلال طبقة اجتماعية ، انحلال أسرة ، سقوط انسان . فهذه الأصوات الثلاثة لفكرة واحدة هى أصوات مستقلة ومع ذلك فانها شديدة التمكن فى هندسة العمل الفنى ، وهى تمتد الواحدة فوق الأخرى ، وتتحد ، ويروغ بعضها من بعض ، ثم تعود فتتصل بعضها ببعض ، وفقا لقوانين الفيوج . وأن الاستعمال الكثير (للفكرة لعبقرية معينة) . ذلك بأنها تعكس موقفا أسلاميا أو (نظرة الى الحياة) .

(Weltanschaung) ثم تنصب المحاولة على الوصول من تأثيرها السيكولوجى الى سيكولوجيتها الخاصة .

وقد وجدنا فى (الجبل السحرى) من قبل أن (ستمبرينى) وهو ممثل قيم انسانية ، يكشف الجانب الشيطانى فى الموسيقى ، ويحذر تلميذه (كاستورب) من هذه القوة التى لا تضبط ، ومن سيطرتها على الروح . ولا يترك (توماس مان) المشكلة هنا . فان هذه الظاهرة المقلقة تشغله وتلح عليه أن فى الموسيقى جانبا خطرا ضارا ، فهى تنتمى الى الطبقات التى لا تستر من الانسان ، وتخرج من الأعماق التى تفوت سلطان العقل . ومن ثم نفهم لماذا يتخذ (توماس مان) الموسيقى وخالقها المؤلف

الموسيقى ـ رمزا للاتجاهات اللاعقلية المميزة لألمانيا ، حتى يكشف الانحلال الخلقى فى ألمانيا النازية ويقدم عريضة اتهامها . ويعتقد (توماس مان) أن هناك نقيضة تمسك الموسيقى وتحفظها مع هاتين الامكانيتين : الموسيقى الشعائرية والموسيقى الحضارية . فالموسيقى الشعائرية هى الموسيقى البدائية ، موسيقى قرع الطبول ذات النغم المهيج المسكر ، أنها الاطلاق المعربد للرقصات والاغانى البدائية . و (الفيوج) بهندستها تضبط ـ بقوانين صارمة ـ الفيضان غير المنظم للايقاع وحده ، وهكذا تبدأ مع (باخ) الموسيقى التى تدعى حضارية أى الموسيقى المحكومة المذللة . للايقاع وحده .

ولكن بحث (توماس مان) عن الموسيقى لا ينتهى هنا . فانها لم تسلم اليه بعد سرها كاملا . وهكذا يستمر التساؤل ، ويقوده الى مستوى جديد . ألم يسأل (هانز كاستورب) فى (الجبل السحرى) أن كان الزمن يمكن أن يخضع للشكل ؟ أن (توماس مان) حين يهجم أخيرا على المشكلات الخاصة بالموسيقى ، حتى على أسسها وجوهرها ، يكتشف الجواب عن سؤال (هانز كاستورب) ألم يسأل : أن كان للزمن مضمون جمالى ، بل شكلى ولكن كيف يمكن أن يخضع العيش الخالص لعالم الأشكال ، ولكننا نجد أن الزمن المعيش يتمثل فى الشكل الصوتى . فالموسيقى هى تجربة الزمن والتعبير عنه . والزمن يتحقق ويظهر فى الموسيقى .



وهكذا وصل (توماس مان) الى نهاية بحثه . فقد كشف تحليل البناء الموسيقى : أن العمل الموسيقى يتضمن دائما قطعة من الديمومة الحية ، والصيرورة الموسيقية ، أى تنمية فكرة موسيقية ، تعتمد كما تعتمد الصيرورة الحقيقية فى الشعور ، على قياس مستمر . والصيرورة أو النهاية هى ، على التحديد ، ما يجعل للزمن الموسيقى معنى . فكما قال (جيزل بريليه) بحق : « ان التفكير الموسيقى يخضع لمجموعتين من المقولات : المقولة الهارمونية والمقولة الزمنية .

وهكذا نجد عند نهاية البحث : أن الشكل الزمنى للعمل الموسيقى يمتزج مع الديمومة الباطنية الخالقة ويصبح تعبيرا عن الديمومة التى يعيشها بشعوره . فهو كهذه الديمومة يتضمن صيرورة تولد وتنتهى ، ومن ثم يصبح الزمن الموسيقى هو نقطة التقاء الديمومة السيكولوجية والزمن الموضوعى الذى انساب فى شكل .

أهى مصادفة أم اشارة خفية حافلة بالمعنى تلك التى تدفع (توماس مان) الى تلك المشابهة العجيبة بين تحليل (العازر) للزمن البئر ، هذا الزمن الساكن ذو الطبقات التى بعضها فوق بعض ، بدلا من تتابع الزمن الكلاسيكى ، الزمن النهر ، وبين تحليل (أدريان ليفركون) لموسيقى (الكونتربوان) مقارنة بالموسيقى الهارمونية . ففى هذه ـ كما فى الزمن النهر ـ يطرد الزمن أفقيا ، وفى تلك ـ كما كان فى الزمن البئر ـ يتكون الزمن المتزامن من طبقات صوتية بعضها فوق بعض ، وفى الاثنين هناك التقاء ، يظهر فيه (تنوع النغم)

وإذن فالموسيقى هى ذلك الشكل الجمالى للزمن كما يتصوره (هانزكاستورب) فالزمن تعمره موسيقية أصيلة تمنح العمل قوامه وحقيقته الحية . وحين يعطى الفنان العمل الفنى ديمومته اللصيقة به يصل الشكل الموسيقى بتجربته الزمنية . فان الشىء الجميل يجب أن يعترف بحق الشىء المعيش ، ولكن هذا الشكل المعيش يشترط فيه الشكل الحقيقى .

وهكذا نجد الموت ، والزمن ، والموسيقى ثلاثة أفكار وثيقة الترابط يبدو أن بعضها يحل محل بعض ، أو على الأصح تحولات لفكرة واحدة . فهى ليست الا نواحى مختلفة بشىء واحد ، أو أقانيم ثلاثة .

فالانسان يخضع للزمن فى شكله الذى ينفى كل شكل ، حيث يصبح تميما محضا ، بتجربة الموت . وهو يصل الى شكله الذهنى بفكرة أن الزمن المحض هو ديمومة محضة . ثم لكى يصل أخيرا ـ بفعل خالق حر ، الى عالم الفن ، يتخذ الشكل البنائى للموسيقى .

الزمن البخيل

بقلم : عبد الرحمن أبو عوف

المنيرة ترقد فى منتصف الليل .

هذا الحى الصغير الهادىء المنزوى خلف حى السيدة زينب العتيد والرابض بجوار شارع القصر العينى الهائل ومبنى المستشفى الضخم المتجهم ومبانى كليات الطب والصيدلة القديمة الصفراء الباهتة ، عربات الاسعاف تحوم دوما فى صحن الميدان الصغير المعتم ، أشباح تتكوم فى الأركان الرطبة وأصوات عويل وبكاء منكسر وانتظار طويل مؤلم ممتد للموتى ، غرباء أتوا من بعيد ليموتوا فى المدينة الكبيرة .

حى أصفر محاصر بالمرضى متلفع بالحزن تظلله سحب قاتمة كئيبة دائما وتتكثف التعاسة فى شوارعه الضيقة حتى عند اقترابه من ميدان زين العابدين المزدحم الساهر أبدا يصطدم بمبنى مستشفى أبو الريش للأطفال قائمة فى عبوس المرضى هنا صغار هزال يطلون من نوافذ المبنى كأنها جروح دامية فى وجه هائل ... حياة تمرض فى مكبورتها وتحنق ابتسامة الطفل .

هذه الصور المركبة المتداخلة من الحياة وهى تتلاشى وتضعف وتذوب وتمرض كانت تكشف لدى رأفت احساسا غامرا بالحزن والملل والتشاؤم . وما أكثر ما تساءل بينه وبين نفسه لماذا اختار أبوه هذا الحى للاقامة به .

عام ١٩٤٢ عندما اشترى هذا البيت القديم ذا الطابقين بأبراجه الخشبية الحمراء تتوسطهما قبتان صغيرتان معلقتان فى جبهته وبوابة البيت الشامخة تنطق شواهد كثيرة ان هذا البيت شهد أياما من العز فشارع اسماعيل سرى بمنازله ذات الطراز المعمارى التركى المحاطة بحدائق مهملة الآن كل هذا كان يوحى بعراقة العائلات القديمة التى كانت تقيم فيها غير أن المبانى الحديثة أخذت تزحف الى الشارع هذه السنين الأخيرة وأكثر من بيت من هذه البيوت القديمة قد أخلى مكانه للمبانى المتشابهة فى طرازها الباردة فى الاحساس الذى تمنحه للانسان ، ولم يبق سوى بيتهم وعدد قليل آخر من البيوت محافظين على وقارهم العتيد كرجال ترتدى

الطرابيش وسط مجموعة من الشباب بقمصانهم وسواعدهم المكشوفة .

هدأت الضجة الآن فى الطريق واستسلمت المنيرة للصمت الهائل واحتواها ليل الشتاء الطويل فى عباءته السوداء المسحورة وبدا الوجود وكأنه يغيب عن وعيه مستسلما للأحلام وبين الحين والحين يتمزق الصمت عن صوت مترو حلوان وهو يمرق مخترقا قلب المنيرة .

ورأفت يعرف طريقه الى عشائه كالعادة دائما عندما يعود متأخرا الى البيت الصامت تشابكت أحاسيس الملل والرتابة مصاحبة لغريزة الجوع الى دفعه الى المائدة يتناول شيئا من الطعام وعيناه تدوران فى أرجاء الشقة الكبيرة العائمة فى الظل والهدوء المريب فالوالدين



قد آوى كل منهما الى حجرته ربما من ساعات .

هو الوحيد الساهر حتى هذه اللحظة من الليل .

الوحدة الباردة تحاصره وهموم شتى تغمره ويبدو أن ثمة نهاية تقترب فى بطء مميت .

وعالم الأصوات والخلافات والضجيج والمناقشات والاشتبكات المحببة بين الاخوة والحياة المشتركة فى الأكل والنوم والمذاكرة . أين كل هذا الدفء .... خلا البيت الآن من الاخوة .. كل قد كبر وتزوج وغادره الا رأفت .

ومضغ مع عشائه طعم التعاسة . صحة والده بدأت تتدهور هذا الشتاء تدهورا مثيرا للقلق ولا يستطيع أن يمنع نفسه من التحديق فى اليوم الرهيب الذى يبدو انه يقترب فى هرولة وقسوة .

وفى الفراغ الممتد أمامه يحوم دوما سؤال قاتل مسموم .. ماذا لو مات ؟؟

كل شيء يذبل ويسقط ويشحب أمامه ، ويتوه بعيدا بعيدا عن منطقة الادراك . ودفع بالأطباق . وقبض على كوب الشاى الدافىء ودلف الى حجرته يلوذ بساعات الصفو النادرة من يوم له نفس اللون المشابه الباهت لأيامه التى بدأت يوم عين فى هذه المؤسسة محاسبا .

تلك الساعات الطويلة الممددة كالمرضى الضائعة منه بين جدران أدارة التخطيط والاستيراد معتكفا على مكتبه وأمامه الآلة الحاسبة المعقدة مدفون بين الأرقام والملفات .

ويجد نفسه يوما بعد يوم بلا شعور يذهب فى جزء من كل يتحرك على ايقاع واحد متشابه ... جزء من طابور جماعى منظم رتيب يقف أمام الساعة يثبت حضوره وانصرافه اربعة مرات فى اليوم .

وابتسم وجهه الأسمر الوسيم وهو يتأمل حجرته الدافئة الحبيبة اليه ، السرير المتوسط ودولاب الكتب القاتم اللون الشامخ فى ركنى الحجرة والمكتب العتيد مطبوع بذكريات دافئة لسنوات من العمر انقضت فى صبر وصمت فوقه والكتب حوله فى كل مكان وأكداس المجلات وأوراق الصحف القديمة ... الصفحات الأخيرة من جريدة اللواء والجريدة وأعداد الكتاب المصرى ومختلف الملاحق الأدبية للصحف التى صدرت ربما قبل ان يعرف القراءة هذه الأشياء الغالية الأثيرة لديه الباقية مما تركه أخوته الكبار قبل أن يتزوجوا ويغادروا البيت الكبير وخطت اقدامه على السجادة العجمى العريقة المبسوطة على أرض الحجرة .

وصورة الأب فى شبابه تطل عليه فى كبرياء وحب عينيه السوداوين الجميلتين وانفه الدقيق وشاربه الأنيق .

أين كل هذا التناسق الجميل الذى يشع حبا لبداية الحياة من الفضون التى بدات تزحف الى وجهه وشعر بدبيب الياس يزحف الى قلبه .

ما يخفف من لوعة القلب الحزين ويجلب العزاء اليه هذه الرحلة المتوحدة التى تبدأ مع منتصف الليل وتستمر ساعات يجوب خلالها كتبه متنقلا بين عصور جميلة للعقل والفن .

هوميروس ودانتى وتولستوى وجوركى ونجيب محفوظ ... اصدقاء هذه الساعات من العمر .. عندما يدلف الى عالمهم المسحور تسقط عنه شيئا هذه التراكمات والقشور الغريبة التى صاحبت سنوات العمل فى المؤسسة هذه الحالة الغريبة التى بدأ يشعر بها عندما سلك فى عداد الموظفين ، وبدأت تستغرقه رويدا رويدا هموم العمل والنفوس المريضة المعقدة لنماذج عديدة تعرف عليها فى هذا المحيط وأيضا هؤلاء الشباب المتفتح الطيب المقبل على حياة العمل الجديدة بلا شىء موتور غريب يحرمهم دائما مثله الى الماضى .

فى هذه اللحظات دائما يعود رافت القديم بأحلامه المجهدة وتعود اليه الأيام البخيلة ... أيامه المسروقة منه ... ساعات القراءة التى لا تنتهى والمناقشات الصاخبة والاجتماعات الملتهبة بالحماس ... عام ١٩٥٦ ولجان المقاومة الشعبية ضد العدوان الثلاثى . والقاهرة تموج بالجماهير الغاضبة الهادرة وصوت عبد الناصر الغاضب يعلو فى الأزهر ويتسلل الى الميادين المزدحمة والشوارع والحوارى والبيوت والقلوب لن نستسلم ... وأمواج السخط والغضب تحاصر كل مكان تجول فيه رافت ومدرجات كلية التجارة والطلبة تتجمع فى حلقات صغيرة ودوامات من المناقشات الحادة الملتهبة وما تلبث هذه الحلقات أن تتسع وتتسع لتتحول الى



محيط كبير يهدر فى صوت واحد ... كلنا يجب أن نزحف الى بورسعيد بورسعيد الثغر الباسم فى حزن ووقار والبيوت المتساندة والوديعة والشوارع المستقيمة لها رائحة البحر واهالى الثغر المندفعين فى رشاقة وأجسادهم الرقيقة وملامحهم الجذابة ... غير أنهم مصبيون حادى المزاج والقنال مضىء فى الليل الرهيب العين السحرية من خلالها تطل بلاده على العالم هذه البلدة الشابة المموجة بوجدانه دائما غير أنه توقف كثيرا عند هذا السيل من الخواطر الذى اغرقه فى هذه اللحظة من الليل .

نعم ماذا جعله يحن الى هذه الأيام ؟؟

صحيح أن رأفت بدأ يضيق بهذه الحياة الجديدة التى يعيشها كموظف منظم الوقت غير انه شعر عندما انسالت ذكرياته الى بور سعيد وأيامها الملتهبة ان لهذا علاقة ذات ظلال بالزميلة الجديدة التى بدات تعمل معه منذ شهور ..

هى أيضا من بور سعيد ... عرف ذلك فى البداية من لكنتها المميزة وملامحها الجذابة .

هو يعرف جيدا هؤلاء البنات .. بنات بورسعيد ، السمرة الدافئة والشعور السوداء الفزيرة والاعتزاز المغالى فيه والخجل الساحر .

وصحيح ايضا أنها منذ أن عملت معه وفى نفس الحجرة بدأ يشعر بها ويرقبها وثمة تغيرات سريعة فى عواطفه نحوها . ربما لم يهتم فى البداية .. غير أن الاشتباكات اليومية وعلاقات العمل الصغيرة تنسج ثمة علاقة لها طعم خاص ومذاق حلو .. ربما هى أيضا تشعر بذلك فهو يعرف معنى هذه النظرات الطويلة العميقة المتسائلة ، وهذا التودد الحبيب من ناحيتها وهذا الاهتمام الذى ينمو يوما بعد يوم من جانبها به .

هل آن للقلب النائم منذ شتاء يبعد عامين أن يخفق من جديد . ،

رافت قد أحب يوما وكانت ايضا لها عينان سوداوان وشعر أسود كالليل ..

وكان ذلك فى سنوات الدراسة واحلام مقتبل العمر ، ان يصطاد النجوم ان يفعل شيئا ضخما .

ما هو ؟ الغريب انه كان يعرفه . ولا يدريه ... وعندما لا يدرى صاحب الحلم فهل تدرى رفيقته ... لقد انجذبت اليه فى البداية ثم ما أسرع ما تعبت من احلامه وتفكيره الدائم فى الماضى وحديثه المشغول المنهوم ببلاده . وبين تردده وأحلامه المبهمة وسنوات الدراسة غير المستقرة .. ضاعت منه . سرقتها الأيام البخيلة كما أوشكت أن تسرق ماله الآن من بقايا أحلام قليلة ووصل به الزمن الى هذا العمل الذى يمارسه بشعور متكرر .

غير ان رافت عندما يزحف كل صباح من الجموع الهادرة ويرقب حركة الناس العاتية والترام المزدحم والأتوبيس الممتلىء والخناقات الصغيرة يشعر بجديد يولد فى بلاده وحياة ممتلئة بالأحلام الصلبة تنساب فى الشوارع .. الهائلة .

وعندما يحدث زميلته فى العمل عن

بور سعيد وكيف صهرتها الحرب عام ١٩٥٦ ومبانيها الجـديدة وتقول له بصوتها الرقيق ولكنتها المميزة .

لم يعـد هنـاك حى أفرنج وعرب ولا شـواطىء أفرنج وعرب ... كل الشواطىء أصبحت واحـدة يغسـلها البحر ، عندما تقول هذه الكلمات يشعر بظمأ لشىء يغسل روحه هو أيضا شىء مثير يوقظه من الماضى الذى بدأ يتمسك به . وتكثف الصمت حوله .. صمت هائل ضخم يملأ الحجرة ودخان كثير يحلق حول مصباح المكتب وعيناه تدمع منه واستسلم فى اغراء للصمت والذكريات وزميلة العمل وأحاديثها البسيطة عن بور سعيد .

واستيقظ شـيئا فشيئا على دبيب أقدام والده تعبر الصالة ... ثم اقترب الوجه الحبيب المتعب من فتحة الباب يطمئن عليه .

هل نام وترك المصباح مضاء كعادته كل مساء .

ما زلت يا رأفت صـغيرا ... أبوك يطمئن عليك .

غير أن ثمة طمأنينة تنساب فى داخله وصـاحبة العينين السـوداوين لا تفارق ذهنه حتى عنـدما شرع يمسك القلم ليخط أحداث اليوم كعادته فى مفكرته الزرقاء .

كان يشعر بالقلم يهتز فى يده وبأنه يوشك أن يتخـذ قرارا فى حياته ودار بعينيه فى حجرته وكأنه يفتش فى داخل نفسه عن شىء يتراجـع به عن قراره الحاسم ، غير أن كل الأشياء فى الحجرة متجهمة تنتسب الى الماضى ... فهل يولد جديد فى حياته ... وهل يستقبل الشمس الدافئة عندما تطل من الوجه الأسمر والعينين السوداوين عنـدما يذهب فى الصباح الى العمل .

ويستقبل زميلتـه من بور سـعيد ويقول لها كلمة صغيرة لا شك تنتظرها فى ظمأ ، كلمة ربما تعيـد اليه الدفء والانسجام وتجعله يعانق الحاضر ويفلت من قبضة الماضى العـائم فى الظل ... صوت مترو حلوان يمزق الصمت من بعيـد والوالد عاد الى حجرته وهو قد آن له أن يأوى الى فراشـه وعندما اظلمت حجرته غرق فى ضوء ينبع من داخله ضوء ربما يأتى من بعيـد كاشفا كل حياته الماضية .

وتنسال خواطره فى سرعة مجنونة وتتشابك آلاف الصور العديدة فى حياته غير أن ثمة لحظة هائلة مذهلة يجتازها ، لحظة يشعر فيهـا أنه على وشك أن يتجـدد ، أن يولد مع ميـلاد الغد فى الصباح .



حتى النهاية

بقلم
محمد الخضرى عبد الحميد



فى عصر الذرة والتليفزيون والمحاولات الصاروخية الباسلة فى ميدان التطلع الى غزو القمر .. وقف « زكى أفنـــدى عبد الحق » بعوده الأعجف الساحق ، وطربوشـــه البنى الحائل ، فى غرفة من البيت نائيـــة ، يدير احدى اسطوانات « سيد درويش » القديمة ، على قرص « فونوغراف » !

ودوى فى رحبات البيت ذلك الصوت الرخيم ينبعث من الحاكى .. كانما هو (الماضى) السحيق ذاته .. أطل فجـاة من فوهة « نفير » الصندوق ، مستأذنا مشـاعر « التوقيت المحلى ! » لحظة ، فى أن « يلقى كلمة » .. ويمشى !!

وما كادت « الأســـــطوانة » الدوارة تنتهى من مطلع الدور : « أنا هويت .. وانتهيت » .. حتى أحس زكى أفندى بخطوات ثقيلة تطرقع على البلاط وهى تولى نافرة مبتعـدة .. وخطى أخرى خفيفة الوقع جـدا ، تدنو ، وتقترب ، و .. واطل « حمادة » ذو الخمســة الأعوام من سنى عمره وفى يده البضة الدقيقـة « راديو ترانزستور » صغير فى حجم علبة الكبريت .. انبعث منه هشيش مسرسع راقص بدأ ــ فى عـداء لاسـلكى ! ــ يشوش ، بغرور القزم ، على ... « سيد درويش » !!

واوقف زكى أفنـــدى عبد الحق دوران اســـطوانته ، وراح يتطلع الى حفيـــده الطفل ، سائلا اياه ، وأذناه مرهفتـــان تتسمعان وقع الخطى التى ولت عن المكان بنفور :

ــ أين ذهبت أمك يا حمادة ؟

ــ راحت المطبخ .. يا جدو .. !

آه ! .. المطبخ ! .. انه ــ اذن ــ الاعداد للغذاء ! .. يا للوقت العجيب !

وشد من صديريته سلسلة ساعة جيبه ، واطل فيها ، ثم شهق مرتاعا .. الساعة فقط .. العاشرة !

وارتد زكى أفندى على عقبيه فى سهوم ذاهل وشرود ، يحدق ثانية ومن جديد فى صندوق الحاكى .. و .. لكانه تذكر الآن فحسب أن سترته قد نالها الكثير من ذرات الأتربة الكثيفة الراكدة ، التى كان قد نفضها عن « فونوغرافه » العريق بالغ القدم ! .

كان غريبا أن يصدح هذا الصندوق العتيق الصامت بعد سكوت دام عشرات أعوام ! .. وانه ــ حتى بعد أن اداره ثم أسكته ــ ليس يدرى كيف ساقته حوافز خفية الى أن يزيح عنه النقاب ، ويستنطقه بعد كل ذلك الزمن بعض ما فى جعبته من ترانيم ولحون .. !

لا ، ولا يدرى كذلك ما الذى جعله يفكر فى يومه ذاك بالتحديد ، ويتامل واستغراق عميقين .. فى (المرحوم) ابيه .. وكيف كان يؤثر هذا الحاكى الكلاسيكى باعزاز كان فى الماضى البعيد مضرب المثل فى الوفاء بين الانسان واخيه الـ ... الجماد !!

« أنا هويت .. وانتهيت » !! .. غناها زكى أفندى عبد الحق بنفسه ، فجاة ، لا كما يكون الغناء .. ولكن كانما أراد أن يطرد هاجسا كئيبا طاف بذهنه .. ولابد من أن الهاجس كان أكثر كآبة مما يحتمل ، فقد انعكس الاحساس به .. على الصوت الغنائى الحزين الناشز الذى قذف به من حنجرته .. فان (حمادة) الصغير هتف به فى براءة طفولية لاذعة :

ــ « صوتك فظيع يا جدو » !!

ــ فظيع ! .. فظيع فعلا يا حمادة !.. ذلك لأننى .. لأننى (هويت .. وانتهيت) !

ان زكى افندى ، بالرعشة الحائرة التى غلفت صوته ، لم يقصد بـ «هويت» الهوى الذى عناه المغنى .. وذلك ما وضح له أيضا أخيرا .. عندما اكتشف اختياره ــ بلا ارادة ــ ذلك الدور بالذات ! .. أجل .. انه قصد معنى مغايرا للمعنى كله ! .. انه يصارح نفسه الآن بما كان يمور فى اعماقه ! .. « نعم .. أنا هويت الى أسفل .. وانتهيت الى الأبد » !!

.. ولم يطق مجالدة هذه المشاعر الضارية التى لم يكن له بها من قبل سابق عهد ، فلم يمتد قبل ذاك لها نزالا ! فتناول عصاه ذات المقبض العظم والسن النحاسى المدبب .

.. ومرق من باب حجرته خارجا بسرعة مباغتة .. حتى لقد كاد يسقط لعبة الطفل المشدوه من بين أصابعه ، وأوشك أن يرتطم بزوج ابنه العائدة لتاخذ ولدها .. ولتسأله هو ، وقد بهتت لهيئته ، ماذا يفضل أن يكون عليه صنف طعام الغداء عند أوبته ! ولكنه اجابها وهو ماض الى الباب بغير أن يلتفت وراءه :

ــ « لا تعملى حسابى على المائدة ! . سأتغدى خارج البيت » !

أترى ان الأمر على هذا النحو ؟! ..

انه يذكر الآن ، وبوضوح ! .. يذكر انه كان غلاما ، عندما أودع أبوه على المعاش فاحضر الأب اليائس ذلك الحاكى ليكون سلوى له فى وحدته وقت فراغه ، بعد اذ صار كلّ وقته .. فراغ !!

ان التاريخ اذن كما يقال ـ ومن حيث لا يشعر ـ يعيد نفسه .. !

ها هو ذا أيضا يجرب فى صبحه الجهم الحزين نفس المحنة التى مر فيها أب له من قبل !.. انه اليوم يدرك كيف يكون قتامة اليوم الأول الذى يأتى بلا عمل على الرجل الذى لم يعتد الا العمل والعمل ! .. وأى عمل ؟! .. ان ذلك الذى كان يكابده (زكى أفندى عبد الحق)

« .. كم كنت غبيا ، والناس أذكياء ، ومع ذلك ـ ويا للسخرية ، فاسمى : زكى .. أفندى » !

وضحك وهو يخز فى شدة أسفلت الشارع بطرف عصاه المعدنى المدبب ، مهمهما لنفسه ثانية : « .. ولكن هل كنت ـ حقيقة ـ بهذا القدر الذى اظنه من الغباء ؟! .

.. صحيح أن مندراوى أفندى ذا « تسع السنوات خدمة » لم تهل عليه فى المصلحة سنته العاشرة الا وقد فرغ من بناء الدور الأول على قطعة أرض لا باس بها مساحة وموقعا !

.. لا والا فتوح أفندى (الشفاط) !



قطب « ادارة شئون الموظفين » بالمصلحة لم يكن عملا مجرد عمل .. وانما كان « حربا » وأى حرب !! .. ولكن .. ويا للعجب .. كانت على أية حال ليست أبدا كهذه الحرب الداخلية الضروس التى فوجىء بها تندلع .. ليس خارجا هناك على مسرح « قلم الموظفين » .. ولكن هنا .. فى اعماقه وداخل صدره هو ! هيه ! .. لا فائدة من كل شىء ! .. ان اربعا وثلاثين سنة مرت ـ بكرها وفرها ـ كحلم ، حى ، حار .. وها قد حان الوقت ليتجرع مرارة الصحو المرير ، ذى الصقيع .. !

ذلك الثعلب المرن الذى يعطيك من طرف اللسان نواحا وأنينا .. بينما فلوسه « تشتغل ! » .. فى الحديد الخردة تارة ، وفى « مغلق خشب » أو فى « الكسب والدريس » تارة أخرى !! .. ناس تعرف تعيش ! .. ولكن لا !! .. انهم فى نظرى لا يعيشون ! .. لطالما كنت أوقفهم أمامى جرذانا تهتز وترتعد عندما يجلجل صوتى كهزيم الرعد وأنا أعلن تمسكى بمبدئى الخالد : (الأصولى .. لآخر رمق ، وحتى النهاية) ! .. فاحطم بذلك جهرا وعلنا ، ما كانوا من وراء ستار يرتبون وينسجون ! ..

لا لا ! .. لن أكون قط كمنـــدراوى أفندى .. أو فتوح أفندى الشفاط ! . لقد سمى بيننا بلقب (الشفاط) لأنه لا يستحرم من (شفط !) أى شىء .. ولو (شلن) .. ولو سيجارة .. لكى « يسهل » .. و .. « يمشى » !!

ها ها !! .. ضعف ! .. حقارة ! .. خلل مما فى تلك النفوس ولا ريب ! .. ومع ذلك ، كان هذا الشفاط الألعبان يتهرب بكل الوسائل من سداد حساب (البوفيه) على الكامل ! .. كان يكاد يبكى وهو يستعمل فى العدد أصابع يده كثيفـــة الشعر مقســـما أيمانا عديدة مغلظـــة تفرقع فى الهواء من فمـه ، بلا حرارة ، كأنها طلقات مسدس أطفال ، وكل ذلك لا لشىء الا ليغالط فيما عليه من (زمامات) يسيرة لهذا او ذاك ! . نحمده ! .. حمدا لله على أية حال ! .. حقـــا لقد خرجنا الى المعاش ــ دون (حمص !) يذكر ــ وانما على الحميد المجيد ، وأنعم به وأكرم .. هو سبحانه خـــــير مثيب ! .. ولـــكن .. آه يامندراوى ! .. أيها الجرو ! .. أنا واثق من أنه يكرهنى ! .. وانى ــ بصراحة ــ أبادله ذات الشعور ! .. اذ كيف أنسى يوم أن هممت بدخول المكتب فاذا هو ــ قليل الذمة ! ــ قد وقف منحنيا الى جوار (شـــانون) الملفات ، باسطا ذراعيـــه ، ملتوى الشفتين بصـــورة كوميدية تهريجية مواجها زملاءه فى رعدة مسرحية ســـخيفة ، وهـــو يردد عاليا كالببغاء مقلدا بسخرية « لا يافندم ! .. الأصول لازم تمشى ! .. الأصول ! .. لا شىء الا الأصول .. لآخر رمق .. نعم .. لآخر رمق وحتى النهاية » !

« الجبان !! .. لقد اختتم يومها تلك الأمثولة السمجة بكلمة من عنده قالها كتعليق ، مشــوحا بذراعه فى ازدراء : « آخر رمق ، آخر رمق .. أنا عارف متى ينتهى رمق هـــذا الرجل » ؟! .. يقصـــدنى أنا صـــغير النفس هزيل الأخلاق ! .. آه ! .. غاب السبع الآن ! ألا فلتمرح الأرانب ! .. انه يوم عيدهم دون شـــك ! .. اقسم أنهم يريقون الشاى وسجائر البلمونت أنهارا وتلالا ، احتفـــالا بخروجى من بينهم بلا رجعة الى رفوف المعـــاش ! .. أوه ! .. البرد يكاد يجمـــد أطـــرافى .. ومع ذلك ــ يا ربى حكمتك ــ أكاد أختنق ! . كم الساعة يا ترى الآن ؟! .. ياه ؟! .. فقط ؟! .. الحادية عشرة فقط ؟! .. ما أطـــوله من يوم ! .. كان اليوم فى الشغل يمر دون أن يحس به المرء ! .. كنت ما اكاد أحل بضع عقد ومشكلات حتى أشعر من حولى بحركات الأدراج تقفل ، والدوسيـــيهات يعاد رصها ، والمفاتيح تصر من أبواب ودواليب الصاج ، فأصيح باستنكار فى موظفى مكتبى :

ــ ما الخبر ؟!.. بدرى جـــدا على المواعيد يا جماعة ... !

فاذا بذلك الذئب فتوح الشـــفاط يجيبنى ــ وهو الذى كان ، على ما أذكر يجيب فى كل مرة ، وفى مسكنة مصطنعة وذلة خبيثة ودود :

ــ الســـاعة ٢ خلاص يا أســـتاذ عبد الحق !

فاذا ما صفعتهمفحما بقولى : « ولكنها الثانية الا الربع يا سيد فتوح ! » ، لم يكن يعـدم الدلاقة المجوجة ليرد برقة اكثر خبثا : (الربع للمواصلات ! .. أحتى هـذه أيضـا فيها (أصول) و (لآخر رمق) ، و (حتى النهاية) ؟! . يا أستاذ عبد الحق قطعت رمقنـا ، ارحمنا يا شيخ الله ما يسيئك » !! .. ويضحك ويقلبها (نكتة) يخالها ظريفة ، وهو أثقل المتظرفين ! .. لعنة الله عليه ! و ـ بالمرة ـ وعلى الذين حواليه ! .. ترى من يكون خلفى المسـكين رئيس القلم الجديد ؟! .. أيا كان فلا أظنـه سيحتمل لواء الرسالة الحازمة القويمة التى كنت انهض بها ! .. كائنا من يكون فانى أدعو له بالتوفيق ! .. اسـال مجربا ! .. ما أصعب حرب المبـادىء ولكن ما أقل هواجسها ! .. هيه ! .. الله ؟! .. ما هذا » ؟!! .

هنـا كان زكى أفندى عبد الحق قد فوجىء بنفسبه يدلف ، مسوقا بقوة خفية لم يفهم كيف دفعتـه هكذا دفعا دون ان يدرى ، الى باب المصلحة .. !!

اهتز كله بعنف ! .. ودفع بيديه فى الهواء الى الأمام باحداهما عصاه ، وقد تصلب جسده وتقلص كقط خلى سارح فوجىء بغتـة بنباح كلب ! .. ومال بجماع قوته الى الوراء .. لكأنه كان يريد أن يتخلص ـ لا اراديا ـ من شىء غير منظور يشده ويجذبه الى الأمام صوب الباب الحديدى الكبير .. لكى يرتد الى الخلف فسـار من ذلك المـكان ! .. ما الذى أتى به الى هنا ؟! .. كيف لم يلحظ ؟! .. نفس الشارع والمنحنيات التى اعتادها ذهابا وأوبة طوال أكثر من ثلاثين عاما ! .. ولكن اليوم ؟! .. كيف لم ينتبه ؟! .. كيف أقبل مسحورا الى هنا ؟! .. ولكن .. ما الفائدة الآن ؟! . حتى اذا كان قد جاء ؟! .. لقد انتهى كل شىء ؟ .. توقفت العقارب وانزاحت بعيدا عن (فلك) الميناء ! .. نعم .. ذلك هو الواقع والحق يا .. يا سـيد عبد الحق ! .. « أنا هويت ، وانتهيت ، على رأى سيد درويش » !!

●●●

نعم ! .. هو ذاك ! .. ما عاد له بعد الآن حضور الى رحاب الذين يعملون !

« آه ! .. يعملون ؟! .. هاهاها » ! . وابتسم زكى أفندى لهذا الخاطر الساخر الذى صورت له فيه مخيلة الذكريات . زملاء القلم من موظفين ومستخدمين ، وكيف هم فى مواقع الأمر يعملون ! .. انهم « يعملون كل البدع ! » لكى ينفذ الواحد منهم خلال « خرم ابرة » يلمحه فى اللوائح والنظم ، يصل بعده الى ترقية عامل قبل دوره .. أو نقل مستخدم الى جهة يرغب فيها .. أو ادراج عتل كسول فى قائمـة المجدين مستحقى مكافآت التشجيع ! .. وذلك كان يمكن أن يتم وفقا لقاعدة « تراعينى بقيراط .. اراعك باثنين » ! .. لولا أن كانت تثب عليهم فى اللحظة المناسبة زمجرة المبدأ الباتر الحاسم الناصع : (الأصول لآخـر رمق .. نعم ، لآخر رمق وحتى النهاية » ! .. فيتراجعون مذعورين .. ويلوذون منكمشـين وراء الترابيزات



وخلف الدواليب ، وكل منهم يغمغم بقفاه ، ملقيا مسئولية التعرض للمسالة اصلا على عاتق الآخر ! .. اخص ! .. يا لها كانت ضمائر ميتة » !!

كان المارة فى ذلك الوقت يسرعون الخطى فوق أسفلت الشارع الذى تحول بفعل رذاذ المطر ونتف الثلج الى مرآة عريضة ، لا نهائية الطول .. كانوا لا يملكون فى اسراعهم داخل المعاطف الثقيلة وتحت الشماسى الا أن يرمقوه بنظرات عجب ودهش ، وهم يرونه فى منتصف الميدان منتصبا وحده ، شاخصا ببصره تجاه مبنى المصلحة ، فى استغراق كلى ذاهل .. كانه ـ وهكذا كان تماما ـ تمثال حى أقيم أمام الباب الحديدى .. لشخص غير معروف .. يومىء بالعصا التى فى يده الى (شىء) غامض مجهول .. !

والواقع ان زكى أفندى نسى نفسه تماما .. ولا أحد يدرى كم من الوقت كان يمكن أن يظل على وضعه ذاك المتخشب ، لولا أن أيقظته من ملكوته صيحة الساعى (عبد الجليل) وهو يناديه مدهوشا ، فى عاطفة بسيطة صادقة :

ـ من ؟! .. عم زكى افندى ؟! .. أنت هنا ؟! .. حمدا لله على سلامتك ! والله لقد بانت لك وحشة من أول يوم .. !!

انتزع هذا الصوت «تمثال الميدان !» الشارد ، الذى كاد يتجمد تحت الصقيع دون أن يشعر ، من سرحته الطويلة العميقة .. ففرك عينيه .. ونفض رأسه بقوة كادت تطيح بالطربوش المبتل من فوقها .. وراح يحملق بعينيه ويغمضهما مرارا كانما ليطرد كل أثر باق لـ « نعاس الصحو ! » الذى كان قد استلب حواسه جميعا .. ثم سلم على ساعى مكتبه الوفى ، بالفة ومودة .. و .. وساله الى أين هو خارج .. فاجابه الساعى وعيناه ما تزالان مثبتتين على رئيسه السابق :

ـ خارج اشترى لهم سجائر ، وسندوتشات .. !

ـ مشوار بعيد عليك ، يا عبد الجليل .. !

ـ لا باس يا استاذ عبد الحق .. أما شرفتنا لنسقيك فنجان قهوة ؟!

ـ شكرا .. انا .. أنا كنت اعتمدت لك دراجة فى الميزانية الجديدة يا عبد الجليل ، توفر عليك تعب المشوار .. لا تنس تسالهم ينفذوا لك الموضوع .. !

ـ ربنا يخليك يا عم زكى أفندى .. طول عمرك جد .. وتحب الجد .. !

ـ ها ها ! .. وهاك آخر الجد .. !!

ـ مالها آخرته ؟! .. آخرته (فل) ان شاء الله ! .. تصدق بالله ؟ والله .. كل المصلحة تشهد لك .. واليوم فى سيرتك الحلوة .. كلهم .. كل الأقسام فى حزن عليك .. المخازن ، والمشتريات والحسابات ، والدفترخانة ! .. الكل والله !

ـ هه ؟! .. ومندراوى ؟! .. وفتوح ؟! .. وسيد ؟! .

ـ هؤلاء وأمثالهم دعك منهم ! .. وعلى العموم .. فتوح أفندى الشف .. آسف ! .. هو غائب اليوم .. أصل واحد بقال رافع عليه قضية .. !

وخشى زكى أفندى أن يسترسل عبد الجليل الساعى فى سرد أشياء عن (زميل) له ، فصرفه بالحسنى .. ومضى الساعى الطيب لحال سبيله وهو يتمتم بادعيات ساذجة .. ولكن ميزتها انها : مخلصة !

وتنبه الى أنه وقف أكثر مما يجمل فى مكان ما كان له أن يأتى اليه ، وفى يومه ذاك على وجه التخصيص .. فلقد صور له الخيال أنه يتلصص على عالم لفظه ونفض يديه منه ، بعد أن ألقى (بقاياه) خارج نطاقه ! .. ان ذلك يعد تجسسا على شكل ما !! ..

ودفع قدميه بصعوبة لتعاودا المسير .. وان كان قد ترك العنان للصور المتداعية سريعة التوارد تعيد كرتها جوالة فى ذاكرته مرة أخرى ..

« اهنأ يا مندراوى ! .. أما نحن فهل سنأخذ زمننا وزمن غيرنا ؟! .. اننى الآن أعرف بالضبط ماذا هو حادث الآن فى الداخل ! .. مندراوى أفندى زمانه سحر رئيس القلم الجديد بتزلفه الممقوت الذى هو ـ لا جدال ـ تقدمه بعد المدة بمدها لخرق تقليد قويم ! .. أما فتوح فما يكاد ينتهى من (كروتة) البقال الذى قاضاه ، بدمعتين على كمية من الأيمان الحانثة .. حتى يعود الى المكتب داخلا فى تادب وعلى استحياء وبقناع حزين .. مؤكدا لرئيسه انه عائد لتوه من لدن الطبيب بعد أن كشف على مرض ابنته واشترى لها الدواء !. الكذوب !! .. ولا علة ولا عليل أبدا هنالك !! .. لو أننى انا لكنت قد شطبت بالأحمر أمام اسمه فى سجل (الحضور والانصراف) ، ولأجبرته ، غصبا ، على العودة من حيث جاء .. مرغما اياه على تحرير (أجازة عارضة) ! .. انا أدرى الخلق بالاعيبه ! .. ولكنه (يعملها) متكلا فى كل مرة على ذلاقة مندراوى أفندى الى حين حضوره ! .. وان تغير الوضع وقتا آخر ، وتأخر المندراوى .. فان فتوح « وفاء للواجب ! » يقوم

عنه بنفس المرافعة ! .. يسمونها زمالة ! .. انها هى حكاية (شيلنى وأشيلك) ! .. تبا لهم ! .. جميعهم !.. اخص على ذلك كله ! .. فقد .. ماذا ؟! .. ما هذا ؟! .. من ذا الذى ينادينى » ؟!!!

فعلا .. كانت المعلمة (مفيدة) صاحبة المقهى المتنقل الصغير .. هى التى أقبلت مهرولة اليه ، تناديه :

ـ سى زكى أفندى ؟! .. كيف حالك يا رجل ؟! .. سلامة حسك ! .

ـ سلامات يا معلمة ! .. اشتقنا والله الى شايك النقى المضبوط .. !

ـ حلفتك بالنبى .. تعال .. احك لى .. واشرب الشاى !

و .. ولم يكسفها ! .. كانت ـ كما كان يسميها ـ العصامية الطيبة جارتنا ! اى جارة (المصلحة) الوفية ! .. عندما لم يكن يعجبه شاى (البوفيه) كان يستورد براريد الشاى وكنك القهوة منها .. وعرف جودة بضاعتها الآخرون ايضا .. وعلى مر الأيام صار لها عملاء كثيرون لم يستطع (البوفيه) الرسمى انتزاعهم من حوزتها ! .. خسارة حقا فقد مثل تلك الجارة المسالمة ، الوسيمة ، خفيفة الدم كذلك ! .. وتحادثا طويلا . ولكنه لم يدر بعد التحايا ماذا قالت له ، وبم اجابها .. !!

كانت قد شعشعت فى مخه فكرة جديدة طرأت لساعتها .. !

قد شب لها أوار داخل فكره الهائم الدوار .. فالهته قوة تفجرها عن المعلمة وشايها .. وعن كل كلمة بعد ذلك قالتها !!

واستأذن منها وانطلق طائرا الى البيت وهو يكاد يثب وثبا .. !

وفى البيت تلقته جنازة صامتة .. !

●●●

لقى على السلم حفيده (حمادة) الطفل الذى صاح فور أن رآه :

ـ جدو ! .. جدو ! .. جدو هنا يا ماما ! .. افتكرنا انك تهت يا جدو .!

ولكن « جدو ! » تجاوزه الى الداخل مسرعا ، وهو يكاد يعدو عدوا .. ليجد فى الصالة ولده وزوجه وقد رفعا راسيهما ماخوذين من اطراقة كانت على ما يبدو طويلة حزينة ..

وهب ابنه واقفا يتنهد بارتياح ، ويسأل فى رفق :

ـ بابا .. أين كنت ؟! .

وثنت زوج ابنه قائلة :

ـ عمى .. أهكذا تتركنا حتى الآن فى انتظارك من غير غداء ؟! .. من غير ان نعرف اين أنت ؟!

لم يتذكر انه كان قد قال لها الا داعى لعمل حسابه على مائدة الغداء ! .. نسى ما كان تماما ! .. بل انه حتى لم يلحظ أنها ربما قد حكت لولده

ـ زوجها ـ كما كانت عليـــه حاله فى الصبـاح ! .. تلك الحال التى تغيرت كلية وصـــارت على النقيض مما كان بشكل جد واضح ! ..

وجلس زكى أفندى عبد الحق بحيوية وحرارة .. وصفق فى مرح طالبا الطعام وهو يردف حمادة على ركبته قائلا لابنه بينمـــا زوجة الابن ذهبت مسرعة فى ارتياح الى المطبخ :

ـ لا تشغلْ بالك من أجلى .. !



ـ حســـنا يا أبى .. فقط أشركنى فيما تنتوى عمله .. انى أرجـــو أن تعتبر زوجتى بمثابة ابنتك .. تخدمك و .. أنا أقصد رأيى أنا .. ان كنت يعنى تشعر بمضض لأنك تفتقد المرحومة أمى .. ف ... فانك بفضـــل الله لا تزال .. أعنى من ناحية السن ..

غير أن زكى أفندى أطلق ضحكة مدوية طروبا وهو يهدهد كتف ولده الشاب فى حنان ثم قاطعه بمرح دافق :

ـ ما هذا الكلام الذى يدور فى عقلك يا ولد ؟! .. لا لا .. ان ما يشـــغلنى الآن ليس هــــذا .. اننى مشغول بمشروع .. مشروع أواصـــل به أداء رسالتى .. سأســـتعمل امكانياتى فى شئ .. بشرط أن يكون هذا الشئ يدلّ على شئ !!

ثم أردف فى حزم رهيب :

ـ نعم .. ان رسالتى لن تتوقف .. لن أدعهم يهنأون بتصورى كما مهملا ! . سانغص حياة الذين حاربوا مبدئى .. سأتعب ضمائرهم الهشة صبح مساء !!

ـ هو هذا يا أبى ! .. ولكنى لم أفهم ! على أية حال .. فها هنـاك لديك كل وسائل التسلية .. فونوغرافك .. والراديو .. والمكتبة .. وحديقتنا الصغيرة !

لكن زكى أفنـدى عبد الحق ، وقد توثب نشاطا حماسيا هائلا ، عاد الى كتف ابنه يربتها من جديد ، وبضحكات أخرى أعلى دويا وأكثر تحررا وانطلاقا ، يطلب اليه أن يلزم الصمت .. !

ثم انفجر على حين غفلة ، فى ضحكة جديدة من نوع آخر ، قال بعدها :

ـ فكرتنى بالفونوغراف ! .. دعهم ، لو سمحت ، يعيدوه الى أكفان الجوخ التى كان ملففا فيهـا ! .. انه لا يفلح الا فى قولة : (أنا هـويت ! .. أنا انتهيت) !! .. لا لا ! .. أنا ان تاقت نفسى للأغنيات .. فسأستمع اليها مع (حمـادة) من مذياعه الترانزستور الصغير ، هاهاها .. !!

* * *

وخلال الأسابيع القليلة التى تلت ذلك النهـار الحافل .. كان (زكى أفندى عبد الحق) يصحو فى الشروق ، وينطلق من البيت فلا يعـود اليه الا لينام ! .. كان مشغولا بشىء كبير يلتهم كل وقته .. بيـد أنه كان فى الدقائق التى يقضيها فى البيت نهارا .. يملأ الحجرات ضحكا سعيدا طروبا ، وهذرا .. حتى لقد أصبح « حمادة » بفضل صحبة « جدو ! » على رفقة أبويه كليهما .. !!

* * *

وذات صبـاح .. فوجىء موظفو المصلحة وعمالها وهم يتدفقون من كل صوب فى مواعيد الحضور .. فوجئوا برؤية (كشك خشبى) أخضر كبير ، فى مواجهـة بابهم الحـديدى العريض مباشرة .. ينتصب قبالتهم شـامخا عاليا كالهرم .. يطل من أحد شبابيكه الأنيقة بين علب السجائر والمربات .. وجه يعرفونه جيدا .. وقد اصطفت على جوانب قمة الكشك الهرمى لافتة مضلعة ، ضخمة جدا ، مكتوب عليهـا من كل اتجاه فيها ، بالخط الملون الكبير اللامع :

« بقـالة الأصـول لآخر رمق ، لصاحبها : زكى عبد الحق » ..

ثم .. وبخط أكبر وأشد ضخامة ولمعانا .. كما لو كان نذير تحد هائل ، دائم :

« نعم .. لآخـــر رمق ، وحتى النهاية » .. !!!



لعبة الاقواس

بقلم : سيد سعيد

آه .. ليس ثمة قمر الليلة ولكن كل شيء يبدو واضحا ومضيئا .. أليس كذلك يا عزيزى ؟ . لو كان فى الامكان ان نظل نسير هكذا متلاصقين كشقى فوله .. اذن لتمنيت أن أفعل ذلك مدى العمر .. ومع ذلك فالحياة قصيرة للأسف .. أقصر مما نريد دائما .. لا يهم .. تكفينى لحظة مضيئة من حياتى .. لا يهم أبدا أن نموت اذا كنا نستطيع أن نحصل على بضع لحظات من السعادة ..

لفت ذراعها حول خصره كانها تحتضن حلما ظلت تنتظره طويلا واستطردت نهاية سخيفة أن نموت ومع ذلك فلن يموت الربيع أبدا .. وفى ليال كثيرة كهذه يهدأ فيها البحر كأنه فى اجازة .. وفى استطاعة السماء أن تكون صافية الى هذا الحد .. ما أروع الحياة هكذا .. لماذا لا تنظر الى هه ؟ .

أشعر بالقمر يسطع داخل قلبى هذه الليلة .. فيم تفكر يا حبيبى ..

قال فى هدوء يجذب كلماته من قاع قلبه مباشرة .

ــ اعرف أنه لن يأتى السبت أبدا ..

دوت كلماته فى رأسها الصغير فصنعت تموجات دهشة فوق جبينها ودفعت بشيء من الضيق الى قلبها كما لو كانت قد سقطت من الجحيم سحابة لطخت صفو سماء راكدة ..

ــ ماذا تقول يا عزيزى ؟

ــ انا واثق انه يخدعه .

ــ يخدعه ؟! .. عمن تتحدث ..

ــ القوس ..

ازدادت تموجات الدهشة فشملت وجهها كله وسقط الضيق فى قدميها فتوقفت عن السير ..

ــ قوس ؟ .. انك تقول أشياء غامضة .

ابتسم فى خجل كرجل ضبطوه يحدث نفسه ... قال وهو يدفعها للاستمرار فى السير ..

ــ لا شيء .. لا شيء يا عزيزتى .. لا تهتمى .. عن ماذا كنت تتحدثين ؟.

عن السعادة ..

استمرى ..

شدت قبضة يدها حول خصره .. قالت بحنان العاشقة وقد عاودها هدوءها ..

ــ ماذا يقلقك يا حبيبى .. كنت أتحدث عن السعادة بالطبع .. سعادتنا أنا وأنت .. سيكون لدينا عش هادىء واطفال كثيرون .. هل تحب ان أنجب

لك أطفـــالا كثيرين .. أتمنى أطفـــالا يشبهونك .. كم ولدا تريد وكم بنتا .. هـــه ..

عيونه ما زالت تتابع مقدمة حذائه .. لا شيء يثير فيـــه الخيال .. لا صفاء الليل ولا شـــاعرية الشاطىء فى ليلة مضيئة بدون قمر ولا الصـــوت الدافىء الذى ينساب بالأحلام الى جواره .. ثم فجأة دوت الكلمة ..

وهم :

دق الغضب فى قلبها مع الدوى .. وعادت التقطيبة تضغط جبينهـــا .. بينما كانت تعبر السماء بالفعل سحابة داكنة ..

ـ وهم .. ؟ اليس هذا كثيرا ؟ .. انت غريب هذه الليلة ..

تلفت اليها فى حزن وارتباك كأنه وطأ حيوانا رقيقا دون قصد ..

ـ آسف يا عزيزتى .. هـــل كنت لا تزالين تتحدثين عن السعادة .. لم اكن أقصد ذلك ..

كنت أفكر فى القوس ..

قالت وشعور الدهشة ما زال يشد حاجبيها ..

ـ قوس .. ؟ ما هذا .. ؟ اى قوس تعنى .. ؟

ـ الأستاذ مرزوق ..

ـ من مرزوق هذا .. ؟

ـ رئيسى فى المكتب ..

ـ هل اسمه مرزوق القوس ؟ ..

ـ كلا .. ولـكن اذا نظرت اليه من الأمام ستجدينه يشبه القوس .. هل تعرفـــين القوس .. شيء منتفخ من الوسط .. نصف طولى لشمامه ..

ضحكت كأنه داعبها ... سألته وهى تلقى برأسها على كتفه ..

ـ وما شأننا به ؟

عاد يجذب كلماته من قلبه ..

ـ قال له احضر يوم السبت ..

ـ قال لمن ؟ ..

ـ رجل بسيط .. انا واثق انه يحمل فوق رأسه كل كآبات الحياة .. انسان بلا عمل .. حضر منـــذ شهر وقابل القوس .. كان فى عينيه مهانة وفى كلماته استرحام .. هز له القوس رأسه وقال حسنا .. احضر بعد غد .. وقبل أن ينصرف الرجل ســاله القوس .. هل تستطيع أن تشترى لى اقة لحم ؟ .. هكذا يا عزيزتى ..

بالطبع انا أحب الأطفـــال كثيرا لماذا لا تتحدثين عنهم ؟ .. عن أطفالنا .. قالت وقد استدارت الدهشـــة داخل عينيها .

ـ أطفالنا ؟ ..

ثم اســـتدركت باسمة .. أوه .. سيأتون بلا شـــك .. ولكن ماذا يريد الرجل من قوسك هذا ؟ ..

ـ وظيفة .. يريد وظيفة .. عندما حضر له بعد يومـــين .. أخرج القوس ورقة ثم كتب اسم الرجل وسنه بعناية وقال له اطمئن .. ســـأكلم البيه فى الموضوع ... هل تســـدى الى خدمة فتحضر الولد من المدرســـة .. آسف يا عزيزتى .. فقد أفسدت انســـجام أحلامك .. ولكن الأمر مؤلم لى أشد الألم .. لقـــد فكرت فى أن أستدعى الرجل وأشرح له اللعبـــة .. أنا واثق

انه يخدعه .. فانا اعرف هؤلاء الناس جيدا .. أعرفهم أكثر من أى انسان آخر .. فقد حدث لنا نفس الشىء ذات يوم ..

قالت وهى تلهث خلف كلمـــاته الحزينة .

ـ يبــدو أنك تخفى فى قاعك أشياء بغيضة .. لماذا لا تحدثنى عنها ؟ .. ألسنا شقى فوله ؟ ..



ـ أنت ترين دائما أن الحياة مضيئة ولهذا فانا أستعير عينيك حينما أكون معك ..

ـ ولكن اذا كانت ثمة أشياء تؤلمك فان هذا يشعرنى بالتعاسة .

ـ الألم فى حــد ذاته لا يعنى شيئا بقدر ما يضطرنى الى كراهيــة بعض الناس .

ـ لــكن بعض النـاس جــديرين بالكراهية .

يجعل كل شىء لا يحتمل اذا ظللنا نفكر فى الأسباب فان يكون لدينـــا وقت لأن نعيش وأن نحب ..

ـ هذا صحيح ولكنه بغيض .

ـ ما هو البغيض ؟

ـ ان أجد نفسى مضطرا لقتل أحــد الناس .

قالت فى جزع محقون بالشك .

ـ هل تنوى أن تقتل أحدا .

ـ أشعر أحيانا برغبة فى قتل القوس بل كل الأقواس .

ـ لمـــاذا ؟ .

قال يحاول أن يزوغ .

ـ ليس دائما تكون الحياة فى الليل واضحة بدون قمر ..

ـ لابد أن يكون هناك سبب ..

ـ دائما كل شىء له سبب .. وذلك لماذا تنظرين الى الأرض ؟ ..

ـ أفكر فى القوس ..

ـ مـــاذا ؟ ..

ـ كنت أقول انه لابد أن يكون هناك سبب يجعلك تكره بعض الناس هكذا ..

انى أكره هــذه اللحظة فانها تفصلك عنى .

ـ هل قلت لك ان اختا لى ماتت ؟

ـ كانت أختك الوحيدة ..

ـ قتلها رجل منتفخ البطن ... كتلة ضــخمة من اللحم تشبه القوس .. ذهبت اليـــه ذات يوم وفوق ظهرى نصف جوال ارز وعنــدما طرقت بابه نظر الى فى دهشـــة ثم منحنى نصف قرش وأغلق الباب فى وجهى .. نزلت اعد درجات السلم .. كانت خمسة وأربعون درجة ..

ـ متى حدث ذلك ؟ ..

ـ فى كل لحظة .

ـ ايــه .. ؟! ..

ـ أقصد اننى أذكر ذلك فى كل لحظة كنت فى الحادية عشر تماما عندما خرجت بهــا عربة اســعاف قديمة لها جرس مخنوق ... كان منظرهما مخيفا ..

العــربة وأختى .. كان وجه أختى وصدرها قــد تحول الى ما يشبه ورق الكوريشة الأسود ..

هل تعرفين ماذا حدث منذ أسبوع ..؟

ـ ورق الكوريشة الأسود ؟!! .

ـ قال القوس للرجل .. هل لديك رخصة ســواقة .. حسن لا تعتقد أن الحصول على وظيفــة ســائق بالشركة بالمسألة السهلة .. لابد من بضع ترتيبات لذلك ثم همس فى أذنه ببضــع كلمــات لعبانية ..

وفى اليوم التالى حضر الرجل حامــلا ثلاث زجاجات كبيرة من الوسكى ..

كانت امى تجرى خلف العــربة تعوى اما ابى فقد أخذ يمسح رأسه بالحائط ككلب أجرب . أما أنا فقد التف حولى بضع صــبية راحــوا ينظرون الى فى وجوم ..

ـ هل كنت تبكى ..

ـ كلا .. كان ذلك صــعبا على .. ولكن بعــد شهر ظللت اضرب رأسى بالحائط وابكى حتى ينتابنى الأغماء .

ـ ما أفظع ذلك .. هل قلت ان رجلا قتلها ؟ ..

ـ ماتت محترقة .. كان ابى هــو السبب .

ـ أبوك ؟! ..

ـ كان نجار مراكب يهمه حتى الموت الحصول على عمل ثابت .. كانت لعنة بصقها شيطان من أقارب أمى فوق ورقة قدمها أبى ذات يوم لرجل له رأس كبيرة وبطن منتفخة وعينــان حمراوان .. رجل له أهمية .. وأبى يريد الحصول على عمل ثابت والعمل موجود عند هــذا الرجل .. والمطلوب شىء من التصرف . هكذا قال قريب أمى وهو يقــدم لأبى التوصية ..

قال الرجل لأبى .. يمكنك أن تمر على بعد أسبوع .. قل لقريبك ان يحضر لنا نصف جوال أرز .. قال أبى لقريبنا صاحبك يريد نصف جــوال أرز غمز قريبنا لأبى قائلا .. اذن تصرف .

حملت انا نصف جوال الأرز وذهبت بها الى منزله وانتظرنا بعد ذلك أسبوعا

ـ هل حصل ابوك على عمل ؟ ..

ـ ذهب أبى بعد أسبوع وعاد يطلب منى أن أذهب بصفيحة ســمن وبعــد يومين كان ابى يشترى له الخضــار ولوازم البيت ثم قمت انا بهذه المهمة . كنا جميعا كالكلاب تلهث خلف قطعة لحم فى يد رجل يسير وهمو يبتسم .. لم يطردنا ولم يقــدمها لنا .. بل جعلنا نسير خلفه وعيوننا معلقة بقطعة اللحم على أمل ان يلقيها الينا يوما ..

قال أبى لأمى ذات يوم .

ـ البيه يريد أحدا لتنظيف شقته .. هربت الخــادمة التى عنــده .. هــل تستطيعين الذهاب ؟ .

ـ قالت أمى .. انى مريضة .. هل تذهبين يا عائشة .

نظرت عائشــــة الى أبى فاصطدمت بنظراته الذليلة فذهبت فى اليوم التالى . ثم ظلت تذهب بعدها كل يوم .. وفى ذات يوم همست عائشــــة فى أذن أمى ببضع كلمات .. دقت أمى صــدرها بعدها ثم همست بها فى أذن أبى .. جــزع أبى فى البداية ثم قال ببساطة ..

ـ هل يعقل ذلك ؟ رجل كبير فى المقام مثله .. أنت واهمة يابنيتى .. اذهبى كلها أسبوع بعدها يأتى الفرج .

ـ هل حاول الرجل شيئا ؟ .. لماذا صمتت ؟ .. هل تبكى .

قال كأنه يعوى .

ـ اقسم أنهـا كانت طفلة .. كانت عائشــة لا تزال طفلة لم ينضج ثدياها بعد .. لم أكن أيامها أدرك أشياء كثيرة يعبر عنها وجه فتاة طفلة تذهب وحدها الى شــقة رجل .. ولكنى كنت أشعر بأن شيئا ما مؤلما ومهينا يحدث لها .. انطفــأ بريق الطفولة فى عينيهــا .. وسقطت أهدابها على عينيها فى كآبة .. أصبحت كوردة داستها أقــدام خنزير أنها تبكى الآن .. تحاول أن تكتم نشيجها الصخرى .

ـ الآن ؟ .. قلت انها ماتت .

ـ أحرقت نفسها .. ولكنها لم تمت داخل رأسى .

انقطع الحـديث بينهم فجاة ولفهما الحــزن برداء الصمت وسارا مطرقى الرأس ينصتان الى وشوشــة مويجات البحر مختلطــة بوقع اقدامهما غير المنتظمة بينما كانت مساحات سحيقة من الزرقة الداكنــة تتنفس اصوات غريبة .. ربما كانت أصوات الليل .

قال وهى تغرز كعب حذائها فى الرمال الرطبة ..

ـ هل للرجل أخت .. ؟

ـ أى رجل ؟ ..

ـ ذلك الذى يأتى لرئيســـك فى المكتب .

ـ وربما زوجه .. وربما ليس أحد ولكنها لعبة دنيئة .. أليس كذلك ؟ ..

ـ ليست اللعبة الوحيدة على أى حال ومع ذلك ففى الحياة ملايين من الأشياء الطيبة .. يجب أن نهتم بهذه الأشياء . فانها تخفف من مرارة الحياة .

ـ عندما تغوص المرارة عميقا فى قلبك فتدفع بالحقــد الى عروقــك سوف تجدين من الصعب التحدث عن الأشياء الطيبة وطالمــا هناك أقواس فى العالم فستظل الحياة مريرة .. لابد من تدمير كل الأقواس فى العــالم .. لن يغسل اللعبة الا الدم .. فبكل ما لدينا من حقد سنجعل الحياة طيبة ..

ـ بل بكل ما لدينا من حب .

ـ انت تفكرين بعقلية امرأة .

ـ وأنت تفكر برأس الحقد .

ـ الحقــد هو الوسيلة الوحيدة لتنظيف الحياة .

ـ الحب يضىء الحياة فى ليلة ليس لها قمر .

ـ ترهات .. هل يمكن أن يقوم الحب على تل من العفن .. نظفى الحياة أولا وسيكون الحب بعد ذلك أكثر اشراقا .

عاد الصمت يحتوى قلبيهما فجاة .. ولـكنهما عادا فقـالا جملتين فى نفس الوقت .. اختلطت كلماتها فحاول كلاهما أن يدع الآخر يتكلم فلاذا بالصمت ثم قال كل منهما للآخر .

ـ ماذا كنت تقول .

فقال كلاهما .

ـ لا شىء .. لا شىء .

نيقوس كزانزاكيس في حياته ورواياته

بقلم نقولا يوسف

متولي

ما زال الأديب اليوناني الكبير – « نيقوس كزانزاكيس » محتفظا بمكانته على رأس القائمة التي تضم كتاب القصة الحديثة اليونانية ، المنتقلة الى الميادين العالمية .. وقد يليه هنا من مواطنيه القصاص : « ايليا فينيزيس » أو زميله : « ميرفيليس » .. وقد يضارعه في العبقرية الشعرية : « سيفيريس » – الفائز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٦٣ – وكان كزانزاكيس مرشحا لهذه الجائزة قبيل وفاته عام ١٩٥٧ .



وكانت حياة كزانزاكيس ، ملحمة تمثل الصراع في مختلف اشكاله – صراعا بين روحه وجسده ، وصراعا بين آرائه المتحررة وبين الآراء المحافظة ، وبين مثله واحلامه وبين الواقع وسلطانه .. وكان امر ما فيها خاتمتها – فقد عاش فقيرا جواب آفاق ، فما ان مات حتى اقبل القراء على قصصه فترجمت الى شتى اللغات ، وانقلب الأعداء القادحين الى معجبين مادحين .. واخرجت هوليود الى الشاشة روايتيه : « الحرية أو الموت » و « زورباس » .. وانهال المال على ارملته التي شاركته الغربة والافلاس – فدارت على الملاجيء والمعاهد تهبها العطايا في ذكراه ..

ولا شك ان روح الكفاح الذي سيطر على حياته وقصصه واشعاره ، كان وليد تلك البيئة الجبلية المناضلة ، وهو من ولد عام ١٨٨٥ بجزيرة كريت (اقريطش) كبرى الجزر اليونانية بالبحر المتوسط ، وبها أمضى صباه ومطلع شبابه . وظل وفيا لها طيلة حياته ، وزاده اغترابه المديد عنها حنينا وشوقا اليها .. وكانت صورها وذكرياتها ، وكفاحها وثوراتها ، مصادر الهاماته في شعره ورواياته – حتى نقل اليها ليدفن في ثراها بعد وفاته ..

فلطالما كانت هذه الجزيرة هدفا لغزوات الفاتحين والمستعمرين – من رومان وبنادقة وترك فألمان في الحرب العالمية الأخيرة .. وكان قصاصنا قد شـهد في حداثته خواتيم الصراع بين اهله ومواطنيه وبين الترك الغزاة – بعد أن دام نحو ثلاثة قرون – عادت بعـدها الجزيرة عام ١٩١١ الى أمها يونان ، كما كانت في اقديم الزمان .

ولا عجب اذا كان المسرح الذي تمثل عليه أحداث قصتيه الكبيرتين : « الكسيس زورباس » و « القبطان ميخاليس – الحرية أو الموت » ، هو تلك الجزيرة المناضلة

من اجل حريتها .. وصحيح انه يحب السلام وينادى بالاخاء ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يحب الاستعباد والاعتداء ـ فصور فى هاتين القصتين الصراع المرير بين الحرية والحياة وبين العبودية والموت .. وفى مؤلفات أخرى يبدو الصراع فى صور معنوية ـ كالصراع بين الروح والجسد ، وبين المثل العليا والواقع السفلى ، وبين الرأى المتحرر المنطلق ، والآخر الرجعى المقيد ـ كما نرى فى قصتيه الشهيرتين : « المسيح يعاد صلبه » و « التجربة الأخيرة » ، وفى : « مسكين الله ـ فرنسيس الاسيسى » ، وفى ملحمة « الاوديسية » (العصرية) ، ومسرحية « جوليان الكافر » وفى كتابه « خطاب الى الجريكو » .. ثم ما يسود قصصه من صراع بين حق الفن وحق النص ..

ثم انك اذا استعرضت مؤلفاته الستين ـ ومنها عشر روايات ، وثمانى عشرة تمثيلية ، وستة كتب فى الرحلات ، وثلاثة فى الفلسفات ، وديوان شعرى ، وملحمة « الأوديسية » ، وكتب النقد والمقالات ، وكتب للأطفال ، غير رسائله الخاصـــة ، ومترجماته الكبرى ، أخذتك تلك الشاعرية الرقيقة ، وفنية التصوير الدقيقـــة ، والانسانية دائما والصوفية أحيانا ـ مما يمتاز به هذا النتاج الأدبى الموفور حيث تمتزج القصة بالشعر ، والرحلة بالتصوير ، والدين بالفلسفة ـ وعادت بك الذاكرة ولا شك الى ما قراته او شاهدته من صور تلك الجزيرة فى ماضيها وحاضرها ـ وهى الصور التى نشأ بينها هذا الفنان فهيمنت على مخيلته ولازمته بقية حيـــاته .. فثمت الجبال الصخرية الشامخة ، والتلال المكسوة بالصـــنوبر يعلوها جبل « مداروس » المطل على مدينة « قنديه » .. والبقاع الجرداء والمراعى الخضراء .. واشجار الفاكهة والكروم وأحراج الزيتون .. والخلجان الكثيرة المتعرجة السواحل ، وكانت منذ قديم مرافىء للسفن المتاجرة مع مصر ويونان والشام .. ثم تلك الأطلال المبعثرة فى انحاء الجزيرة تتحدث عن حضارة عريقة وشعب عرف الكتابة بالرموز ، ونبغ فى فنون النحت والتصوير والمعمار .. وعن مدينة « كنوسوس » التى جعلها « مينوس » مقرا لملكه وقصوره قبل حــرب تروادة ـ الى أن اندمجت كريت عام ١٥٠٠ قبل الميلاد فى اليونان وحضارتها ولغتها .. وحتى دخلت فى حوزة الرومان عام ٦٨ ق . م .

وفى هذا الجو المسحور ، ولدت من الأساطير والحكايات ما يثير خيـــال الشاعر القصاص .. فهذه اسطورة تقول بأن « زيوس » كبير الآلهة شب فى كريت قبـــل ان يتربع على عرش الأولمب .. وانه هنا ظهرت المدن المئة التى تغنى بها هوميروس .. وان فى مدينة « كنوسوس » أيام الملك « مينوس » شيد الفنان « ديد الوس » قصر « اللابرنت » ليحبس فى متاهته الوحش « مينوتور » فلما غضب عليه الملك صنع لنفسه ولابنه « ايكاروس » اجنحة تلتصق بالشمع فى الجسد ، وطارا بهـــا عبر البحر .. وان شاعر كريت ونبيها « ابيمينيدس » ـ من القرن السادس قبـــل

الميلاد – ارسله أبوه وهو صبى ليبحث عن خروف ضال فالجاه التعب الى كهف نام فيه سبعا وخمسين سنة ولما استيقظ وعاد الى بلده وجد أخاه الأصغر شيخا .. وانه كان يوبخ اهل وطنه حين مالوا الى الكذب والجشع ، مما استشهد به بولس فى رسالته الى « قيطس » فى الانجيل حين أرسله ليبشر كريت بالدين الجديد ..

* * *

وسط هذه الصور والذكريات ، ولد « نيقوس كزانزاكيس » ، وشب وتلقى تعليمه الأول . اقبل أن ينتقل الى أثينا عام ١٩١٠ ليدرس القانون فى جامعتها ، ويتعرف الى أوساطها الفنية والادبية ، ويتقن بعض اللغات الاوربية ، ويكتب فى الصحف ويراسلها .. وينشر قصته « البناء المعلم » عام ١٩١٠ وكان قد سبقتها قصته : « حية وزنبقة » عام ١٩٠٦ . ويقرأ نتشه ويتأثر بتعاليمه عن ارادة القوة والسبرمان ، ويترجم الى اليونانية كتابه « هكذا تكلم زرادشت » ويكتب عنه المقالات .. كما يدرس « جوته » ويترجم روايته « فاوست » ، ويقرأ دانتى ويترجم كوميديته السماوية .. وينهل من الأدب الأغريقى وفلسفات اليونان وبخاصة اشعار هوميروس ، وينظم مثله ملحمة عصرية سماها « الأوديسية » فى أكثر من ثلاثين الف بيت شعرى .. وتصطدم آراؤه مع عقائد المحافظين ..

وكان قد تعرف الى الكاتبة اليونانية « غلاتيا كزانزاكيس » وكانت تنشر القصص ، وتهتم بالطفولة والمسائل النسوية ، وتزوجا – ولكنهما لم يتفقا فى الرأى والعقيدة ، مما ادى الى افتراقهما ، ولكنها ظلت الى آخر حياتها تتلقب باسمه وتضعه على مؤلفاتها – ومنها « الطيور الجريحة » – ١٩٢٥ و « نساء ورجال » ١٩٣٥ ...

وفى مايو ١٩٢٤ عرف كزنزاكيس فى كريت ، شريكة حياته : « هيلين » وتزوجها وكان قد أشرف على الأربعين وكانت فى التاسعة والعشرين – فعاشت معه فى وفاء وصداقة بقية حياته ، ولم تزل تجمع آثاره وتدير اعماله بعد وفاته .. وارتحلت معه عقب زواجهما فى رحلتهما الأولى خارج الوطن ، الى فلسطين عام ١٩٢٤ ومنها ذهبا الى روسيا ، والى الهند والصين واليابان ..

وكان كزانزاكيس رحالة يجوب الآفاق ، وزودته أسفاره الطويلة المتعددة فى اقطار الشرق والغرب بالخبرة الواسعة ، وبمعرفة الشعوب ، وملأت قلبه بحب الانسانية قاطبة ، ومحت فى نفسه التعصبات كافة ، ونقلته من النشوية التى اعتنقها فى الشباب ، الى الرحمة والايثار والاخاء العام – وقد زار فرنسا وايطاليا ، واسبانيا وانجلترة وروسيا ، ومصر وفلسطين ، والهند واليابان والصين ، وطاف ببعض الأقاليم الافريقية .. كما تنقل بين اليونان وكريت وجزر بحر ايجه – واعتكف فترة بجزيرة « ايتا » الصغيرة ليكتب وينظم .. ومات ببلدة « أنتيب » على ساحل الرفييرا الفرنسية .. وكان يرسل الى الصحف مشاهداته فى البلاد ، وينشر

الكتب فى ادب الرحلات .. فكتب عن برجسون وفلسفته يوم عرفه بباريس .. ونشر عام ١٩٢٧ كتابا بعنوان : « رحلات » ، وآخر عن رحلته بانجلترة طبع عام ١٩٤٥ ، وكتابا عن اليابان ظهر قبيل وفاته عام ١٩٥٧ — وطبع خمس مرات .. وله مؤلف عن رحلته بمصر وسيناء وافريقية وفلسطين ، وآخر عن الصين ..

وحدث عندما كان ببلاد اليونان عام ١٩٤٦ ان دعوه الى ميدان السياسة ، فراس المجلس الأعلى للحـــزب الاشتراكى ، وعين وزيرا للتعليم فى وزارة « باباندريو » الديمقراطية .. ولكنه ما لبث ان احس بتيار السياسة والحزبية يجرفه بعيدا عن الفن الذى كرس له حياته ، فترك السياسة واحزابها ورحل عام ١٩٤٧ مع زوجته « هيلين » الى فرنسا ، ولم يعد الى بلاده منذ ذاك الحين ، وفى فرنسا اسندت اليـه « هيئة اليونسكو » الاشراف على ترجمة بعض المؤلفات ولكنه ما لبث ثانية ان هجر المناصب وتفرغ الى يوم وفاته الى وضع المؤلفات والقصص التى طار بها صيته وذاع اسمه فى انحاء الأرض ..

وكانت خاتمة المطاف فى بيت فقير ببلدة « انتيب » الصغيرة الهادئة على ساحل الرفييرا جنوبى فرنسا ، حيث امضى الفترة الأخيرة من حياته حتى يوم وفاته من عام ١٩٥٧ شيخا فى الثانية والسبعين ، وحيث كان يكتب ويملى على زوجته كتاباته الاخـــيرة ..

ولكن كنزاكيس ما لبث ان ترك صومعته وقلمـه فى « انتيب » ، وودع بها الحياة كلها فى خريف ١٩٥٧ .. وخلف مخطوطاته ورسائله وذكرياته بين زوجته — الانسانة الوحيدة التى احبته فى حياته وبعد موته ، وعاشت معه ثلاثا وثلاثين سنة كانت فيها موضع محبته واحترامه وثقته .. ونقلت جثمانه فى مسقط راسه .. « كريت » ..

واما قصته « الحرية او الموت » واسمها الاصلى : «القبطان ميخاليس» وقـد قراها الكثيرون مترجمة الى عدد من اللغات ومنها ترجمة « جوتائات جريفين » الى الانجليزية عام١٩٥٦، او رأوها علىشاشة السينما ، فقد قابلها كبار النقاد باعجاب، وقال ناقد المانى : «انها قصة الانسان فى صراعه الأبدى من اجل حريته ، وكأنما كانت عناصرها محفورة فى الجرانيت او منقوشة على جدار كهف ، واذا كانت كل قصة شطراً من الدنيا فهذه القصة دنيا بأسرها ! » .

وفى اسلوب قوى متدفق يصور كزنزاكيس كفاح تلك الشراذم من الفـــلاحين والصيادين والملاحين ، المسلحين بالأسلحة البدائيـة ، والثائرين فى وجـــه قوات الامبراطورية العثمانية ، ينازلونها فى معارك وحشية ، باذلين الجهد والارواح .. يتخللها صور انسانية رقيقة ، وعرض لنفسيات الكثير من الشخصيات المختلفـــة الاشكال والأعمار والمذاهب والأجناس — من ملاحين ومدرسين ، وقسوس وفلاحين، واتراك ويونانيين ، ويهود ومسيحيين — وتمر بك الأسماء الكثيرة — التى تعيش معا

فى تلك الجزيرة .. وها هو الربان ميخاليس والعمة كاترينه ، ومصطفى بابا وامينه ، وديمتروس ورمضان ، وفوتيوس وسليمان ، ونورى بك وكوزماس ، واسـطفان والقبطان سفاكاس .. وكلهم أحياء أمامك يتحدثون ويرزقون ، والأحداث تمر بهم فى صورة عريضة واسعة هى صورة الدنيا بأسرها .. وفى النهـاية يتساءل الربان ميخاليس ـ التى سميت القصة باسمه ـ وهو يسير الى المعركة الأخيرة الميئوس منها ، والتى يعرف أنه لن يكسبها ـ : اهى الحرية أو الموت ؟ ـ وكانت هى صيحة القتال لكل محارب ثم كانت هى صيحة « ميخاليس » حين يحدق به ويقتل ..



وكان كزانزاكيس ـ كما يقول ناقد آخر يفضل كتابة ذلك النوع من التاريخ الذى يصنعه الله والانسان والشيطان ، ويستحوذ على قارئه لأنه يسبغ على شخصياته ـ حتى فى لحظة الموت ـ انتفاضة الحياة ..

كذلك كانت قصته : « حياة الكسيس زرباس » أو « زوربا الاغريقى » ـ التى نشرت باليونانية عام ١٩٤٦ وترجمت أخيرا الى بعض اللغات ، ثم ظهرت على شاشة السينما ، رواية كريتية كبيرة ، تعرض فى شخصيتين رئيسيتين ، فلسفة الثقافة عند الرجل البسيط كما يفعل التاريخ عادة مع شخصياته .. وتصور الصراع بين عقليتى الرجل المفكر المثقف وبين العقل السطحى الذى يكتظ العالم بأصحابه ..

ويستوحى كزنزاكيس قصة السيد المسيح فى اطارها القديم المعروف ، روايته التى سماها « التجربة الأخيرة » ـ ويقصد بها التجربة التى حدثت للسيد المسيح حين التقى به الشيطان ، وعرض عليه أمجاد العالم ومغانمه ليطيعه ، فرفضها جميعا ، وانتصرت روحه على مغريات الدنيا ـ غير ان كزنزاكيس أرخى العنان لخياله فى بعض الوقائع ، فأضاف وبدل وفسر والبس بعض الشخصيات التاريخية ادوارا جديدة ، وقال انها قصة انسان مكافح لا ترجمة لحياة ، وانه كان حتما عليه ان يكتبها هكذا . . وذكر فى المقدمة ان طبيعة المسيح الثنائية ـ اى طبيعتاه السماوية والبشرية ـ كانت له سرا مستغلقا ، فصورهما فى قصته صراعا بين الروح والجسد . . ومع ذلك فلم يسلم من غضب المحافظين من رجال الدين وغيرهم ، فشنوا عليه حملــة شعواء واستعانوا بحكومة بلاده فسحبت ترشيحها له لجائزة نوبل ، واجل الترشيح حتى تهدأ العاصفة . ولكنه مات قبل ان يفوز بالجائزة ، وقبل ان يعود أكثر اعدائه الى فهمه وتكريمه . . وكان باب النقاش قد ظل مفتوحا حول قضية الصراع بين حق الفن وحق التاريخ ، ومدى حرية القصاص فى التصرف بالحوادث التاريخية ـ ولقد مارس اهل الفن منذ القديم من قصاصين وشعراء ومصورين ، هــذه الحرية فى مبتكراتهم الفنية ـ والأمثلة لا تعد ولا تحصى ـ وتجاوز النقاد عن تصرفهم ما داموا يدورون فى فلك الواقع التاريخى الصحيح ، ولكن ما اثار هؤلاء النقاد على قصة كزنزاكيس هذه ، وعلى قصته : « المسيح يعاد صلبه » ، وكتابه عن القديس فرنسيس الأسيسى هو ما ابتكره خياله من وقائع لم ترد فى النصوص التى يرون التمسك بحرفيتها . .

فهو يبدأ قصته : « التجربة الأخيرة » بتصوير السيد المسيح وهو يتدرب فى دكان يوسف النجار ، وهناك يصنع صليبا من الخشب سوف يصلب عليــه قائد « المقاييين » فيكرهه أهل القرية ، ولكنه لا يرضى عما صفح ويهجر الدكان والناس ، ويخرج الى البرية ويلجأ الى دير ، ويعرف رئيس الدير قبل ان يموت ان هذا الشاب هو « المسيح المنتظر » . . وعندما يخرج ويعلم الجموع ان يحبوا بعضهم بعضا ، ويلتقى بيهوذا الحداد ، يرى يهوذا انه حالم وانه عندما قال المسيح : « انى سأخلصكم » كان يقصد الخلاص من الرومان ، ويجعل كزنزاكيس من يهوذا عضوا فى جماعة « الاخوان القديسين القتلة » ـ وكان مكلفا بقتل السيد المسيح لتسامحه مع الرومان . . ويكتب المؤلف عن عبارة « الهى الهى لماذا تركتنى » ؟ عشر صفحات ـ وفى النهــاية يخرج القارىء من هذه القصة أكثر اعجابا بشخصية المسيح وكفاحه مما يخرج من المؤلفات المشهورة التى صوره فيها ـ كل بطريقته الفنية الخاصة : ملتون ، وبابينى ، ورينان ، واميل لدفيج وجبران . .

ولا تصور رواية : « المسيح يعاد صلبه ـ أو يصلب من جديد » حياة السيد المسيح ـ كما قد يفهم من عنوانها ، وان كان كزنزاكيس اســتعار مواقف بعــض الشخصيات التى كانت تحوط بالمسيح فى حياته فى سياق قصته الحديثة . . وهى

قصة الصراع بين الخير والشر ، ومسرحها قرية يونانية فى عهد الاحتلال التركى ، وبها كما فى غيرها قلوب طيبة واخرى خبيثة .. ويحتشد امامك هذا الخليط من الرجال والنساء على مختلف اشكالهم ومهنهم .. ويشاء أهل القرية ان يحتفلوا بعيد القيامة وذلك بتمثيلية تصور حياة المسيح ، يقوم بادوارها عدد من أهل القرية .. واختاروا لكل دور ما يناسبه من الخلق .. فعهدوا بتمثيل دور المسيح الى الشاب الطيب القلب « مانوليو » ، ودور يهوذا الى رجل سيىء الطبع ، ودور مريم المجدلية الى حسناء مستهترة .. وهكذا على ان يعدوا أمرهم الى يوم الحفل بعد بضـــعة اشهر .. ويزداد اثر هذه الادوار على ممثليها ، فيصبح « مانوليو » الشاب التقى الصالح ، وتحبه احدى الفتيات ولكنه مشغول عن الحب فتتزوج راعيا للغنم ، وتقع الحسناء المستهترة فى حب « مانوليو » وتتبدل حياتها وتعيش فى التقــوى .. واما حاكم القرية فرجل تركى قاس ، يقتل احد اعوانه غلام الحاكم المملوك ، ويتهم يونانى برىء بقتله فيشنقه ويمزق جسده وسط القرية .. واما قسيسها فرجل سمين جشع مقبل على الدنيا يعاونه آخر طيب صالح .. ويقبل على القرية جماعة من اللاجئين فيطردون الى الجبال ، ويذهب اليهم بائع فقير متجول فيوزع عليهم ما معـــه من امشاط وشرائط تسعد بها الفتيات المعدمات .. ويكون نصيب مانوليو الطيب ، التعذيب والقتل .. الى آخر تلك الصور المحتشدة والمتصارعة بين الخير والشر .. وهنا تبدو براعة كزنزاكيس فى التصوير والتحليل وقوة الأسلوب ، الى حد ان يقول عنها توماس مان : « ان هذه القصة ولا شك عمل قائم على نظام فنى عال ، شكلته يد رقيقة ثابتة ، وبنته فى قوة ديناميكية .. « ويذكر جـــون لهمان : « انها قصة العقل والحكمة والذكاء .. » فى حين يقول شفيتزر : « اننى منذ الشباب لم يترك مؤلف اثرا عميقا فى نفسى كما ترك كزانزاكيس » .



وعندما كان « كزنزاكيس » بايطاليا يطوف بمدنها وآثارها ، ذهب الى مدينة : « اسيس » التى نشأ بها الراهب « القـــديس فرنسيس الأســيسى » والمتوفى عام ١٢٢٦ م .. وزار قبره ودرس سيرته وتعاليمه ، واخذته صورة هـــذا الشاعر الزاهد المعدم الذى أحب الانسان والحيوان والطير والنبات ـ الى حد تسميتها : باخى الحصان واختى الشجرة .. ووضع كزانزاكيس عنه كتابا يجمع بين القصة الفنية والسيرة ، والرحلة والشعر والفلسفة ، وسماه « مسكين الله » .. وذكر فى مقدمته : « اذا كنت قد تخطيت الكثير من اعمال فرنسيس الأسيسى ، او بدلت فى اشياء اخرى ، او اضفت اعمالا لم يصنعها ، فانى لم افعل هذا عن جهل او قلة احترام ، بل عن حاجة اصل بها بين حياته الحقيقية وحياته المجازية .. » .

وقد تخيره كزانزاكيس من بين صحف التاريخ الدموى ، وصوره لابسا رداء الفن ، واهدى كتابه الى « البرت سفيتزر » الذى اعتبره فرنسيس العصر ..

وكانت قصة فرنسيس قصة المحبة والرحمة والسلام ، فى حين كانت قصته

« الربان ميخاليس » قصة الحرية او الموت ــ الاولى كفاح الانسان من اجل السلام والمحبة والاخاء ، والثانية كفاحه من اجل الحرية والعدالة والمساواة . .

وفى قصة يعيرها الفنان جناحين ، ويسبغ عليها جو عصره ، من دون أن يبعدنا عن دنيا الحقيقة التى تعيش فيها ، يصور لنا كزنزاكيس ذلك الراهب المتقشف الصالح الداعى الى المحبة والسلام ، والممارس فى اسلوب حياته ما يدعو اليه ــ فى صورة فنية محببة الى قلوبنا جميعا . .

وأصدر كزانزاكيس عام ١٩٢٨ ملحمة شــعرية ــ أو قصــة فلسفية ــ فى اربع وعشرين اغنية ، وفى ثلاثة وثلاثين الف بيت ، وسماها : « أوديسيوس » ــ وهو اسم بطل الاوديسية فى ملحمة هوميروس المعروفة ، والرجل الذى تتصارع فى قلبــه الرحمة والقسوة ، والدهاء والصراحة ، والشهوة والزهد ، والوداعة والكبرياء . والعظمة والبساطة . . فاتخذ منه فناننا بطلا عصريا لرحلاته فى أفريقية ــ حيث يصطدم بنماذج شتى من الناس ، منها ما يمثل فلسفة اللذة ، ومنها ما يمثل فلسفة الزهد ، ومنها ما يمثل دونكيشوت ، أو بوذا أو المسيح ــ والرحالة يصغى الى فلسفاتهم جميعا ، ويتأملها ويرفضها جميعا ــ على طريقة برنارد شو فى قصتــه : « الفتاة السوداء تبحث عن الله » وعلى طريقة راكب البحر المتجول « أوديسيوس » بطل اوديسية هوميروس ، وهو يصطدم فى أسفاره بشتى متاهات العقل والعقيدة والتقاليد . . ويصف الناقد الفرنسى ميرامبل هذه الملحمة العصرية الموضوعة فى قالب اسطورة قديمة بانها : « تصور القلق الميتافيزيقى الناجم عن التجربة القلقة التى تسود العالم الحديث فى طموحه الى العلا ، لا عن طريق الطقوس والتقــاليد ولكن بمجهود الانسان الذى يبحث عن السعادة فى معرفة الله ، فهى تعالج عودة الروح ، وعودة الخلاص ، وسط الخطر الذى تقع فيه العلويات ، وبحث الانســـان عنها بلا انقطاع ــ انها اسطورة جديدة قادرة على أن تعطى العالم معنى عصريا جديدا . . » .

وكان كزنزاكيس قد صور حياته النفسية والفكرية فى « خطاب الى الجويكو » . . ثم كان آخر ما نشره مقالة نشرت بعد وفاته ــ عام ١٩٥٩ ــ بأميركا فى كتاب عنوانه : « الايمان » مع مقالات لكتاب آخرين ــ جاء بها :

« كان منبع تعاستى منذ مطلع حياتى ، هو الصراع الذى كان ينشب فى نفسى بين روحى وجسدى . ولقد دام هذا الصراع سنوات طوالا ، جربت معه شتى الوسائل كى اخلص نفسى ، وفى يأس ذهبت الى جبل « آتوس » وترهبت فى صومعة عدة اشهر ودربت جسدى على الحرمان والجوع والعطش . . وفى ذات ليلة رأيت الخيط الأحمر الذى تخلف وراء محارب يصعد الى الجبل ــ آثار اقدام حمراء خارجة من الحياة الى الروح . . وعرفت واجبى وهو أن أسير وراء هذا المحارب المكافح . . وأصبحت حرا ــ ولم اغير الدنيا ، ولكنى غيرت النظرة التى أتطلع بها الى الناس . . » .

لقطات من حياة فنان

بقلم توم سوياد

ترجمة زهير البيومي

كل انسان يرتكب حماقات كثيرة فى مستهل حياته العملية ؛ ولابد أنك ، يا عزيزى ، واحد من هؤلاء ، ولست أقول « لابد » لأننى ـ أيضا ـ واحد من هؤلاء ، وانما أقول ذلك لأنها سنة الحياة .

قتلت امرأة فى الأسبوع الأول من بداية حياتى العملية ، وكان ذلك ناتجا عن سوء فهم للموقف ، اذ كنت جالسا وحدى فى مقر عملى بالجريدة ، بعد ظهر أحد أيام السبت حين جاءنى مسئول من مكتب المباحث وأخبرنى أنه قد عثر على تلك المرأة فى نفس المكان الذى اختفت فيه وظننت أنه يقصد القول بأنه قد عثر على الجثة ، وكتبت الخبر على هذا الأساس وفى اليوم التالى دق جرس « التليفون » فى مكتب رئيس التحرير وتحدث نفس رجل المباحث قائلا لرئيس التحرير ان السيدة التى نشرنا خبر العثور على جثتها لا تزال على قيد الحياة واستبد بى الرعب ودخلت الحمام كى أغسل وجهى محاولا أن أبدو طبيعيا ، ولكننى خرجت منه وقد ازددت رعبا فقد كنت أعلم ما يترتب على نشر اعتذار فى اليوم التالى فى صدر الصفحة الأولى عن خبر كنت أنا المسئول عنه أمام رئيس

التحرير ... الفصل من العمل ، وخاصة أنني ، كما سبق أن قلت ، لم يكن قد مضى على التحاقي بالجريدة أكثر من أسبوع ، وبعد يوم واحد حدث ما يثير الدهشة .. ماتت هذه السيدة في ظروف غامضة ، الشيء الذي سرني وأعاد الأمور الى مجراها .. كان هذا قبل أن تكتمل خبراتي الصحفية بالطبع .

استولى عليه الضحك لحظة وهو يقول ان أقرب فخ وقع فيه – حسبما تسعفه الذاكرة – كان حين استدعى لمقابلة رئيس تحرير (ايفننج ستاندارد) اثر خطاب ارسله في الوقت المناسب وبالأسلوب المناسب ، طالبا الحاقه بوظيفة فكان الحظ حليفه .

ظل لا يشعر بحاجة ملحة في التحرك نحو العاصمة (لندن) ، وكان من رأيه أن يفعل كل ما يرى أنه في صالحه فبدأ يشعر بالخجل من نفسه التي ارتضت العمل في الأقاليم حتى الخامسة والعشرين من عمره .

كان رئيس تحرير صحيفة (الايفننج ستاندارد) رجلا مسنا ورغم ذلك كان هيئته لا تبعث على الخوف الشيء الذي طمأنه فجعل ينصت الى أسئلته ويجيب عليها .

– هل لك ميول خاصة ؟ .

– ميول .. ؟ .. آه .. نعم .. أميل الى القراءة .

وظن رئيس التحرير ان سؤاله قد فهم على غير ما يريد فاستطرد قائلا :

– اقصد .. هل لك اهتمامات سياسية ؟ .

– آه .. نعم .

– اذن من هو وزير الخارجية ؟ .

وتتابعت الأسئلة بعد ذلك حتى وصلت الى القانون ، وانواع المحاكم ، واختصاصاتها ، وقرر هو بينه وبين نفسه أنه أمام امتحان عسير ... لقد قال ان له اهتمامات سياسية ، ولم يقل ان السياسة قد ملكت عليه تفكيره .. وقال بينه وبين نفسه ان بوسعه أن يجعل وزير الخارجية من يشاء في قصة يكتبها هو .



استيقظت على منظر الساحل صباح اليوم الأول ، ولازمني الاحساس الذي يولده في النفس منظر الرمل القاتم قبل شروق الشمس ، وراحت هي تسير على شاطيء البحر ممسكة حذاءها باحدى يديها .. وكان قد مضى على بعض الوقت ، منذ كنا في « مرابلا » ، تلك المدينة التي كان يطلق اسمها على المنازل القديمة الفضية الطلاء الواقعة في سفح الجبل ، وقبل أن يطلق على الحانات والنوادي التي على طول الطريق الساحلي ؛

استغرقت رحلتى الى ذلك المكان عشرة أيام لم أشعر خلالها بمرور الوقت ، وتركونى أعانى الوحدة من « أڤينون حتى « نارابون » . وبعد أن اغلقت المقاهى أبوابها بدأ المطر ينهمر فى ميدان « نارابون » وعلى الأشجار ، وعربات النقل الثقيلة مندفعة نحو الشمال ، تتلألأ أنوارها خلال المطر .

وأتى الصباح .. كان الجو حارا فوق الجسر ، وعبر الطريق الطويل الممتد بين مزارع العنب وراح يشاور للعربات لعلها تقف ، وتوقفت له سيارة فاخرة كانت فى طريقها الى « برشلونة » واندفع الى داخل السيارة التى راحت تنزلق على طول الساحل لتشق مدينة «مالاجا» التى تبدو وسط الجبال المحيطة بها عارية بنية اللون ذلك اذا ما نظرت اليها بطرف عينك .

ووصلت الى جبل طارق ، وهناك تعرفت على تاجر هندى لو تذكرنى لكان من الممكن أن ينفحنى بمبلغ من المال .

وفى « مرابلا » تغيرت اشياء كثيرة والشىء الوحيد الذى لم أكن أعرفه عنها هو ان الاثرياء فى العادة ، لا يستيقظون مبكرا .. وفيما بعد حدثت أشياء كثيرة .. لنفرض أن هذه الفتاة لم تكن هى التى اريدها ، فلا بد أنها فتاة تشبهها .. ولكن هذا مستحيل .. ومع ذلك فلا بد أنها واحدة منهما .

كنت فى السابعة والعشرين اذ ذاك .. تماما .. وكان هذا بداية شىء آخر .. كنت أقف فى البحر وكان الماء يصل حتى سرتى ، حين تذكرت أننى لم أبلغ بعد السادسة والعشرين من عمرى ، وأيا كانت الآمال المرجوة فى هذه السن فقد ضـاعت بين أمواج البحر .. كنت ـ دائما ـ أقامر بعمرى .. كانت الأيام والسنون تمر سراعا .. هأنذا فى السابعة والعشرين مع قدوم الموجة التالية .. ان السنين تمر بسرعة المد والجزر ، ومع هذا فالحياة لذيذة ، واننى أقرأ معظم الليل ، واذا لم أكن دائب الشكوى فانها ستصحبنى فى رحلة الى الشمال فى الشتاء .

وفى سن الرابعة والثلاثين راح يتجول فى أرض معركة مليئة بالضحايا من الأبطال الجرحى الذين أجهز عليهم الواحد تلو الآخر ليريحهم من عناء الشعور بالألم . استغرق ذلك منه ثلاث دقائق وكانت زوجته تجلس أمام المرآة فى حجرة النوم لتزيل آثار الزينة الباقية على وجهها منذ الصباح ، وقد استغرقت فى ذلك وقتا أطول من الذى استغرقه زوجها فى الاجهاز على اولئك الضحايا .. قال بصوت متغطرس : « أنا لا أقول ان كتابات«بلزاك» كانت رديئة وقت كتابتها وانما أقول انها رديئة الآن .. أما ماكتبه « فلوبير » فقد ظل رديئا منذكتابته حتى اليوم ، وأما « ستاندال » فكانت كتاباته أردأ فى نظر معاصريه منها فى نظرنا ، الشىء الذى لا يقره أحد .. وكان رأى « وايلد » فى « هنرى جيمس » صائبا ... ومع أن « وايلد » كان من أكثر المثقفين حكمة فقد بخل بحكمته على الحياة .

... وأما العذارى من آل « برونتى » المريضات بالسل فكن خليقات بتوجيه مواهبهن الى الكتابة فى الشئون المنزلية والنسوية ، .. وأما « تاكارى » فكان مرحا أكثر من اللازم ، .. وضـحك

لفترة ثم امسك عن الضحك فجأة الشيء الذي استرعى انتباه زوجته ، اذ كان ضحكه وتوقفه المفاجيء عن الضحك مفاجأتين متلاحقتين ، ولكنه لم يعبأ بذلك ، وراح مسترسلا فى اصدار أحكامه : « أما « تولستوى » فكان يفتقر الى الأسلوب ، « وتورچينيف . ليست له آراء فيما يكتب ، «وبروست» لم يعرف متى يعتزل الكتابة .. حقا لا يوجد كاتب معاصر يضاهى « چويس » اذ لا يمكن أن نضع «لورنس» الذى كان رديئا فى كل ما كتب الى جانب « چويس » .. « كافكا » نال تقديرا فوق ما يستحق وان كنت لا تصدقنى ارجع الى ما كتبه « ادموند ولسون » أما ما كتبه « جيتسباى » فكان نكتة لا تستحق التسجيل ، ولكى تصدقنى أيضا ارجع الى ما كتبه «مانكن» ، واما « همنجواى » فكان مراهقا متحذلقا ، ولعل ما يؤيدنى فى كل ما قلت ما كتبه « دوايت ماكدونالد » . ما كتبه يقول : « القمم لم تعد صالحة لعصرنا هذا .. فما كتبوه كان لعصرهم ، وأما ما نكتبه فلعصرنا نحن » .. وانحنى مقتربا من وجهها ثم قال بصوت أجش : « اسمعى اننى أعرف ما أقول وما أفعل .. كل هذا من أجلك » .

وفى وحشية وبلا خجل همس بشيء لون همسه بلون الفحيح « أنا .. اشعر .. اشعر بحاجتى الى شيء » . ونهضت هى محاولة ألا تواجهه رغم الظلام الذى كان يحول بينهما وراحت تقول : « لا .. أرجوك .. وأرجو الا يغضبك امتناعى عنك هذه الليلة فاننى لا اشعر باى رغبة هذه الليلة » .

انى أفكر جديا فى النهوض من الفراش الآن ، رغم أن هناك شيئا



لا يزال يؤرقنى ، ذلك أننى لا أستطيع أن أتذكر ما اذا كنت قد نسيت أداء صلاتى بالأمس أم أننى تذكرت وقررت الا اصلى .. ان هذا لا يهم .. ذلك اذا كان هناك شيء اهتم له .. لقد تذكرت الصلاة بعد فوات الأوان .. وهل هناك من يحصى علينا صلاتنا ، .. خمسون سنة .. لم اقم فيها الصلاة الا فى ساعات الشدة التى كانت تعترض حياتى ، وقد مضت ، على كل حال .. حوالى خمسة آلاف ليلة نسيت أن أصلى فيها ، اما الباقى فقد قررت الا أقيم الصلاة فيها ، ولذا كان على ان أتذكر الصلاة فى الثلاثين سنة القادمة ، لو ظل الحال هكذا .. مستحيل ، فان دوام الحال من المحال .. « لا تيأس فقد نجا أحد اللصين .. ولا تتجبر فقد حلت اللعنة باحدهما » .. هذا جميل ، اعتقد أنه من كلام القديس « أوجستن » .. كلام جميل ولكنه لا يفيد .. يجب أن أنظف الحجرة .. يا الهى ما هذه الفوضى !!؟ ربما أرقد هنيهة أخرى .. فى هذه الأمسية سأحاول أن أجدل حبل أفكارى واشحذ همتى مرة اخرى لأكتب شيئا ، وبعد ذلك سانزل الى النفق لأركب القطار الى لندن حيث الشباب المتجدد بمرور الزمن ، .. ربما كنت أنا أقرب الشباب فى لندن الى الكهولة .. قد يصبح المرءوس ذات يوم رئيسا لمن يرأسه أيا كان ، .. الكلمة المركبة تتساوى بالكلمات البسيطة فى مكتب

البرق .. هه هه هه ... معظم الناس يشعرون بالملل في النهار ، ولكنى أجد انه من السهل على قضاء النهار بعكس ما يحدث لى بالليل .. يا الهى ارزقنا كل يوم بحاجتنا من الصحف اليومية ، واغفر لنا تدخلنا في شئون الناس .. انا آسف لأنى ازعجتك في مثل هذا الوقت ، ولكن متى قضت على وجه التحديد .. ؟! .. « لا .. لا شيء ألبتة اننى أعرف أيها الفتى أن عليك أنت وزملائك واجبات يجب أن تؤدوها .. لقد مضى على ذلك حوالى ثلاثة عشر عاما وشهران » .. يا الهى ارزقنا الاحساس وخلصنا من النميمة ... تذكرت .. بالأمس لم انس صلاتي ولم أقرر تركها .. بدأت الصلاة ثم رحت أصارع اليأس حتى قضيت عليه بطريقة ما .. لا اذكرها .. ولكنى اذكر اننى وجدت نفسى وقد توقفت عن الصلاة فجأة .. يا الهى اننى أكاد أموت غرقا في عقيدة من قيل انه سار على صفحة الماء ولم يغرق .. هذه العبارة السابقة لا بأس بها .. يمكن أن احشرها في قصة اكتبها .. عندما يسألنى الناس عن حرفتى أقول لهم اننى كاتب .

ان الكاتب في حاجة ماسة الى التشجيع ، ولكنه كلما كان بعيدا عن النشر كلما أصبح أقرب الى الله .. علينا ان نختار واحدا من هذين : الناشر أو الله حاول أن يقاوم رغبته في اختيار الله ، لأن رغبته في ارضاء الناشر كانت تفوق كثيرا رغبته في نيل رضاء الله ، اضف الى ذلك انه لم يكن واثقا ما اذا كان يؤمن بالله أم لا ، وفكر في أن يضرب عصفورين بحجر واحد فوضع الآلة الكاتبة أمامه وراح يتعبد .

وذات يوم تلقى من الناشر بطاقة الرفض رقم ١٢٧ ، وفجأة رأى نور الله واضحا فجثا على ركبتيه وصاح في غبطة : « يا الله .. يا حبيبى .. لقد رأيت نورك ، فاغفر لى سابق عنادى ، وتأمل خشوعى لك من الآن ؟ سأنبذ ملذات الحياة ، وسأجعل نفسى تحت امرتك ، وفي خدمتك على الدوام » .

وسمعه الله وأرسل ملاكا الى الكاتب وهو جاث على ركبتيه ليقول له : « ان الله يشكرك ويبلغك ، مع الأسف ، أن خدماتك ليست مما يناسب مملكته السماوية .

وحدث أن اكتشف الجثة أشهر نقاد العالم ، فقد عثر على المذكرة التى خطها الكاتب قبيل شروعه في الانتحار ، ولم يستطع أن يغض البصر عنها وانما صاح وهو لا يكاد يصدق حظه : « واحد آخر في اسلوبه فكاهة « جوجول » ولوذعية وقلق « كافكا » وشفافيته .. الخ .. الخ .. الخ .. لقد عثرت على الجسم الفنى .. العبقرية المغمورة ، وبهذا أكون قد اكتشفت خمسة .. اثنان فقط يرجى منهما وهذا أول الاثنين » . قال هذا وهو يقلب منقولات البيت رأسا على عقب باحثا عن بقية أعمال هذا الكاتب ، وقد عقد عزمه على أن يتعهده حتى يرقى به وبنفسه أعلى مراتب الشهرة ؟ ومن فرط هلوسته راح يصيح في جنون مفاجىء : « انا – كما تعرفون – مكتشف فلان الفلانى الكبير .. فتحت الباب وفجأة كان أمامى » .



أمي

بقلم جمال الغيطاني

البرتقال .. اين راح .. ؟؟

لا اعرف والله .. لا اعرف ..

سرقته .. انت سرقته ..

لا والله ..

قل اين البرتقال ..

وضربتني بيدها .. مرة ثانية بحذائها .. آلمني الكعب .. قصير لكنه آلمني .. مدبب .. وعلا صوتها.. وضربتني مرة ثالثة على صدغي .. واسرعت الى المطبخ .. وبدا لي حجمها كبيرا .. ضخما ..

سأحضر لك الذي يجعلك تنطق.. العصايا يا بنت .

تطلعت أختي من خلف الباب الي.. ودق قلبي .. سقط وعاء نحاسي .. فكسر زجاج فوق البلاط .. وزاد صريخها .. خفت .. استمرت تروح وتجيء .. مرت عربة .. مسرعة .. هذا هو الشارع الكبير . ترام بعربتين.

لونه اصفر . أهـذه هى السنجة ؟؟ وأطفال على السلم .. اخاف . قفز طفل . واسرع بعبور الشارع .. وقالت امى وهى تهزنى هزا رقيقـا .. لو ارسلتك تشترى شيئا احـذر ركوب الترام .. واذا ركبت فاحـرص على الجلوس فوق مقعد واقطع تذكرة .. قبلتنى فوق جبهتى .. وكنت اروح فى النوم ببطء .. وصوتها فى اذنى .. ياه نسيت طعم صـوتها .. نسيته والله .. لازلت صغيرا يا ولدى لا تركب الترام .. انت أقصر من سلمه .. اخاف العبور .. تمرق سيارات مسرعة كثيرة .. ومن الترام .. أحدث ضجيجا مخيفا مزعجا .. وضربتنى .. يا رب ياكلك الترام .. يا رب خبرك يجىء لى بمجرد خروجك .. يا رب . ونظرت مستعطفا الى أختى .. تقف صامتة .. فكرت فى ان ارجوها .. فهى تحبها ولا ترفض لها طلبا .. تقول لهـا يا ماما .. اما انا لم اقلها بصوت عال من سنوات .. يا نجوى انا شقيقك .. شقيقك والله .. قولى لها لا تضربنى ولا تحضر لى العصا .. العصا تؤلم .. والله لم اسرق البرتقال .. ولم اذقه .. تحركت ناحيتهـا .. وعضضت ياقة جلبابى .. فجاة .. اسرعت تجرى .. قفزت فوق السرير .. نظرت الى من فوقه .. ابتعد انت تريد ان تقتلنى .. تكسر كوب آخر فى المطبخ وراح الكعب الثقيل وجـاء .. واصبح صـوتها ضخما .. والله لاقطعن لحمه والله .. وتقلص وجـه اختى .. صاحت مرة ثانية .. ابتعد .. وادركت اننى لازلت اقف مكانى .. فتراجعت .. وعيناى مشـدودتان الى باب المطبخ .. قلت لا تغضبى يا أختى .. وبدات تبكى .. وكررت لا تغضبى .. يا حبيبتى .. فقـالت انا لست حبيبتـك . قلت لا تخاف .. لا تخـافى .. ونظرت الى النافذة مغلقة .. فى عصر يوم مضى من سنة وار الصراخ فى الحارة .. نظروا من الشرفات .. على الارض كومة .. مغطاة بأوراق الجـرائد قالت امرأة بدينة .. مسكينة زوجها كان يضربها دائما .. ولو فعلت انا .. سيطلون .. من ؟؟ ابن فلان .. مسكين كنا نسمع صراخه دائمـا .. كانت تضربه .. تصورى الساعة الثانية بالليـل نسمع صوتهـا وهى تضربه .. مسكين الله يرحمه .. اربعة جرائد تكفى لتغطية جسمى .. ويجىء ابى .. من .. ابنى مات .. » ويصيح انها السبب ويطلع اليها ويبتعد عنه الجميع ويكسر باب المخزن .. ويدخل الى المطبخ ويمسك بالسكين ..

انت السبب ..

لا والله ..

انت السبب ..

لم اتحرك الى النافذة .. وتساقطت اوانى النحاس وراء بعضها .. ولم تعثر على العصا .. وتمنيت ان تاتى جارة لنا على صوت الضجة .. وتهدئها قليلا رأيت بجوار الباب قشرة برتقال .. لست ادرى متى احضره ابى .. انت سرقت البرتقال .. كدت أصـدم برجـل .. مشيت على الرصـيف

والعربات كثيرة .. عربات الجاز .. والكارو .. والتاكسى .. والفاكهة .. والأوتوبيس .. والنـــاس اكثر من العربات مر اطفال صغار .. بينهم بنت صغيرة .. حلوة لها ضــــفيرة صفراء .. ومر العيد الصــغير اربع مرات .. والكبير .. وجـــاء رمضان وراح .. وفى الحارة اولاد .. لعبت معهم .. وقفت على بســطة السلم وضعت يدها فوق كتفى .. انزل يابنى العب معاهم خذ قرشين واذا فرقعت بالونة احضر غيرها .. وكل بالوظــه وحــلوى من الدكان .. من الدكان والمحها تطل من الشرفة .. اقف وسط الأولاد آخر حله لونها احمر ازرارها نحاسية صفراء .. أخـــاف ان انسى ملامح وجهها .. وقفت مستندا الى جدار قهوة وبكيت .. وامتلأ حلقى بكتلة غليظة .. ونظـــر ناس الى .. مسحت دموعى واصلت المشى .. وقال ابى غدا صباحا سنزور امك .. ولم انم طوال الليل وحرصت الا احـــدث صوتا يشــعرها انى مستيقظة .. فى الفجر قفزت الى الأرض .. وتسللت الى حيث يرقد ابى .. ابى .. ابى .. الديوك تصيح بلا انقطاع .. ومؤذن قريب وصوت قرآن .. وعواء كلب فى الحارة واصوات رجـــال هامسة .. خافتة .. غريبة وتقلب فى فراشه .. قال .. ماذا جرى ؟ ونظرت اليهـــا بجواره .. صدرها الضخم يعلو ويهبط بانتظام .. نائمة .. الن نذهب لنزور امى .. نزور امى .. طرف اللحاف منحسر عن جســـمه ناحيتها .. فتح فمه .. وتحرك لسانه وقال الدنيا برد الدنيا برد ألم يكن صدرها يعلو ويهبط!؟ الم تكن ساكنة ؟؟ نهضت فجاة وصاحت يابنى اترك أبوك ينام الرجل عاد مرهقا من الخارج .. امشى يابنى امشى .. ونزلت من السرير .. واسرعت اجرى .. لحقتنى فى الصالة .. فمها يقول يابنى نم .. يابنى استرح ويدها تمتد الى كل جزء فى جسمى .. لم ابك .. وتناول ابى طعامه .. وكانت الساعة العاشرة .. جلست فى المطبخ .. شعرت به يومها بارد .. مخيف .. واســـع والمسكن كله .. وامامى تجلس امى .. الموقد امامها .. تقلى الباذنجان ـ واســـند رأسى الى ســـاقها .. وآكل قطع الباذنجان البيضاء نيئة قبل ان تقليها فى الزيت وبكيت .. ونظرت الى باب الشقة .. لست لصا .. لم أسرق البرتقال .. ادخلت قدمى فى خـذائى





القديم اختى تقف على السرير وكفت عن البكاء .. فتحت الباب .. وأسرعت اهبط السلم .. وخلفى آلاف الأيدى والأنياب تمتد لتمسكنى .. الطريق فى حارتنا بارد هنا حـــار .. والشمس ساخنة .. واندفع بائع طماطم .. وابى يجلس على قهوة فى هـــذا الشارع .. بجوار دكان صغير أبوابه مطلية باللون.. الأزرق .. يلعب الورق .. ويشرب الشاى .. لم اشك اليه أبدا .. لكنى اليوم ساكشف له جسمى .. واريه مكان الشمعة والسيخ .. والعصا .. وأسنانها .. آه .. توقفت ســيارة اتوبيس كبيرة وعبر الطريق رجل له ساق واحـــدة .. ملابســـه ممزقة صفراء .. وشعره طـويل .. زحف

الرجل بالقرب مني وفوق كتفه طفلة صغيرة .. صغيرة جدا .. راسها كالليمونة .. ومد الرجل يده الى أستاذ كالمدرس ولوح المدرس بشدة .. وتوارى الرجل عند ناصية الشارع .. انه مسكين .. هل يجد ما ياكله ؟؟ وكيف يحتمل الزحف هكذا بساق واحدة وبكيت .. ثم مسحت دموعي .. وعندما تلفت لأرى الرجل الذى يشبه المدرس لم أجده .. وعندما جاءت الى الشيخ قلت له .. انا امه يا سيدنا الشيخ .. أضربه لأنه يفعل كذا .. وكذا .. وكذا .. واعطته سلة مليئة بالفول والخبز لم اقل له انها تكذب .. وعندما خرجت من الكتاب آخر النهار .. لم أعرف كيف أمشى على قدمى .. احسست بهما ضخمتين .. كل واحدة فى حجم كتلة عجين ثقيلة ملتهبة .. ومشيت خطوة ثم أخرى .. وجلست بجوار الجدار .. زحف صرصار ضخم بنى بالقرب منى .. وتخللت قدمى طوابير من النمل وكل نملة تقرصنى ومرت من أمامى امراة وتمنيت ان يرانى أبى .. لكنه لم يجىء وازدادت قدماى حجما وثقلا وكان هذا اليوم البعيد ساخنا .. اصفر .. يجعلنى أبكى .. حتى الشمس الصفراء تهبط خلف البيوت وضوءها يتراجع واستطعت ان أحملق فيها وتذكرت الفطائر الحمراء .. وبكيت .. وخيل لى ان وجه امى يختفى خلفها وبكيت .. واصبح اليوم الحار باردا مخيفا .. وخلت الشوارع من المارة .. وتذكرت يوم وقفت فيه مع الأولاد أمام عتبة منزلنا .. وقال ولد .. اذا أكلت شعرة من راسك فلا بد ان تموت .. واستفسرت الأصوات .. وسالت أنا.. ورحنا نتطلع اليه .. وهو يتكلم وأفواهنا مفتوحة من الخوف .. وآلمنى ظهرى .. ورايت موقف الأوتوبيس .. نزعت خمس شعرات من راسى وأكلتهم مرة واحدة .. بلعتهم .. وانتظرت ان اموت .. وزحف الليل بسرعة وفى ليلة قال أبى احذروا ابتلاع اظافركم ان هذا يميت .. وقضمت بأسنانى كل اظافر يدى وغطى اللون الأسود السماء كلها .. وراحت الفطيرة الحمراء وذابت آلاف الألواح الثلجية فى الهواء .. ولم امت .. مررت أمام صيدلية كثيرا ما جئت مع ابى اليها .. امسك بذيل جلبابه .. واقف بجواره .. يقدم ورقة الى رجل يرتدى نظارة بها سلك .. ويدفع لى ونعود بصناديق صغيرة عجيبة .. وحقن يبتلعها جسم أمى .. بعد ذلك لم أجىء الى هنا ابدا .. وقفت ونظرت الى الداخل آه لو أرى الرجل ذو النظارة .. اين هو ؟؟ غير موجود..

أين ذهب؟؟ آه لو رأيته سأساله أتذكرنى يا عم هل عندك حقن تعيد الميت ؟؟ وبحثت عنه فى الصيدلية .. ولم أجده .. وجاء أبى بعروسة وعربة .. وصاحت نجوى بفرحة واحتضنت العروسة هززتها .. وجلست بالقرب من باب دورة المياه .. أحاول الا انظر اليها حتى لا يقولا انى أحسدها .. بلعت لعابى .. ودخلا الحجرة .. وقال أبى كبرت على هذه الأشياء قم لتنم قم ..

ظلت نجوى وحدها فى الصالة .. تنادى عروستها .. اقتربت منها .. نظرت الى ضمت عروستها الى صدرها ابتسمت .. قلت ..

هل تحبين ان ادير لك مفتاح العربة؟؟

ظلت صامتة .. نقلت العربة الى الناحية الأخرى .. قلت لا تخافى .. سأعلمك كيف تمشين .. فجأة .. بدأت تبكى ..

خرج .. وقف ينظر الى ورفع يده .. هوى بها فوق وجهى مرة .. وعنقى مرة .. صدرى مرة .. ضربنى ثلاث مرات لم ابك .. لم ابك أمامه ابدا .. ولا امامها لو ارتفع صوتى

ستسمع أمى وانا لا أحب ازعاجها .. هكذا قالت جدتى عندما زرتها آخر مرة .. ولم تزرنا بعد ذلك ابدا .. ذهبت الى بلدتها فى آخر الصعيد .. وعندما تشتمنى الضخمة تقول يا بن الصعيدية الأولاد فى سنك يعملون ماسحى أحذية .. ولو اعرف الطريق الى بلدة أمى .. لكنهم يقولون انها بعيدة يمشون اليها شهورا وشهورا ..

من القهوة خرج رجل كمسارى يلبس حلة صفراء .. قبر امى لا يحتاج الى ركوب سيارة .. خلف هذه البيوت .. فوق الرصيف .. يجلس رجال يلعبون .. البعض يضحك .. صوت مذياع .. اين ابى؟؟ آه .. يجلس مع .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. يلعبون الورق .. يشرب الشاى ويضحك ..

ماذا ساقول له ؟؟

هربت من البيت لأنها ستقتلنى ؟؟ طردونى .. ضربتنى قالت لى انك سرقت البرتقال هل ترضى أن يقال عن ابنك انه لص يا ابى ؟؟ أكشف له ظهرى اريه .. الجروح .. لكن أمام الناس ؟؟ ربما يضربنى .. هل أطلب من الجرسون ان يهمس فى أذنه .. هناك ولد يريدك عند الناصية ؟؟ وفى صباح ذلك اليوم جلست انتظره حتى يختلى بنفسه وعندما ابتعدت عنه قلت :. الم تعدنى بانك ستذهب لزيارتها امس ؟؟ نظر الى عاد الى قراءة الصحيفة .. آه .. تقطع قلبى .. دارت أمعائى فى بطنى .. قال سنزورها فى يوم آخر .. خذ قرشا واذهب اشتر لك حاجة ..

لم يذكر لى الأمر بعد ذلك .. ابدا .. ابدا .. يده ترتفع وتهبط بورقة هل تهبط على وجهها كما هوت على وجهى؟؟

لو حدث هذا فستنتقم منى يضحك بصوت عالى ..

لم يضحك معى من مدة .. مدة .. مدة بعيدة ..

يتراجع بالكرسى الى الوراء ..

لم يقبلنى من زمن ..

يشرب شايا ..

ياكل دائما معها .. لم آكل معه أبدا من مدة ..

يضحك .. ويضحك ..

اهـذا انت يا أبى ؟؟ كانك لم ترنى ابدا ...

وهل هذه اول مرة تراه يضحك فيها .. لا بل رأيته كثيرا لم يكف عن الضحك .. صحيح ضحك وضحك تراجعت الى الخلف .. بدات اشعر بكتلة صغيرة مؤلمة فى حلقى بندقة .. بكيت .. مررت بالصيدلية .. نظرت الى داخلها .. لم ار الرجل .. غير موجود من حولى رجال ونساء .. وأولاد يلبسون أردية المدارس .. هيه هيه .. وبنات وعربات وكلاب .. ولم ينظر الى أحد .. لن ابلع شعرى .. لن آكل اظافرى الشمس ساخنة .. لكنى مضيت خفت الضجة .. وتركت ورائى ميدان الأزهر وموقف العربات والطريق الذى يشق الجبل الى المدافن ..

سيعود من المقهى ..

قد يسال وقد ينسى ولا يسال الا غدا .. ستقول انها لم ترنى .. سارى امى مرة أخرى حتى لا انسى وجهها .. ستفرح لأنها لم تكن تطيق البعد عنى .. وامضى شهور .. شهور .. الى اين .. الى اين ؟؟؟



هل تعرفون الحزن ؟ الحزن المرهق الذى ينوء به القلب ..

هل تعلمون ما هو الألم ؟ الألم الكظيم الذى يترك فى النفس بقعا كالمرض ؟ .

هل كابدتم الشوق ؟ شوق صبى صغير – لم يتعد التاسعة – لأبيه ، لوجه أبيه ، لكفه الثقيلة ، لرائحة انفاسه ، للحديث معه ، هل جربتم الشوق ؟ هذا الشوق ؟

الشوق

بقلم : أحمد الخميسى

كان يسير فى المساء وقد تناثرت سحابات رمادية على صفحة السماء .. الوقت حوالى العاشرة .. تكالب عليه الضيق وتضافر الألم فأخرجاه من البيت – أما الدمعة – فالقشة التى قصمت ظهر البعير .. تلك الدمعة التى ترقرقت فى عين أمه المكبة على الماكينة ذات الصوت المزعج ، ترتى ذكريات بهيجة جميلة الحواشى .

أخرجه الصمت .. كل تلك الكآبة الموحشة التى كادت تخنقه بالحقيقة فخرج يستنشق الهواء مبتعدا عن جو البيت .. هواء الشتاء البارد فى الشارع الممتد الطويل يطبق عليه ذاك المساء ..

من زمن بعيد .. منذ خمسة شهور هى عمر هذا الزمن البعيد .. اختفى أبوه فجأة ، عنه وعن أمه وأخيه وتلك الأخت الصغيرة ذات الجدائل الفاحمة السواد ، فقد تزوج من شابة صغيرة حلوة رغم كبر سنه ، وعرف بعدها عنوان مسكنه الجديد من قريب له فكتبه خفيفا بقلم رصاصى على ورقة صغيرة دسها فى كتاب مدرسى ، فقد كان الطريق – ان أراد – الى أبيه .. هناك يراه ويريه أن الشوق كامن فى الأعماق ، أتذكر العناق ؟ ليتك تدرك ماذا يعنى أن يعانق الابن أباه .. القبلة على الوجنة قبل النوم وفرح الحياة ، واخضرار الحلم .. أبى .. يا أبى .. أين انت ؟ .. أبى .. الحياة من بعدك شىء يجثم على الصدر .. شىء

يئن من الألم .. باهتة وفيها اصفرار ، والليلة بعد الليلة تنوح كثاكلة الليالى .. معذبة طعينــــة .. والحزن .. الحزن يا أبى لو تــدرى غائــر العمق فى عينى امى ..

من يومهـــا وكلما أظلمت نفســـه الشفافة وناءت بثقل المأساة .

.. وكلما ضاق صدره بانطواء أخيه الأصغر .. انطواؤه البــائس الذليل الذى يبــدو فى جلســته وفى عباراته المقتضبة المنخفضة ، منذلك اليوم الذى ما عاد يسمع فيه ضحكات أخته الطفلة الجذلى الطروب ذات الجدائل الفاحمة السواد ، ولا قهقهاتها الفياضة بالحياة ، وحين كان يسمع السؤال لا يموت على شفتيها : ماما .. أين أبى ؟ أين هو ؟ فاى أحزان كانت تنسكب فى نفسه ، من يومها وكلما نهش الشوقبالشوق قلبه . أخرج العنوان .. الكلمات المتجاورة .. وتمعن فيهـــا ثم اطلق تنهيدة خفيضة حرى لا تصدر عن صبى فى التاسعة ، وفى التاسعة فقط أنضجته الأمور قبل الأوان ..

الشارع بارد صامتكجسد الميت .. ينفلت فيه بين كل آونة واخرى ، شخص مسرع ، يغوص راسه بين كتفيه، ولخطواته صدى .. والهواء يلذع ساقى الصبى ، ونصف فخـذيه العاريتين ، بينما يداه مدسوستان فى جيبى سرواله البنى القصير ..

بجوار دار السينما الفخمة قام منزل ابيه مستطيلا .. هناك فى الدور الرابع يسكن أبى .. نعم .. رفع عينيــه العسليتين الى اعلى ـ واســـنانه تصطك ـ ناظرا الى الشرفة التى ينبعث منها الضوء .. وارتعشت شفتاه .. أى احساس غريب أكد له أن أباه فى تلك الغرفة فى هذا الوقت ؟ .. هل هــذه هى حجرة مكتبه ؟ أم الجلوس ؟ وهل يا ترى ما زال يجلس مضــطجعا الى الخلف ويداه متشـابكتين على ركبتيه ؟ طبعـا .. هو يضحك الآن ؟ هه ... مم .. وهل تناول عشاءه ؟ اما زال كما هو لم يتبدل ؟ .

الشوق الحار .. والنســمة الباردة تلسع خده .. يداه مدسوستان فى جيبى سرواله .. نحيف قصــير ممتلىء بالشوق والرغبة ..

ثقلت منه القدمان امام مدخل العمارة بلا ارادة ، كأن شيئا قويا يجذبها .. تساءل .. هل يصعد كى يراه ؟ هو أبى ولا شىء فى العالم يبرر أن يحرم الانسان نفسه من ابيه .. هل يصعد له ؟ .. هـ .. نعم .. لا .. أحس انه يغـرق مختنقاً فى «لا» ويطفو مستنشقا الحياة فى « نعم » .. نعم فلتصعد ، أصعد .. ؟ لا .. بل نعم .. الأمر بسيط ، اسرع على درجات السلم واطرق الباب وألق بنفسك وكل حنينك ، واخلص الشوق فى حضن أبيك منفجرا بالبكاء .. أيدرك

يا ترى كيف من بعده اكتاب المساء ؟ لقد هجرهم ولم يفكر حتى فى السؤال .. حتى السؤال ، فكيف يذهب له بنفسه وماذا يقول ؟؟! اتطحن كبرياؤه حنينه ؟؟ أم يطحن الحنين تلك الكبرياء ؟؟ .

الشارع بارد صامت ، برودة كلمة «لا» مظلم كأعماقها ، والوقت يزحف .. فماذا بعد ؟ أية قرارات تلغى أخرى ، وأية رغبات متناقضات تحدث النفس ؟!

وامه .. كيف نسيها .. امه التى تشبه فى جسدها هذه السيدة المارة هناك متدثرة بمعطفها .. امه الجالسة الآن على الماكينـــة مستمرة فى حياكة الثياب ، كم من آلام قد تجرعتهـــا ، غرست فى قلبهـــا مرارة الحرمان .. عاقم .. علقم الشوق ان لم يطفئــه اللقاء .. علقم .. لقدهجرهم حتى دون السؤال .. ما ضره لو سأل ؟ لو فعل لأوجـد المبرر كى أراه .. هل يصعد ام لا ؟ .

مرقت عربة مسرعة كالســـهم ، وفى تثاقل جرجر قدميــه متجها لنهاية الشارع مبتعدا عن المنزل ، اضـواء المصابيح البرتقالية الشاحبة تلقى بظلال أعمدتها على الرصيف ، توقف ثم لوى عنقه والتوى معه قلبهناظرا للشرفة التى ما زال ينبعث منها الضـوء .. مُعذب هذا الرجاء .. هل يمكن أن يخرج أبوه للشرفة فيراه ؟ دار نصف دورة بقدميه فاستدار جسمه النحيل الى المنزل ، اغرورقت عيناه بالدمع وهو ينظر هناك معذب هذا الرجاء .. هل يراه ؟ يا ليته يخرج ، جذب نفسا عميقا ثم صافحت عيناه الأرض .. ونظر الى باب العمارة الحديدى البارد كالكبرياء .. لعله عائد من مشوار مع زوجتـــه .. زوجته ؟ وما شكلها ؟ وتجمعت فى نفسه أحاديث متفرقة وأقاويل عنهـــا من أقاربه ، وتخيـــلات من رأســـه ، فبصق فى اشمئزاز « تفو » وحث الخطى وقـــد أحنى ظهره عائدا لمنزل أمـــه تتسابق دموعه فتدفىء مجراها البـــارد على وجنتيه .. تابع مسيره بالشارع طك .. طك .. فى ساعة متأخرة بالليل .. طك .. طك .. القلب ينبض مثقـــل بالحزن .. طك .. طك .

ازداد الليل كثافة .. وارتعش نجم صغير فى ركن السماء .. قطرات مطر خفيفة تبلل الأرض .. ظلال المصابيح على الرصيف .. أضـوائها البرتقالية الشاحبة مرتجفة ..

عاد يلتفت براســـه الى تلك النقطة التى ما زال ينبعث منهــــا الضـــوء وتساءل .. ترى هل تناول عشاءه ؟ وكيف ؟ الم يتغــير .. وهل يا ترى ما زال يذكره ؟ .

تعليقات

٣ قصص في ضوء النقد

بقلم سعد عبد العزيز

حقيقة لا يختلف فيها اثنان وهى أن الأدب ليس له من سبيل لرقيه وتجديده الا بأداة علمية تأخذ بتفسيره وتحليله وتقييمه وهذه الأداة هى التى نجدها ممثلة فى النقد الموضوعى ... وقد نجد بعض الأعمال الفنية لها من المقومات ما يجعلها تفرض نفسها على الناس جميعا متجاوزة فى ذلك كل القواعد وكل الأصول وقد يؤدى ذلك الى الاعتقـــاد بأن مهمة النقـد هنا لا تعدو أن تكون مهمة ثانوية بمعنى أن النقد يسير دائما فى أعقاب العمل الفنى فكأن العلاقة بينهما علاقة تابع ومتبوع أو علاقة سيد ومسود لكن هـــذا يجنب الصواب فالحق أن لكل منهما وظيفة يؤديها فاذا كانت وظيفة العمل الفنى تتمثل فى تعميق نظرتنا الى الحياة عن طريق استبطان حقائقها وتكثيف هذه الحقائق أمام ادراكنا الوجدانى والعقلى فان هذا فى تقديرنا لا يمثل الا نصف الحقيقة .. أما النصف الاخر فهو يقف الى جانب النقد ذلك لأنه يقوم بعملية الكشف عن أسرار العمل الفنى وايضاح المغزى الذى يرمى اليه .. فكم من الأعمال الأدبيـة العظيمة ظلت مهملة فى طى النسيان الى أن جاءها النقـاد فكشفوا عن قيمتها ولفتوا أنظار الناس جميعا اليها ... فاذا كانت مهمة الفنان تشكيل العناصر الفنية تشكيلا دراميا معماريا فان مهمة الناقد تنحصر فى تفكيك هـــذه العناصر وتسـليط الضوء عليهـــا لمعرفة سر مغزاها وبمعنى آخر يمكن القول بأن عمل الفنان انما هو التركيب وأن عمل الناقد انما هو التحليل وانه لكى ندرك الحقيقة فى تكاملها وفى جميع أبعادها لا غنى لنا عن هذين العملين فى مجال الفن .

ولعلنا نجد فى هذه المقدمة التى عرضناها التبرير الكافى للمهمة التى نقوم بها الآن وهى أن نتناول بعض القصص التى جاءت فى عـــدد مارس من مجلة القصة بالبحث والنقد والتقييم .

وأولى هـــذه القصص التى نعرض لها الآن هى قصة أهل زمان للكاتبة جاذبية صدقى وهى تحكى عن رجل قد أشرف على السبعين مسافر الى القاهرة بلا متاع سعيا وراء الرزق فقد ضاقت به بلدته فاراد أن يجرب حظه فى مكان آخر .. انه الآن لا يملك من حطام الدنيا شيئا فكل شىء استهلكه من أجل تربية أبنائه الذين لا يعيرون له اهتماما . وكان الزمن قد أعطاه درسا فى الحرص والبخل والأنانية فهو يشعر بالجوع ينهش أحشاءه فيشترى « سميذة » وقطعة جبن .. واشتم كلب أجرب رائحة الجبن فراح يستعطفه بنظراته ويهتز له عسى أن يلقى اليه بكسرة من (السميذة) لكنه كان يتلذذ من تعذيب الكلب وحرمانه من هـــذا الطعام وكأنه بهـــذا السلوك يثأر لنفســـه .. وفى أثناء جلوسه فى المحطة استمع الى حكاية كان يرويها أحد الكهول الى زميله فأثارت فى نفسه شعور الارتياح ذلك لأنهـــا تحكى عن النفوس الكبيرة وكيف أنها تغفر دائما وتمنح دائما .

ذلك هو مضمون القصة أما اذا نظرنا الى طريقة صياغتها فنجد أنها تتألف من عناصر ديناميكية

موحية تسعى الى التشكيل والبناء ... لكن هـذا البناء يعتمد فى تكوينه على وحدات منفصلة بعيدة كل البعد عن التفاصيل والاندماج فى وحـدة كليـة متماسكة ... وهذه الوحدات نجدها ممثلة فى سلسلة الحكايات المتشعبة التى تطبع القصة بالتخلخل وعدم الانسجام فى ايقاع واحد .. ولهذا فهى تسير فى خطوط متوازية وقد تتقارب هذه الخطوط فيما بينها وتلتقى فى المعنى الرئيسى للقصة لكنها مع ذلك لا تلتقى فى التشكيل التكنيكى للقصة . فقد رأينا الرجل يحكى حكايته ومن خلال حكايته نستمع الى حكاية أخرى تروى على لسان أحد الكهلين الذى راح يروى عن الحاج رفاعى والشيخ سويلم حتى اذا جاءت نهاية القصة خرجنا بالمعنى الأخلاقى الماثل فى الأخذ بالعفو وايثار الخير للناس دائما .

ومن هنا يتضح لنـــا أن المعنى الرئيسى للقصة قد ساقته الينا الكاتبة فى صياغة مفككة مشتتة تعتمد على التفريعات والتفاصيل أكثر مما تعتمـــد على التركيز والاتجاه رأسا « الى اصابة الهدف وكان لهـــذا أثر بالغ فى تأثير الايقاع الدرامى للقصة فقد كان تأثيره خافتا فاترا متراخيا » .

ويمكن ايضاح القصة من الوجهة المنطقية على هـذا النحو :

(أ) رجل قد أشرف على السبعين يحكي عن نفسه .

(ب) الكهل الذى يروى على لسانه حكاية لزميله .

(جـ) الكلب الأجرب وهو يسعى مستعطفا بعض الطعام .

على ضوء ذلك يكون الحد الأوسط هنا هو الكهل الذى يقف بين بطل القصة من جهة وبين الكلب الأجرب من جهة أخرى .. وهو يعد أيضـــا القوة المؤثرة التى تربط بين ثنائية الشعور وتناقضه عند البطل :

الشعور بالسخط الذى يؤدى الى عدم اعطاء الكلب الطعام من ناحية والشعور بالرضا الذى يكون من أثره القاء كل ما فى يد الرجل من طعام الى الكلب من ناحية أخرى .

ذلك هو التحليل المنطقى للقصة وهو الذى تتمثل فيه الخيوط الرئيسية التى استطاعت الكاتبة أن تنسج منها نسيج القصة .. واذا كان هذا النسيج لا يخلو من بعض الثقوب فهذا لا يمنع من تقدير هـــذا العمل الأدبى فقـــد استطاعت الكاتبة بما تتميز به من حاســـة فنية رائعـــة أن تستعين فى تعبيرها بالرمز حينـــا والصور الموحية حينا آخر مما جعلها فى منأى عن الأسلوب الخبرى التقريرى الذى لا يسوغه الذوق الفنى السليم .

أما قصة ليل وحنان للأستاذ سعد حامد فهى تصور حالة شخص قد فقد زوجته وهو يجلس الآن فى شقته وحيدا وقد ملأ الحزن جوانحه وهبت الذكريات فى وجهه فلم يستطع المقاومة فانطلق الى الطريق هائما على وجهه واستقل القطـــار الى القـــاهرة وفى القطار يتعرف على سيدة من فتيات الليل تدعوه الى ضيافتها وقد استطاعت هذه السيدة أن تنتزع منه الاحترام وبعد قضاء بضعة أيام نجده ينطلق الى الطريق ويصـــادفه أحـــد الأصدقاء معزيا له فى زوجته ويتذكر أحزانه من جديد فلا يجد مناصا من الهجرة الى قريته ليقضى فيها بقية حياته ... الى هنا تنتهى القصة وهى بهذه النهاية ترمى الى المعنى الانسانى الماثل فى أن على المرء أن يبحث له عن ملاذ يلوذ به فى حياته .. وقد استطاع الكاتب بحق أن يعطينا فيما يخص هـــذا المعنى ، شحنة انفعالية هائلة ... لكن الذى أريد أن أوضحه الآن انما هو الطريقة التى صاغ بها هـــذا المعنى .. كيف استطاع أن ينسج الخيوط حتى صارت نسيجا « وشكلا ؟ .. ما أحسب الا أن الأستاذ سعد حامد يمتلك أسلوبا أدبيا بليغا .. ما فى ذلك من شك .. لكن ينبغى أن نقف قليلا عند مفهوم كلمة بلاغة .. فعندى أن هذه الكلمة تختلف مقاييسها باختلاف نوعية الأشكال الأدبية .. فما يجوز فى هـــذا الشكل لا يجوز فى غيره .. فمثلا مقياس البلاغة فى النثر الانشائى يختلف تماما عن مقياس البلاغة فى التعبير الدرامى .. ذلك هو محور الخلاف بينى وبين كاتب هـــذه القصة .. فانا هنا الاحظ صياغة مرتبكة تخلو تماما من أى رابط يوحد بين أجزائها .. فهى تعتمد على جمل منمقة مرصوصة بغـــير نظام بحيث نجد كل جملة هنا مكتفية بذاتها مستقلة بمفردها

فهي لا تشارك في التكوين الكلي للصياغة ودليل ذلك أننا يمكن أن نقتطع جزءا كبيرا من هـــذا السياق دون أن يختل المعنى ودون أن يؤثر ذلك في النظام العام للقصة .. ذلك لأن القصة تسرد علينا بطريقة تقريرية خالية من أي ترابط سببي أو عضوي أو منطقي .. ويرجع سبب ذلك الى أن الكاتب اعتمد على الطريقة الانشائية الخطابية في الكتابة أكثر من اعتماده على التعبير الحركي الذي يخلق من الجمل نسقا موصول الأجزاء .

فالجملة هنا تحمل طابع الشوق الذاتي للجملة التالية .. فهي بمثابة اللبنة التي تساعد في ارتفاع البناء .. وحسبي أن أسوق بعض الفقرات من هذه القصة : ـ

تقول السيدة للرجل : « ... لـكن عليك أن تعيش حيـاتك وليست الحياة هي جنـة الفردوس التي وعد بها المتقون ولكن الانسان يستطيع أن يجعل من الجحيم فردوســا » ويستطيع أيضا أن يجعل من الفردوس جحيما .. في كل مكان نستطيع أن نجد السعادة .. في الأكواخ والعشش يوجد أناس أكثر سعادة من بعض سكان الشقق الفاخرة والقصور الفخمة .. » .

ذلك كله يجوز أن يكون أدبا بليغــا في مجال الوعظ والخطابة لـكنه لا يمكن أن يكون مستساغا في أدب القصة .. ذلك الأدب الذي يستعين في أسلوبه بالتلميح دون التصريح والايحاء بالصورة والرمز دون لمس واقع الحيـــاة لمسا مباشرا ... لكن الكاتب بالرغم من ذلك استطاع أن يسوق الينا بعض الجزئيات المثيرة .. منها موقف الرجل وهو يدور في شـــقته بحثا عن زوجته فيتطلع الى ثيابها المعلقة على الشماعة ويشم رائحـــة عطرها ويهتف باسمها في صوت خافت .. ومنها وصف الطرقات المتألقة بالضوء .. وأخيرا لا يسعني الا أن أقدر موهبة الكاتب في هـــذا الصدد .

والقصة الثالثة التي انتقيتها قصة بعنوان صغيرة وهي لفتاة تلتقط نفايات السجائر وتبذل جهدها في أن تملأ الكوز الذي تجمع داخله هـــذه النفايات .. فهذا شرط عودتها الى بيت ابيها ذلك الرجل الشرس الذي يعاملها بكل فظاظة .

وأهم ما ألمسه في هـــذا الكاتب انما هو دقة احساســـه وقدرته على التقاط الجزئيات الموحية من مجرى الحياة الواقعية لكي يخلق منها نسقا أدبيا متكاملا .. فهو يستطيع أن يلقف من الحياة صورة معينة وأن يستبطن هـــذه الصورة مستوحيا منها كل ما يشع من المعاني والاحاسيس وكل ما يفيـــد في تعبيره الفني .. فهذه الفتاة تقف متربصـــة مرتقبة مصير السيجارة التي في يد عمار افندي وبينما هي تقف مشدودة مترصـــدة لعقب السيجارة يدخل في الموقف منبه جديد .. انه صراخ مدحت ذلك الطفل الذي لسعت السيجارة أنامله في غفلة من والده .. فتحول انتباهها فجأة الى وجهة أخرى .. لقـــد نسيت كل شيء وهي الآن تتعاطف مع الطفل فقد حز في نفسها أن تراه يبكي وتمنت لو تمسح دموعه المنهمرة وتمنت لو تمر بيـــدها فوق نعومة خـــده .. ستغسل يدها من رماد النفايات قبل أن تفعل ذلك .. لـكنها حين رأت الكل يتبارى في تهدئته التمعت الكآبة في عينيها فقد راحت تقارن بين نفسها وبينه وراحت تتساءل : ـ

لمـــاذا ليس لها مثل حياته ؟ .. لمـــاذا تكون موضع اعراض الجميع ولماذا يكون هـــذا الطفل موضع حب الجميع ؟ .

على هـــذا النحو استطاع الأستاذ عبد العـال الحمامصي أن ينقل الفتاة في خلال الموقف الواحد ثلاث نقلات شعورية .. فهي أولا تشعر بالتحفز وتعـــد نفسها للانقضاض على عقب السيجارة وهي ثانيا تتجه الى الطفل وتتعاطف معـــه وقد نسيت ما كانت تنتظره وهي ثالثـا يداخلها شعور الكآبة لأنها لا تنعم بكل ما ينعم به هـــذا الطفل .

وعلى هذا لا تخرج قصة « صغيرة » عن كونها تصوير لموقف من جميع أبعاده .. والموقف هنا لا يضم أكثر من منبه واستجابة فكلما اختلف ايقاع المنبه استدعى هـــذا اختلاف في ايقاع الاستجابة وهكذا تسير القصة في اسلوب من التنويع والتلوين حتى النهاية . وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الأستاذ الحمامصي يحدثنا من خلال هـــذا العمل الأدبي بلغة القصة الصحيحة .

حول قصة الطاقية

● تعقيب : يوسف جاد الحق

● تعليق : محمود تيمور

متولى

تلقيت من الأديب السورى « يوسف جاد الحق » رسالة يعقب فيها على قصص نشرت بالمجلة ، وقد خص باكثر نقده قصة لى نشرت فى عدد نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، وهى قصة « الطاقية » ، فرأيت من حقه على أن انشر نقده ، ومن واجبى نحوه ان أعلق على هذا النقد ، وان يكن فى ايجاز يقتضيه المقام .

كتب الأديب يقول :

« هذه القصة من النوع الهادف الملتزم فهى محاولة لقصة اشتراكية تظهر مدى التطور الذى أصاب الحياة العامة فى ريف العربية المتحدة بعد الثورة ، والمحاولة ناجحة فى فكرتها ، جميلة فى عرضها ـ كما هو العهد بقصص الأستاذ « تيمور » دائما ـ غير ان الحوار لم يكن ناجحا فى كثير من المواضع . ذلك أن التناقض ـ أو لنقل السذاجة ـ كانت تتجلى فى تلك الأسئلة التى يطرحها بطل القصة القاهرى على من كان يصادفهم من أهل القرية بعد وصوله اليها عقب غيبته الطويلة عنها نيفا وثلاثين عاما . فهو عند وصوله محطة القرية « السلامية » ، وقد جاءها ليجدد العهد مع أسرة «الحاج أبو صالح» صديق والده القديم ، وليرى « ستوتة » ابنته التى كان قد رافقها شهرا أو أكثر حينذاك ، وقد كانا فى العاشرة من عمرهما او نحوها ـ يفاجأ اول ما يفاجأ بتغير الملامح والسمات للمنطقة كلها ، ولمحطة السكة الحديد التى نزل بها ، حتى ليوشك ان ينكرها . ولكنه لا يلبث أن يدرك انه لم يخطىء طريقه ، وذلك عندما يقرأ اللوحة المعلقة على الجدار ، ويرى السيارات العامة والخاصة غادية رائحة من القرية واليها . فقد اصبحت هذه هى الوسيلة الحديثة للمواصلات بين المحطة والقرية . وهنا نجد أنفسنا أمام المفارقة الأولى حين نرى بطل القصة ـ على الرغم من وضوح معالم التغير هذه ـ يبدى من ضروب الدهشة فى تساؤلاته وتصرفاته جميعا ما يجعلنا نحس الافتعال والتكلف واضحين . فهو يصر اولا على الا يذهب الى القرية الا على ظهر حمار ـ وسيلة المواصلات

القديمة التى اتخذها يوم جاء اليه مع والده فيما مضى ـ ويعثر على الحمار اخيرا ، ولكن كيف ؟ لنقرأ معا كلام الاستاذ « تيمور » :

« ومر بى فلاح مزهو على ظهر دابته ، فأشرت اليه استوقفه ، وما ان دنوت منه حتى قلت :

اريد الوصول الى قرية «السلامية» . . كم تطلب من اجر على المشوار ؟

فرمقنى بطرف عينه ، وهو معتل حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

انا لا اؤجر حمارى للركوب يا افندم . .

وهم ان يتابع سيره ، فأمسكت به اقول :

ساعطيك اجرة سخية ترضى بها .

ولم اتوان فى اخراج قطعة فضية كبيرة ، وانا اواصل الحديث :

هاتها . . .

فرمق الرجل القطعة فى يدى لحظات ، ثم مد يده قائلا :

هاتها . . » .

الاستاذ تيمور من اول القصة الى آخرها يقول لنا ان كل شىء قد تغير : معالم القرية ووسائل العيش فيها ، مستواها الثقافى والاجتماعى . . كل شىء . . والسؤال الآن هو هل يتغير كل شىء فى القرية الا الانسان نفسه ؟ كيف يعقل ان يشمل التغير كل مظاهر الحياة هناك ، ثم تند عن هذا المواطن تصرفات كهذه لن يدفعه اليها الا حاجة ملحة ، او فقدان الكرامة . وهذا مما لا يتفق مع البيئة الجديدة ، ولا ينسجم مع مرحلة التطور التى تمت ، خاصة بعد ان رسم لنا الكاتب سمات من شخصية الرجل المزهوة التى ترمق الناس بطرف العين لفرط خيلائها . وبعد ان رفض بلسانه تأجير حماره ، واذا به يعدل عن رايه ويبدل موقفه كله بمجرد ان يرى القطعة الفضية . ان التغيرات التى حدثت تفرض بالضرورة ان يصبح امثال هذا المواطن فى حال من السعة وعلى قدر من الكرامة يتنافيان مع امكان ان يسيل لعابه لمراى القطعة الفضية .

واذا انتقلنا الى موضع آخر من القصة ، ومضينا مع بطلها وهو يدخل القرية ويرى الأنوار الكهربائية والشوارع الحديثة ، ويعمد الى البحث عن الذين جاء من اجلهم ، فيسال فتى يرتدى حلة شبيهة بحلة الكشافة عن اسرة الحاج « أبو صالح » فينبئه هذا انه لن يجد احدا تلك الليلة فى داره ، لان القرية تحتفل بالذكرى السنوية الأولى لتاسيسها ، واهلها اما بين النظارة يتفرجون او بين جوقة الفنانين يتأهبون للتمثيل ، وانه لا سبيل الى البحث عنهم بين المتفرجين لكثرتهم . فليحاول ان يجد ضالته بين جماعة الفنانين والغريب اننا نجد صاحبنا يمضى فعلا ومن غير تردد وراء الفتى للبحث بين الفنانين . فهل كان يتوقع حقا ان يجد الحاج « ابو صالح » الرجل الذى لابد قد اصبح عجوزا (ان كان ما يزال حيا) بين هؤلاء ؟ أم كان يامل ان يجد بينهم « ستوتة » التى

باتت تناهز الأربعين ؟ كيف يتقبل مثل هذا الافتراض وبهذه البساطة ، اللهم الا اذا كان يريد أن يدفع القارىء الى خشبة المسرح وخلف الكواليس ليتحفه بمفارقة أخرى أكثر طرافة وأدعى للدهشة . وذلك حين يأخذ في التفرس في وجوه الفنانين والفنانات ، ثم يهتف بواحدة منهم : « ستوتة » ... « ستوتة » .. ويتبين لنا أن هذه التي هتفت بها صاحبنا هي « فيفى » ابنة « ستوتة » ، ولكنها لم تبلغ العشرين من عمرها .

كيف يمكن أن يخطىء امرؤ بين فتاة في العشرين أو دونها وفي مثل عمر أبنائه ، وبين أمها التي ناهزت الأربعين وتماثله هو سنا ؟

ونسمعه بعد هذا يسأل « فيفى » عن الحاج « أبو صالح » وعن «ستوتة» فتخبره بأنهما ماتا .. ولا يبدى صاحبنا ما هو خليق بمثل هذا الموقف من حزن ، أو على الأقل من دهشة المفاجأة . ويمر هذا الخبر الخطير ببساطة ، على الرغم من انه جاء بدافع الذكرى والحنين لرؤيتهما بعد ثلاثين سنة . ثم يسألها عن الفرن الذى كان ينام فوقه هو وستوتة في الزمان الغابر ، وعما اذا كان من الممكن ان يقضى ليله فوق سطحه ، فتنبئه ان الفرن قد اندثر . ونحن اذا استطعنا ان نفهم كيف يسألها عن الفرن البدائي القديم وعن رغبته المبيت فوقه ، حتى بعد ان شهد كل معالم التطور هذه ، نجد أنفسنا عاجزين عن فهم أو هضم ذلك السؤال المتكلف الذى يقول فيه باستغراب :

وكيف تحصلون على خبزكم ؟

الحق اننا لا ندرى كيف يحصلون على خبزهم بعد ان اندثر الفرن العريق . وكأنه ليست هناك وسائل حديثة يعرفها البطل (وهو ابن المدينة) يحصل بواسطتها الناس على خبزهم ، خاصة بعد أن غدت القرية « شعلة من نور الكهربا ، ومبانيها متسقة الهندسة جميلة التصميم » أى بعد ان أصبحت الحياة فيها كالمدينة التى جاء منها سواء بسواء .

ونسمع فيفى تجيب بأنهم يحصلون على الخبز من مخبز الجمعية التعاونية، فيعود هو الى اندهاشنا من جديد بقوله :

أمر عجيب !

فلماذا هو أمر عجيب ، والقاهرة نفسها التى يعيش فيها ، ومدن أخرى غيرها أو قرى حديثة كثيرة تحصل على خبزها بنفس الطريقة ، والجمعيات التعاونية منتشرة في أرجاء الجمهورية كلها .. أو ليس هذا عجيبا حقا ؟ » .

* * *

ذلك ما كتبه الأديب « يوسف جاد الحق » في التعقيب على قصة « الطاقية » .

وهذا مجمل تعليقى على مواضع النقد ، أرجو ان ينفسح له صدر الناقد الفاضل ، والا يضيق به صبر القراء الكرام :

١ ــ فاما اصرار الرجـــل على أن يذهب الى القرية على ظهر حمار ، فليس فى ذلك مفارقة ، وما كانت معالم التغيير الجديد لتقتل رغبته فى استعادة المظاهر التى الفها فى ماضيه ، فان هذه المظاهر هى التى بعثته على أن يؤم القـــرية ، احياء لذكرياته فى ربوعها .

٢ ــ وأما ان التغيير الذى طرا على القرية لم يمنع وجود صاحب حمـــار يرضى ان يؤجر حماره لراكب اذا أجزل له العطاء ، فذلك هو الأمر الطبيعى ؛ وغيره تكلف وافتعال ، وليس فى التأجير ما يدل على الحاح الحاجة ، او ما ينافى الكرامة . فالكسب مطلب حـــلال ، والاستزادة منـــــه طمـــوح مشروع ، و « سيل اللعاب » لمرأى القطعـــــة الفضية مما تقتضيه الغرائز البشرية ، ومما هو ثابت للانســـــان على تعاقب الزمان وتباين المكان وتغير الحال !

٣ ــ وأما انى جعلت الرجل يبحث عن « ستوتة » وابيها بين الفنانين فى المسرح ، وقد مضى على فراقه اياهما نحو ثلاثين عاما ــ فالواقع انى أطلقت الرجل يبحث ــ كما قلت نصـــــا فى مواضع متفرقة ــ : « أين تسكن تلك الأسرة ؟ » و « من يعينه على أن يلقى واحدا منها ؟ » و « من يرشده الى دارها ، ليجدد العهد معها ؟ » . فليس فى الأمر اذن تلك المفارقة المزعومة .

٤ ــ وأما انى تركت الرجل يخطىء بين فتاة فى العشرين وامها التى ناهزت الاربعين ، فالحق انى لم اتركه يخطىء ولكن الرجل حين رأى وجها يعيـــــد هذا الخطأ ، ولم يخطر لى ذلك ببال ، اليه بملامحه وسماته وجـــــه الأم ، اندفع هاتفا باسمها . وتلك حـــــالة طبيعية يأنسها كل امرىء تمر به هذه التجربة فى حياته .

٥ ــ وأما أن صاحبنا لم يظهر الحزن حين علم بوفاة فتاة أحلامه وأبيها ، فالحقيقة أنه اظهره بأجلى ما يمكن ان يكون فى موقفه ، وقد عبرت عن ذلك فى جملة تصويرية مركزة ، حين قلت: « ومرت برهة والرجل صامت خاشع البصر » وليس اصدق من ذلك تعبيرا عن مواجهة ذكرى نعى مضت عليـــــه سنون !

٦ ــ وأما تعجب الناقد من ان يسأل الرجل عن الفرن ، بعد أن رأى تمدن القرية ، ويسأل أين يخبزون ، وهو يعرف كيف يصـــنع الخبز فى المدن ، فان هذا التعجب لا محل له ، وللرجل ان يسأل عن الفـــــرن ، وهو مهوى نفسه ، ومواضـــع انسه ، ومنـــــاط ذكرياته ، وســــؤاله عن الخبيز ليس سؤالا عن شىء مجهـــــول له ، او شىء لا يستطيع تصور الجواب عنه ، ولكنه سؤال عرضى يسترسل به فى الكلام ، طوعا لســــياق الحديث . وكثير من الحوار القصصى القائم على ســــؤال وجواب ليس فيــــــه حتما كشف عن مجهول ، او اخبار . بجديد !

ومهما يكن من امر هذا النقد ، فهو فى تفاصيل ثانوية من مواقف القصـــة الفرعية ، وفى التفاصيل التى من هذا القبيل تتخـــالف الأفهام وتتغــــاير الأذواق .

وللأديب الناقد تقدير خالص لرأيه ، وشكر جزيل لفضله ، وسلام .



▪▪ الجدة الكبرى للقصة

« **احك لى حكاية** » عبارة تتردد على لسان الطفل فور ان يتعلم الكلام كما يقول شاعر الهند العظيم رابندرانات تاجور . لكن هل فكرنا يوما فى البحث عن جــذور هذه العبارة ؟ .. لقد حاول تاجور نفسه ان يفسر نشأة الحكاية والحاجة اليها فكتب مقالا قصيرا طريفا باللغة البنغالية ، نقله الى الانجليزية بهابانى بهاطاشاريا وصدرت به سلسلة « سيجنت » الأمريكية أحد منتخباتها من القصص العالمى .

وقد اتخذ تاجور العبارة السابقة عنوانا لمقــالـه ، وراح باحساسه الشعرى يفسر القضية ، وان بدا فى تفسيرة شىء من المجاز فرضته عليه طبيعته الخياليـة الرقيقة . فهو يعتقد ان ثمة صراعا فى رأس الطفل بين رغبته فى معرفة « **قصة الأمير وصديقه ابن الوزير فى سالف الأزمان** » من جدته ، والحاح المدرسين على حشو عقله بالمعلومات والحقائق . ولئن كان المدرسون ينتصرون على الجدة ويسكتونها الا ان رواة القصص والحكايات لا ينتهون ، بل يحل كل محل الآخر بلا نهاية . ورغم أن المحاولات لا تكف لاصلاح الطفل من المدرسة الابتدائية الى الثانوية ، ومن هذه الى الجامعة ، لكن ما من شىء بقادر على الوقوف فى سبيل حاجته التى تلخصها عبارة « احك لى حكاية » ـــ .

ان الحكايات والقصص كما يقول تاجور تتواتر من عام لآخر فى كافة انحــاء الأرض ، وفى كل بيت كتابة او شفاهة ، وتثقل كفتها وترجح على كل تراث آخـر

للانسان ، والله جل جلاله فنان مبدع خلق الانسان الذى تحركت حياته منذ البدء داخل مواد القصة وعناصرها ، داخل دوامات انشأها الصراع بين العاطفة والعاطفة، بين الفرد والمجتمع ، بين العقل والجسد ، بين الرغبة والاباء .

واذا كان النهر مجرى جاريا للماء فكذلك الانسان مجرى جار للقصة . ذلك لانه حين يلتقى شخصان فان سؤالا بعينه لا يلبث ان يحل متخذا احدى صيغتين :

- **ما الأخبار ؟**
- **ماذا من أحداث ؟**

أما اجابات هذا السؤال بصيغتيه فقد نسجت شبكة تعم الأرض وتغطيها وهى شبكة تشكل قصة الانسان وتاريخه الحقيقى ، ذلك التاريخ الذى تشارك فيه القصة جنبا الى جنب مع الأبطال الذين يصنعونه .

لكن ، هل يغنينا ما قاله تاجور بأسلوبه المجازى هذا عن تتبع المزيد من الضوء على الحكاية الشعبية المنطوقة التى تعتبر اليوم أصلا ثابتا من أصول القصة المكتوبة بشكلها الحديث ؟ .

لقد جمع دارس امريكى ، هو ميلتون روجف ، نحو مائتى حكاية شعبية مسجلة ومترجمة عن لغات مختلفة لشعوب مختلفة فى افريقيا وأوربا وآسيا والأمريكتين وحاول ، ان يقدم هذه المجموعة المتنوعة ، فكتب لها مقدمة بعنوان « ملحوظة فى الحكايات الشعبية » ، فماذا قال ؟ . .

طبيعى أن يستهل روجف مقدمته بالاعتراف بقدم الحكايات الشعبية وعراقتها ، واتساع مجال جاذبيتها ، ومن ثمة فهو يؤكد بالتالى أن هذا الجنس الأدبى المتميز لا يرتبط بزمن معين ولا بمكان معين من حيث النشأة والولادة ، وانه اذا كانت الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والشعر لا تشتهر الا بين القلة المتأدبة ، اى بين جمهور محدود ، فان جمهور الحكاية الشعبية هو البشرية جمعاء .

ولعل المرء لا يملك ــ كما يقول روجف ــ الا أن يعجب ويتساءل : من خلق هذه الحكايات ، ومتى ؟ لكن سؤالا كهذا بشقيه لم يجد حتى اليوم من يجيب عنه اجابة شافية . ذلك لأن الحكايات لا تنتمى لأفراد بقدر ما تنتمى الى جمـــاعات ، ولم تتداول أو تصلنا الا بطريق الكلمة المنطوقة ، مما يضيف اليها طابع السر المغلق الذى يشدنا دوما لاكتناهه .

وكثير من آثارها يظهر فى السجلات المصرية منذ ألف وستمائة سنة قبل الميلاد ، وفى الكتابات والنقوش الهندية واليونانية والفارسية والعبرية قبل أكثر من ألفى سنة . ومع هذا كله لا يستطيع احد ان يدلنا على عمرها الحقيقى .

وينتقل روجف الى قضية أصل الحكاية الشعبية ، فيقول أن البعض زعم أن أصلها خرافة من خرافات الطبيعة أو أساطيرها ، ومحاولة بدائية لتفسير ظاهرة طبيعية ما ، فوليم تل مثلا لم يكن الا آخر انعكاس لاله الشمس الذى كان يضرب التفاحة او أى هدف آخر بقوسه الخارق الذى لا يخطىء . وزعم آخرون أن الحكاية

امتداد للأخيلة العملية الوحشية فى الانسان . بل ان البعض لازال يعتقد انها فى الأصل من وضع رواة قصص متأدبين محترفين ، وانها ابتذلت حين تداولتهـــا شعوب غير متحضرة ، أى انه كان لها مؤلفون معروفون طمسهم التداول الشعبى لها فى البيئات غير المتحضرة ، بل ان الكثيرين زعموا حين اشتد ساعد التحليل النفسى ان مصدرها الأحلام قياسا على استنتاجات فرويد وتلاميذه . ومع هذا كله انتهت هذه القضية دون اتفاق .



اما قضـــية المكان الذى نشأت فيه الحكاية فقد اختلف دعاتها كما اختلف زملاؤهم فى تحديد اصل الحكاية من الناحية الفنية . فقد اعتقد الاخوان جريم انها نشأت فى الأصل داخل ثقافة ذات أب اندوجرمانى ثم انتقلت الى الثقافات الأخرى وظن اندرولانج انها انبثقت فى عدة امكنة وكان لها فى كل منها شخصية مستقلة . وزعمت مدرسة ثالثة ان الهند هى رحم الفن القصصى بأسره . ومرة أخرى انتهت هذه القضية بدورها دون نتائج محددة شافية .

غير ان الاهتمام الأدبى الواعى بالحكاية لم يبدأ فى الحقيقة كما يقول صاحب المقدمة الا فى مطلع القرن الثامن عشر . فقد نشر شارل بيرو مجموعة حكاياته الأولى المسماة « الأوزة الأم » عام ١٦٩٧ . وبعد سنوات نشر زميل فرنسى له هو أنطوان جالاند أول ترجمة لألف ليلة وليلة العربية . وأصبحت « الموضة » فى ذلك الحين هى الاغتراف من تراث الشرق ، وخاصة هذه الليالى العربية وما فيها من ثراء وخصوبة فى الخيال .. وتبع ذلك جمهرة من المجموعات المماثلة بلغت ذروتها فى المجلدات الواحد والأربعين من كتاب « كابينة الجن » . غير ان المجموعات التى تسعى الى تسجيل الحكايات كما يحكيها أصحابها لم تبدأ فى الظهور الا فى القرن التالى ، أى فى القرن التاسع عشر . وكانت أولاها عام ١٨١٢ للأخوين الألمانيين ولهلم وجاكوب جريم ، وبعدها تدفقت مجموعات وترجمات أخرى كثيرة ، حتى اصبحت الحكايات الشعبية اليوم وما تثيره من قضـــايا المكان والزمان والنشأة ، رغبة طلابية جامحة .

لكن هل توقفت الحكايات ؟ وهل اقتصرت على ما جمع وسجل منها ؟ .. ـ الجواب هو النفى القاطع بالطبع . ذلك لأن الناس والشعب لم تكف عن الحكى ، رغم ان الحكايات قد جعلت لدى الشعوب المتحضرة من نصيب الأطفال ، أو من نصيب الدارسين والطلاب ، ومن جهة أخرى ادى نشوء القصة الأدبيـــة المكتوبة وانتشارها فى القرن الماضى الى تقليل الاهتمـــام بالحكايات المنطوقة أو مطالعتها مسجلة ومكتوبة .

وقد نتساءل مرة أخرى : ان عالم تخلقه الحكايات ، أو ما عالمها ؟ وللاجابة على هذا السؤال ينبغى ان نضع فى اعتبارنا نمطين على الأقل من هذه الحكايات أولهما

هو حكاية العجائب التى تدور فى عالم السحر حيث يعيش السحرة والالهة والجن . وثانيهما يدور فى العالم الواقعى ويعتمد فى احداث تأثيره على المهارة والذكاء بشكل عام .. وفى النمط الأول نجد مملكة تسودها اخلاقيات معينة ، اهمها ان العدالة تتخذ مفهوما شعريا أكثر مما فى الشعر نفسه ، وان الرغبة تولد العمل ، وان العمل يدين للرغبة تماما ، بينما النصر فى هـــذه المملكة وقف على المساكين والأبرياء والشجعان والعادلين ، والهزيمة وقف على الأشرار والظالمين .

بل ان هذا النمط من الحكايات الذى يقوم على السحر والمعجزة يبدأ بعـالم الواقع ، حيث نجد الفقراء يعانون ويتعذبون والمساكين يداسون بينما الشجعان والعادلون يولدون وفى أفواههـــم ملاعق من ذهب . وعالم كهذا يتطلب أن تزال العوائق والعقبات ، وأن يبطل العمل بالعقل والمنطق . كما أنه يتطلب السـحر ، وبالتالى لابد أن تطير الأبسطة وتتنبأ الطيور ، وتطىء أغطية الموائد الطعام دون حاجة الى مطبخ أو طباخ ، وتحفظ الحقائب الرياح ، وتقول المرايا الحق ، ويضع الأوز بيضا ذهبيا ، ويبعث الموتى أحياء ، وتأتى الكلمات بالمعجـزات اذا تكررت ثلاث مرات .. وهكذا نجد أن التفكير فى الرغبات هو الحكمة الوحيدة ، وأن المعجزات هى الخبز اليومى . ولو أمكن التعميم لكانت الحكايات الشعبية قصص نجـاح بالمعنى الحديث ، وهو نجاح لا يتحقق بفضل الجدارة أو الاجتهاد ولكنه يتحقق بفضل السحر أو الحظ أو المكر . ولعل فى هذا ما يفسر الاستجابة التى تلقـاها الحكايات الشعبية لدى جماهير البشرية جمعاء ، ولدى كل انسان تعيس ، معذب ، سىء الحظ .

وثمة أنماط أخرى للحكايات الشعبية بالطبع الى جـوار حكاية العجـائب والسحر والأبطال الخارقين والبطلات اللواتى لاينتمين للأرض اذ يوجد بصفة خاصة نوع يعالج امور البسطاء وأساليب فهمهم وتخلصهم من المآزق . ولا يدور هـــذا النوع حول أناس ماكرين أذكياء فحسب ، ولكنه يدور أيضا حول الأغبياء والحمقى.

غير أن روجف لا يغفل عن الاشارة الى مظاهر التشـابه الكثيرة التى نلمسها فى الحكايات الشعبية بشكل عام ، سواء كانت عربية أو فرنسية أو هندية . ذلك لأن ثمة تشابها ـ قد يتضاءل أو يعظم ـ بين عناصر الحكايات وأحداثها ، بحيث اذا ترجمنا الأسماء احيانا وغيرنا الأزياء من لغة الى لغة ، ومن شعب الى شعب ، لما كان هناك فارق كبير .

أما الذى يقل شيوعه فى الحكايات الشعبية فهو الحيوانات . فيبدو أن الشعوب القديمة بلا استثناء كانت تؤمن بوجود علاقة دم تربطها بالحيوانات ، ومن ثمـة ندرت الاساءة الى الحيوان . ففى اكثر أنماط حكاية الحيوان شـيوعا ، وهى الخرافة ، نجد ان الحيوانات المسكينة تصور على انها شديدة الصلة بالانسان والانسانية فى تصرفاتها وعواطفها . فهى تعيش فى حقل او غابة ، لكنها تفكر وتتكلم وتتصرف كالكثير من الرجال والنساء .

ويختتم روجف مقدمته هذه بالاشارة الى حظ الحكايات الشعبية من الشهرة والذيوع ، فيؤكد انها تشتهر وتموت شانها فى ذلك شأن القصص المؤلفة التى كتبها ادباء محترفون . غير أن أفضل الحكايات الشعبية ، أو على الأقل اشهرها ، لهـا قدرة على البقاء ، وهى قدرة يندر وجودها فى الأعمال الأدبية ذاتها ولعل هـــذا

بسبب امكانية ذيوعها على الدوام فى القصور والبيوت واكواخ الفلاحين ، وفى خيال الفنانين ، وفى نسيج كثير من الثقافات .

لكن ، تبقى مشكلة يثيرها كثيرون من المتحمسين للاداب المكتوبة ، اذ يحسبون بأن الحكايات الشعبية سيجىء عليها وقت تلقى فيه الهجر والنسيان ، وربما تترك مكانها تماما للقصص التى يكتبها المحترفون من الادباء والكتاب ، وذلك كله بفعل انتشار التعليم والثقافة والقضاء على الأمية . لكن مما يحمد للحكايات الشعبية أن كثيرا من قديمها قد عاش وعمر طوال عدة حضارات ، جنبا الى جنب مع عدد آخر لا يحصى من القصص الأدبية التى ابدعها رجال اعتبرهم التاريخ من جهابذة الفن ولا شك أنها ستواصل دوامها طالما ان للناس أحلاما ، وانهم لا يحتاجون لمن يرخص لهم بسرد ما شاهدوه فى أحلامهم .

حول العالم

والحق أن هذه الملحوظات التى ابداها ميلتون روجف فى تقـديمه لمنتخبه من الحكايات الشعبية ملحوظات ذكية خرج بها من سياحته الطويلة مع هذا اللون من الابداع الفنى الذى لا ينتمى لمؤلف بعينه ، والذى نجد فى كثير من نماذجه عناصر راقية من الخيال الخصب الخلاق ، والادارة الذكية للمواقف والأحداث ، والحق ايضا أنه لولا وجود هذا اللون لما نشأت القصة القصيرة المكتوبة او الرواية اللتان أفادتا كثيرا من اساليب الحكاية .. الجدة الكبرى لفن القصة .

زوايا وأنباء

« باريس »

● آخر جزء من الأعمال الكاملة للكاتب التشيكى فرانز كافكا صدر بالفرنسية عن دار حلقة الكتاب الثمين .. سبق ان اصدرت الدار ٧ أجزاء منها .

« موسكو »

● ظهرت فى موسكو الترجمة الروسية لرواية « الباب المفتوح » للطيفة الزيات .. نقلها عن العربية أ . جورو دتسكايا ول . مدفدكو ، وقدم لها ف . مدفيديف . الطريف ان مجلة الأدب السوفييتى التى نشرت الخبر كتبت اسم المؤلفة محرفا ، فاعتبرتها « لطيفة الزياد » ، وربما لازم الخطأ الترجمة نفسها !

« لندن »

● **سلسلة جديدة بعنوان « كتب عالمية » أعلن عنها نادى الكتاب فى لندن .. وتستهل السلسلة حياتها بمجلد من ٤٠٠ صفحة يضم جميع قصص هيمنجواى القصيرة البالغ عددها ٤٩ قصة .. بسعر ٥ شلنات فقط .**

« أيرلندا »

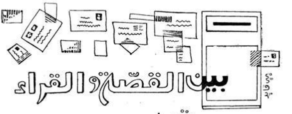
● يعيش انا ! .. عنوان طريف اختاره الكاتب الايرلندى المعروف شون أوفاولين لسيرة حياته التى صدرت عن دار هارث دافيز بلندن ، وفيها يحكى قصة حياته ونضاله فى سبيل قضية بلاده ، واتصاله بأدبائها المعروفين وعلى رأسهم الشاعر وليم بتلريتس .

« باريس »

● **من الترجمات القصصية التى نشرت بباريس رواية « الراس » للكاتب ارنست أوجثين عن الألمانية وقد نشرتها دار جاليمار ، ورواية « الشلة » للكاتبة الأمريكية مارى ماكارثى ونشرتها دار جوازيه .**

« الاتحاد السوفييتى »

● الرجال يبقون رجالا .. عنوان الرواية الجديدة للكاتب السوفييتى يورى بيليار الذى عرف بروايتى « كل هذا حقيقة » . ومسرح الروايتين هو معسكرات الاعتقال الألمانية زمن الحرب الأخيرة . وقد علقت مجلة الأدب السوفييتى على أبطال بيليار فى روايته الجديدة فقالت : انهم « يعانون ويتعذبون لكنهم لا يفقدون تماسكهم الروحى أو ايمانهم . فهم يتخبطون لكنهم يجدون طريقهم من جديد . ذلك لأن الانسانية تقوى خلال النضال ضد اللاانسانية والضعف .. والمؤلف لا يعلق على الأحداث . ولا تنتهى القصة على طريقة « النهاية السعيدة » التقليدية . فالرجال يبقون رجالا ــ وهذا هو السبب الذى يجعل النصر حليفهم فى النهاية » .



يقدمها
ثروت أباظة

عبد التواب عوض الله أحمد

قصتك غاية فى السذاجة . فقد خيل الى وأنا أقرأها أننى أستمع الى خطيب جامع يحث الناس ان يبتعدوا عن الحشيش والأفيون وعن معاشرة رفقة السوء . أشبه ما تكون قصتك بحواديت العجائز وذلك لأنك رفعت صوتك فيها بالموعظة ولو أن صوت الوعظ فيها خفت بعض الشىء لاستطعت ان تقدم الينا عملا أكثر فنية وجمالا . وأنت فى سردك للحوادث تعمد الى النوع الصارخ الذى لا يقبله المنطق ولا المعقول . فحكاية حرق الجنية هذه مبالغة أصبحت القصة الحديثة لاتقبلها . يخيل الى انك تقرأ فى الأدب القديم الذى كان يسوده الافتعال والصراخ . لو انك قرأت للكتاب المحدثين وأكثرت من هذه القراءة لاستطعت أن تبنى البناء الذى تأمل بناءه . أسلوبك القصصى لا بأس به وان كنت تخطىء أحيانا فى النحو وأحيانا أخرى قليلة فى الهجاء .

الأستاذ نديم خشفه ـ حلب :

أعتذر اليك يا سيدى ان تأخر نشر قصتك هذه الشهور الطويلة ولعل نشرها فى العدد القادم يخفف من التقصير الذى توقعنا فيه كثرة الرسائل واختلاطها . أكرر اعتذارى .

مال الله حسين ـ العراق ـ الموصل :

قصتك جيدة ، العرض فيها هادىء وتقديمك للأشخاص والأحداث البسيطة الصغيرة فيه فنية وعمق واطمئنان . وقد استطعت أن تجعل أحداثها متلاحقة فى يسر وفى غير افتعال ولا تكلف . ستنشر القصة قريبا ان شاء الله .

محمد صفوت محمد عبده :

قصتك مجموعة فعلا ولكن حجمها الكبير وضيق المجال أخر نشرها حتى الآن . ستنشر فى العدد القادم ان شاء الله .

الدكتور محمد أحمد الشرقاوى :

قصتك جميلة يا دكتور ولو انى آخذ عليها انك تقدم فيها الأعمال وتخفى عنا المشاعر التى وراءها . كما انك تقدم بعض الشخصيات وتبقى أعماق الشخصيات الأخرى خافية . لماذا احب فوزى فاطمة .. دب بينهما خلاف ثم قلت أنت ولم تقل الأحداث ان حبا ربط بينهما أو ان فوزى توهم أنها تحبه . ولم يقل لصديقه ابراهيم شيئا فيه معالم هذا الحب وانما هى نظرات يظنها هو حبا . والغريب أنك جعلت ابراهيم يصدق هذا حتى انه كره فاطمة حين لم تحزن على موت صديقه ابراهيم .. لماذا .. ولماذا احبها بعد ذلك .. صحيح أن الحب والكره شعوران متقاربان فى نفس الانسان ولكن أكان يكن لها كرها ام غضبا .. وان كان أحبها .. لماذا يحاول أن يعذبها أو لماذا يحاول ان يحيط اعماله أمامه بالغموض . وما موقف فاطمة فى هذا جميعه صحيح انك رويت القصة متنقلا بين الحكاية على لسان الشخص الثالث وبين المنولوج الداخلى الذى استخدمته فى رواية الأحداث بدلا انه لص سرق النقود من ثمن دواء أخيه من استعماله فى اظهار الاعماق النفسية ولكن ما كان هذا ليمنعك ان تقدم الينا شخصية فاطمة ايضا . كل هذه الامور التى اناقشها معك لا تصيب القصة بل لعلها تضفى عليها شيئا من الغموض يجعلها من الناحية الفنية جميلة لذلك فانى سأنشر هذه القصة فى عدد قادم ان شاء الله .

عزى الوهاب ــ العراق ــ كربلاء :

قصتك « انواع من القطط » لم تصل الى فان شئت أن ترسل الى صورة أخرى منها اكون شاكرا .

ممدوح شوكت :

قرات خطابك بصعوبة شديدة لسوء الخط أو لصغر الحروف ان شئت التعبير الدقيق . وقد اعجبنى أسلوبك فانا حريص على قراءة قصتك ولكن خطها الضامر يمنعنى فان أفلحت انا واعجبتنى واردت ان أنشرها تعذر هذا على عمال المطبعة . ان كانت الآلة الكاتبة غير ميسرة فلا اقل من خط واضح يا أستاذ ممدوح .

اميل داود ـ الاسكندرية :

هل هى رمزية قصتك كما أشرت فى خطابك يا استاذ اميل . أنا اراها خطابية رفعت فيها صوتك عاليا بالمضمون الذى كان يجب ان تخفيه الرمزية . اعتقد انك حتى كنت مباشرا أكثر ممـــا تقتضى الواقعية فما بالك بالرمزية . لعلك تظن ان الرمزية كامنة فى الجزء الأخير من القصة حين جرت الخيل فقتلت الفتاة وقتلت بقتلها فكرة التسلط والسوط والجبروت . انا اوافقك أن فى هـــذه السطور رمزية ولكن ماذا تمثل الخيل . قد يمثل حسن الشعب . وقد يعنى تصرفه مفاهيم تهدف اليها قصتك اما الخيل .. لعلك أردت أن تشير بها الى القدر او تغير الفلك او تحول الأيام . لا بأس عليك ان كان هـــذا ما أردت . هذه السطور الأخيرة فيها رمزية حقـا ولكن القصة فى مجموعها فيها علاج مباشر ووضوح ما اعتقد ان الفن الرمزى او الواقعى يرضى عنه .

محمد عمران :

اسلوبك فى غاية الجمال مما يدل على أنك قرات كثيرا فى الأدب العربى ولكن قصتك ساذجة والعـــلاج فيها مباشر بمعنى أنك قلت ما اردت قوله مباشرة دون أن تغلفه بأحداث فنية . فالحوار بينك وبين الكتاب أسلوب فى العـــرض عفى عليه الزمان ولم يعد أحد يستعمله فى القصة الآن وحديث الكتاب عن نفسه اشبه بموضوع انشاء . ومضمون قصتك بعيد عن الانسانية فاعتقادى وانا فى هذا اساير اعتقاد الأغلبية الساحقة فى العالم أجمع أن الروح الانسانية هى أغلى شىء فى الوجود فمجرد تردد بطـل قصتك بين أن يشترى الدواء لأخيه المريض وبين ان يشترى الكتاب لنفسه مجرد التردد جريمة لا تغتفر أما أن يشترى الكتاب ويفضـله على الدواء فهو ابشع من أن يوصف واما الحل الذى اخترته انت من انه وجـد الدواء المحـلى أرخص من الثمن الذى كان مقـــدرا للدواء فهو حـــل ســـاذج أولا ولا ينفى اجرام بطـــل قصـــتك كما لا ينفى انه لص سرق النقود من ثمن دواء أخيه ليشترى كتابا يلاقى به متعته الخاصة، ومهما تكن هذه المتعة شريفة وسامية الا انها لا ترد عن صاحبك صفة الأنانية والسفالة والبعد عن الانسانية . وهى أخلاق ما أعتقد ان شخصا مثقفا يتعشق القراءة كبطل هذه القصـــة يرضى أن تلحق به ومن هنا نرى أن هذه الشخصية فيها تناقض فنى أيضا الى جانب الانبهار الخلقى الذى تتمتع به .



عبد الصبور الزقزاقى ــ المنوفية :

اهى حلم قصتك ام حقيقة . ما هذاالحب الذى انشبته فجاة فى نفس بطلتك هذه العجيبة . فتاة ابنة صاحب محل جميلة غاية الجمال تحب فجأة عاملا عند ابيها دون اى محاولة منه ثم تعلنه هى بالحب ثم تخطبه هى وهو الذى كان يخشى أن يحلم بها ويهيم بها هيامالا مثيل له يذهب الى بلدته ليهيىء لها بيتا فلا يعود اليها وانما يبقى ليصيد السمك مع ابيه . ولا تتركه ابنة صاحب المحل الكبير بل تعد حقيبتها الكبيرة وتلحق بالفتى الهارب لتبصق على أهله وتعود أدراجها الى ابيها .. لو انك قلت انها حلم لكان حلما مصنوعا متكلفا أما وقد شئت ان تجعل منها حقيقة فاسمح لنا الا نصدق هذه الحقيقة . كما أننى لا أستطيع ان أتبين الهدف الحقيقى الذى تهدف له قصتك ان كان هناك هدف تسعى اليه . كنت خليقا الا اعلق على قصتك ولكنك لا شك تملك أسلوبا لا باس به وطريقة السرد عندك تدل على انك تستطيع ان تكتب قصة اذا انت احسنت اختيار الموضوع لها ثم احسنت ربط الأحداث فيها .

عادل آدم :

أعجبت بقصتك جدا . والواقع انك تملك أسلوبا جميلا فى السرد يدل على تمكن ومقدرة .. كم كنت اتمنى الا تشرح نفسية ام زكى شرحا مباشرا بقولك على لسان أحد الصديقين انها عاقلة فى كل ما لا يتصل بولديها . ولكن لا بأس عليك وقد كنت موفقا حين قدمت مشاعرها حين سمعت لفظة دكتور . سأنشر قصتك هذه فى عدد قادم ان شاء الله .

فهرس

فى هذا العدد